

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

تأليف
الدكتور

بسيوني عبد الفتاح فؤاد

المدرس بجامعة الأزهر

الجزء الثاني

مكتبة وهيب

٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - بولاق ٣٩١٧٤٧٠



جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	
رقم التسجيل	١٨٧٤٢



General Organization of the Arabic Language and Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

بسم الله الرحمن الرحيم

المدرس بجامعة الأزهر

الجزء الثاني

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - بليون ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله ومضى على نهجه إلى يوم الدين . . .

أما بعد :

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب : د علم المعاني دراسة بلاغية وتقديرية ، ، وقد سبقه الجزء الأول الذي تناول دراسة أجزاء الجملة : د المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل ، ، فلكشف عن دقائقها ، وجلى أسرارها ، وأبرز ما يمكن وراء أحوال كل جزء منها من لطائف ومزايا بلاغية . .

أما هذا الجزء فيتناول دراسة الجملة وما يمكن وراء أبنيتها وصيغاتها من دقائق وأسرار ، كما يتعرض لعلاقة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل ، فيكشف عن الضوابط والملاحظات التي ينبغي مراعاتها عند التقاء الجملة بغيرها . . وقد تكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : دراسة أساليب القصص .

الفصل الثاني : دراسة أساليب الإنشاء .

الفصل الثالث : دراسة مواضع الفصل ومواضع الوصل .

الفصل الرابع : دراسة الإيجاز والإطناب .

وحتى يؤتى الكتاب ثمرته المرجوة ، ويحقق الغاية المنشودة ، والهدف المقصود ، فقد عرضنا في كل فصل من هذه الفصول لأكبر من الشواهد

— ٤ —

والأمثلة من التعبيرات الجمدة والأساليب الرفيعة ، وأوضحنا ما يمكن وراء
الابنية والصياغات فيها من مزايا وأسرار بلاغية . . .

فالله عز وجل أسأل أن تتحقق الغاية المرجوة من هذا الكتاب ، وأن
ينتفع به طلبة العلم ومحبو المعرفة ، وأن يجزيبنا خير الجزاء ، ويهدينا سواء
السييل ، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير . . .

المؤلف

د / بسيوني عبد الفتاح بسيوني

عزينة - القصيم - المملكة العربية السعودية

في ١٧ رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

الفصل الأول

أساليب القصر

أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات العديدة ، فهو فن دقيق المجرى ، لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار .

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات :

إنما مصعب شهاب من الألاء تجلت عن وجهه الظلماء

تجده يفيد المبالغة في وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة : وأسلوب مرجز ، وقد أثر الشاعر التعبير بإنما ليدل على أن انصاف مصعب بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين ، فتلك خصوصية من خصوصيات «إنما» ، وبهذا يتضح لك أن أسلوب القصر في البيت ، قد حقق ثلاث من أيا : الإيجاز والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذبوع شجاعته .

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة ، واعتبارات وملاحظات لطيفة .

هذا والقصر في اللغة معناه : الحبس ، يقال : قصرته أى حبسته ، وهو مقصور أى : محبوس ، قال تعالى (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)^(١) أى : محبوسات قد قصرن نظارهن على أزواجهن ، فالمرأة قاصرة الطرف هي التي تحبس طرفها على بعلمها وتخصه به فلا نمده إلى غيره .

وفي اصطلاح البلاغيين : « هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص »
 فعندما نقول : زهير شاعر لا كاتب ، فإننا نخص زهيراً بصفة الشعر بحيث
 لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة ، فزهير مقصور ، والشعر مقصور عليه ...
 وقد قيد البلاغيون التخصيص بالطريق المخصوص ، لينخرج كل ما أفاد
 القصر بعير تلك الطرق المخصوصة ، فقولنا : زيد مقصور على العلم .. وجاء
 محمد وحده .. وعلى يختص بالشعر .. وخالد يشهد بالشجاعة .. وقال
 أبو ذؤيب :

وإذا المنبئة أنشبت أظفارها ألفيت كل تمجدة لا تنفع

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق
 دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعمودة
 التي حددوها .. وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددوها
 البلاغيون ، ليس وراءها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث ، ولذا
 حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الغنية بالاعتبارات والملاحظات
 الدقيقة .. وهي : « التقديم » كقوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ »^(١) .. « والمطف »
 نحو : محمد كاتب لا شاعر .. و « إنما » كقوله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
 مِّنْ يَّخْشَاهَا »^(٢) ... « والنفى والاستثناء » كقوله عز وجل : « إِنْ أَنْتَ
 إِلَّا نَذِيرٌ »^(٣) ... وأضاف بعضهم : « تعريف المسند أو المسند إليه بال
 الجنسية » ، « وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر » نحو : محمد الجواد ..
 وعلى هو العالم ... وزاد بعضهم طرقاً أخرى حتى وصلت طرق القصر
 عندهم إلى أربعة عشر طريقاً^(٤) .

(٢) - سورة النازعات آية ٤٥ .

(٤) انظر الانةان ج ٢ ص ٥٠

(١) سورة الفاتحة آية ٤ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٣ .

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى لأنهم هي الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها . . .

والبلاغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى غرض المتكلم من الاختصاص . . . وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص . . . وإلى طرفي القصر أي المقصور والمقصور عليه . . . ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات . . . فالقصر كما عرفناه : « تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، الشيء الأول هو المقصور والثاني المقصور عليه ، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور عليه : ألا يتجاوزه ويتمده إلى غيره . . . فني قولنا : « ما شاعر إلا زهير ، قصر الشعاعية على زهير بحيث لا تتمده إلى غيره . . . وهذا الغير الذي انتفت عنه صفة الشعر إن كان عاماً فالقصر حقيقي ، وإن كان معيناً فالقصر إضافي . . . والعالم إن كان مطابقاً للواقع الخارجي فالقصر حقيقي تحقيقي ، وإن كان معيناً على الادعاء والمبالغة فهو حقيقي ادعائي . . . ثم القصر الإضافي ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون متردداً في إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عن المنفي عنه . . . وإما أن يكون معنقداً الشبهة أي : اشتراك المنفي عنه والمقصور عليه في المقصور . . . وإما أن يعتقد العكس أي : إثبات المقصور للمنفي عنه ونفيه عن المقصور عليه . . . فالأول قصر التعمين والثاني قصر الأفراد والثالث قصر القلب . . .

ثم ينظرون إلى طرفي القصر ، أي : المقصور والمقصور عليه ، لأنه لابد أن يكون أحدهما موصوفاً والآخر صفة ، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة . . .

هذا وليست طرق القصر سواء في الدلالة عليه ، بل بينها فروق دقيقة كما قلت . . . تحتاج من الدارس إلى أن يقف عليها إلى تأمل واعي ونظر دقيق ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين ، بل يحتاج من الدارس أيضاً إلى نظر وتأمل في أسلوب القصر ، فمثلاً قولك : « إنما ضرب محمد زيداً

يقيد قصر الضرب الواقع من محمد على زيد ، وقولك إنما ضرب زيداً محمد ،
يقيد قصر الضرب الواقع على زيد ، على فاعله محمد ، وبذنبهما فرق كبير ...
هذا إجمال غل لما ذكره البلاغيون في حديثهم عن أساليب القصر ، ولكن
يتبدد هذا الإخلال فتقف على مزايا القصر وأمراره ودقائقه ، فإننا سنتبعه
بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلي إن شاء الله ..

القصر الحقيقي والإضافي :

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين :
قصر حقيقي ، وقصر إضافي ...

فالقصر الحقيقي : ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصود
عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً ... وهذا يعني أن المنفى عنه يكون عاماً ،
فالمقصود يختص بالمقصود عليه منفى عن كل ما عداه ... كما في قوله تعالى :
« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ »^(١) ، في الآية طريقان من
طرق القصر الأول التقديم ، وعنده مفاتيح الغيب ، ، والثاني : المنفى
والاستثناء ، لا يعلمها إلا هو ، ، فمفاتيح الغيب عنده وليست عند غيره ،
وعلمها مقصور عليه تعالى ، منفى عن كل ما عداه ، وتكرار القصر أفاد تأكيد
هذه الحقيقة وتقريرها ، وهي أن العلم بالغيب يختص به تعالى ، لا يتعداه إلى
أحد من خلقه ... ومنه قولنا : « ما خاتم الأنبياء إلا محمد ، ، فالمراد : أن
ختم النبوة مقصور على محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتعداه إلى غيره من
الرسل ... وقوله عز وجل : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً »^(٢) ،
فالمراد بقصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعدى إلى غيره مطلقاً .

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٤٤

والقصر الإضافي : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين ، أى بالإضافة إليه ، بحيث لا يتجاوز به إلى ذلك المعين .. كما في قولنا : زهير شاعر لا كاتب ، فالمراد : قصر زهير على صفة الشعر ، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة ، وهي صفة الكتابة ... وهذا لا ينافي أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلا ، ففي القصر الإضافي يكون المنفى معيناً محدداً ، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفى المعين ، وإن أمكن أن يتجاوز به إلى غيره ... ومنه قولنا : الشاعر ذو الرمة لا زياد ، فصفة الشعر مقصورة على ذي الرمة ، لا تعداه إلى زياد ، وإن صح أن تعداده إلى نصيب والكميت وجريز والفرزدق وغيرهم من الشعراء ...

هذا وينقسم القصر الحقيقي إلى قسمين : حقيقى بحقيقى وحتقيقى ادعائى .
فالحقيقى : ما كان المنفى فيه عاما يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث واقع الحال وحقيقة الأمر ، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره في واقع الأمر وحقيقة الحال ، كما في الشواهد التي مرت بنا وكما في قولك : ما أكرمت إلا زياداً ، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد في واقع الأمر وحقيقته ... ومنه قولنا : لا يجمع إلى مكة إلا المسلمون ، فالواقع يتطابق هذا ، لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين . ومنه عن كل من عدلهم من أصحاب الملل الأخرى ... ومنه قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ أَلْمَلِكُ وَيُدَوِّعُ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(١) ، فالملك يختص بالله في الحقيقة والواقع ، ومنه عن كل ما عداه وقوله تعالى : « إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ »^(٢) ، فالعبادة وطلب العون مختصان بالله ، ومنه عن كل ما عداه في واقع الأمر وحقيقته ... وقوله عز وجل : « وَمَنْ يَفْضُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ »^(٣) ، فغفران الذنوب يختص بالله تعالى ، بمنفى عباده

(١) - سورة الملك الآية ١ (٢) - سورة الفاتحة الآية ٤

(٣) - سورة آل عمران الآية ١٣٥

في الواقع والحقيقة ... ونلاحظ أن المقصور في المصروف في المصروف المدة كورة صفة، والمقصود عليه موصوف ، فالقصر الحقيقي التحقيقي يقع كثيرا في الكلام إذا كان المقصور صفة ، ويقل في قصر الموصوف على الصفة ، لأن الغالب في الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة ... أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه ... وقد غالى بعض البلاغيين فقالوا إن قصر الموصوف على الصفة قصر انجقيقا بتحقيقا لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتمتع بالإحاطة بها أو تنحصر ، فإذا قلنا : ما زهير إلا شاعر ... وما زياد إلا كاتب ... لا يتأتى أن يكون زهير مقصورا على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها ... ولا يمكن أن يكون زياد موقوفا على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها ... كيف ومما يأكلان ويتكلمان رعيان ، ويتصنفان بالحياة ، وباليأس أو السواد وبالقصر أو الطول وبالإذكاء أو الغيابة ... إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الخي ... بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية . فقالوا : إن الصفة المنفية لها نقيض البتة ، وهذا النقيض من الصفات ، فإذا نفيت جميع الصفات لهم ارتفع النقيضين ... واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد ، ودخلت المسألة في مما حركات كلامية ينبغي أن ينزه عنها الدرس البلاغي ، لأنهم من الشرائب التي تعمكر صفوه وتسكر عذبه (١) ... ولو تنبه هؤلاء إلى قول عبد القاهر : ، واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو ما زيد إلا قائم ، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ، ونفيت ما عدا القيام عنه . فإنما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكبئا أو ما شاكل ذلك ولم ترد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل ، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أننا إذا قلنا ما قائم

(١) انظر إن شئت شرح التلخيص والمطول .

لأزيد لم ترد أنه ليس في الدنيا قائم سواء وإنما نعى ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك،^(١) لو تنبهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغى وخاضوا بها الخوض الذى خاضوه ...

وخلاصة القول أن المبنى عنه في القصر الحقيقى التحقيق، ما هو بسبيل من المقصور عليه، وواقع في دائرته، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر، فإذا قلت ما شاعر إلا زيد فإنك لا تعنى نبي الشاعرية عن كل من ولدته حواء في كل العمود وكل الأمم، وإنما تعنى نبي الشاعرية في حدود ما يشير السياق والقرائن،^(٢) وكذا إن قلت ما زهير إلا شاعر، لا يعنى أنك تنفى عن زهير كل صفة غير الشعر، وإنما يعنى أنك تنفى عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة. وكل ما هو في نطاق القول والإبداع مما يحدده السياق وتشير إياه القرائن ...

أما القصر الحقيقى الادعائى، فهو أن يختص المقصور بالمقصود عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، ادعاء ومبالغة، فالمقصود يختص بالمقصود عليه وينفى عن كل ما عداه عما هو بسبيل منه نفياً يقوم على المبالغة والتجاوز، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع ... كما في قوله تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^(٣)، فقد قصرت خشية الله على العلماء ونفيت عن كل ما عداهم ... ولا يبنى هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكن سياق الآيات في التنويه بشأن العلماء وتعظيم منزلتهم، والحث على النظر والتأمل أقرأ: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَعَيْنَ الْجِبَالِ حُدُودٌ يَبِينُ

(٢) دلالات التراكيب ص ٤٢ .

(١) دلالات الإعجاز ص ٢٢٥ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

وَحُرِّ مُخْتَلِفَ أَلْوَانِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . « ، ولذا
كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم ، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها
في هذا المقام .. ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي
وَأَخِي .. » (١) ، أثبت موسى عليه السلام ، ملكيته لنفسه ولأخيه ونفاهما
عن كل ما عداهما ، والمراد : لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق
إلا نفسي وأخي ، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك رجالان يخافان الله ، قد
أنعم الله عليهما بالإيمان ، ولكن موسى لم يعتد بإيمانها ، نظرا لتقلب قومه
وتغير أحوالهم ولذا قال : « فَأَنْزَلْنَاهُ فِي نَجْمٍ » الْفَاسِيَةِ .. « .

ومن ذلك قولنا : ما شاعر إلا زهير ... وما الرثاء إلا رثاء ابن الرومي ..
وما ختليب إلا زياد ... فقد بنى القصص على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتداد
بغير زهير في الشعر : وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزن المثل ، وبغير زياد
في الخطابة وحسن البيان ... ومنه قول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فالمراد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار وهو سيف الإمام علي - كرم الله
وجهه - ونفيها عما عداه ، وإثبات الفتوة له - رضى الله عنه - ونفيها عن
غيره ، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته ، فهناك سبعون ، كثيرة ماضية نفاذة
وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقبل عن بطولته - كرم الله وجهه - ،
ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة .. ومنه قوله صلى الله
عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فطاعه على هلكته
في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها .. » ، فقد قصر الحسد

بمعنى: تنبؤة على هاتين الصفتين ، ونفى عما عداهما ادعاء ومبالغة ؛ لأن الغبطة تكبر ، في غير الاثنين المذكورتين وليكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء ... هذا والقصر الادعائي كثير في كلام العرب ، ويرد في مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم : ما يؤدب إلا فلان ... ما عالم إلا فلان ... ما شاعر إلا امرؤ القيس .. ما خطيب إلا صحار العبدى .. ما كاتب إلا فلان .. يبنون الكلام في ذلك على المبالغة وعدم الاعتماد بغير المذكور في تلك الصفات ..

قصر الأفراد والقلب والتعيين :

تقدم أن القصر الإضافي ، ما يكون المنفى فيه معيناً ومحدداً ، فالمقصود يختص بالمقصود عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما في قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُشِيرٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ »^(١) ، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، دون أن يملك تحويل القلوب عما هي عليه من العناد والمكابرة .. وكما في قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنى
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصرت الشكوى على « الله » عز وجل بحيث لا تعداه إلى شيء معين وهو « الناس » ، وهذا القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب ، واعتقاده الذي وقف عليه المتكلم ، إلى ثلاثة أنواع : قلب ... وإفراد ... وتعيين .

قصر القلب : هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر .. ويخاطب به من يعتقد العكس ، كقولك : جاني زيد لا عمرو ، مخاطباً من يعتقد أن عمرأ هو الذي

جاءك دون زيد ، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده ولذا سمى قصر قلب ،
 ثم منه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ
 كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ »^(١) ، لأن
 المنافقين يعتقدون أن المؤمنين هم السفهاء دونهم ، فقلب الله عن وجل اعتقادهم
 وبين أن المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون .. وقوله تعالى : « مَا لِلْيَسِيعِ
 بِنِ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتِمُّهُ صِدْقَةً كَانَا
 بِأَكْثَلِ النَّفْسَانِ الظَّالِمِينَ » انظر كيف كُتِبَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظر أُنْفِ
 يُؤْمِنُونَ .. »^(٢) فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة « أَقْدُ كَفَرُ
 الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ .. » ، فقلب الله تعالى اعتقادهم :
 « الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. » فالمسيح مقصور
 على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه
 إلها كما اعتقد الكفرة ، ولذا فالقصر في الآية الكريمة قصر قلب .. وتأمل
 قول أبي تمام :

والعلم في شهب الأرماع لامة بين الخيسين لا في السبعة الشهب

تجده قد قصر العلم على كونه في قوة الجيش والعتاد ، ونفاه عن كونه
 في علم المنجمين الذين نصحو المعتصم ألا يقبل على الجهاد في ذلك الوقت ،
 لأن الهجوم تنبي بأن يترث ولا يتعجل ، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا ، وأقبل
 إلى الجهاد ، فانتصر وفتح عمورية ، وأشد أبو تمام هذه القصيدة مشيدا
 بنصره ، ومشييرا إلى قصور علم المنجمين .. . فالقصر في البيت المذكور
 قصر قلب ، لأنهم اعتقدوا أن العلم في السبعة الشهب لا في قوة الرماح والجيش ،
 فنفي أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما ترى .

وقصر الأفراد : هو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به من يعتقد
الشركة ، كقوله : محمد الجواد لا على لمن اعتقد أنهما يشتركان في صفة الخلود
ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ
إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ » (١) ، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة ،
وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد ، وما من إله إلا إله واحد ، فهو قصر
لأفراد .. وتأمل قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) (٢) ، فالصحابا رضوان
الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، نزولوا منزلة من يعتقد
أن محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد ، فجاء أسلوب
القصر مفيداً أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة ، فهو رسول
يخلو كما خلعت الرسل من قبله ، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا .
وتخذ قوله تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ
يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ • إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ) (٣) ، فلما كان
النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى هداية قومه ، حرصاً بل شديد الحرص على
قبولهم الهداية ، نزل عليه الصلاة والسلام ، منزلة من يعتقد أنه يجمع بين
صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال
والمكابرة ، فجاء أسلوب القصر : « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » محمداً مهمة النبي
صلى الله عليه وسلم وقاصراً له على صفة الإنذار ، لا يمتد لها إلى القدرة على
إسماع من في القبور ..

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة أفراداً ، عدم تنافي الوصفين حتى
يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب ، فلا يقال في قولك :
محمد أبيض لا أسود ، إنه قصر لأفراد ، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤

(١) سورة المائدة آية ٧٣

(٣) سورة فاطر آيتا ٢٢ ، ٢٣

محمدًا يتصف بالبياض والسواد معا . . . كما اشترط الخطيب انقروني في قصر
الموصوف على الصفة قلباً ، تنافي الصفتين حتى يكون إثبات أحدهما مشعراً
باتتفاء الأخرى كقولك محدطوب لا قصير ، زيد ذكي لا غبي ، عمرو وشجاع
لا جبان ، حاتم كريم لا بخيل . . . ورد عليه بأن قصر القاب يرد كثيراً
في الصفات غير المتنافية - كما مر بك - فلا وجه لهذا الاشتراط . .

قصر التعمين : وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به المتردد
بين شيئين . كقولك لمن يتردد شاكا في الناجح عمرو أم بكر ، إنما الناجح
عمرو ، وقولك لمن يشك في أمر زيد أم مقيم أم مسافر ، زيد مقيم لا مسافر ،
وتأمل قول الشاعر :

فإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

تجده قصرًا إضافيًا صالحاً لأن يكون قصر قلب أو أفراد أو تعمين ،
وذلك حسب تصورك لحال المخاطب ، فإن كان يعتقد أن الشرف في اللبس
والزينة دون الفضائل النفسية ، فهو قصر قلب ، وإن اعتقد أن الشرف فيهما
معاً فهو قصر أفراد ، وإن تردد وشك في مرجع الشرف ، إلى اللبس والزينة
يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعمين ، والأرجح أن يكون قصر
تعمين ، لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان
من الفضائل لا إلى الشكل والزينة ، فهذا من الأمور الواضحة الجلية ،
ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب في الأمور البديهية ، كن يرتاب مثلاً في زينة
السيف وجودته إلى حدته وشدة قتله ترجع أم إلى غمده والحمائل ، فن
ارتاب في هذا الأمر البين ، فقل له موبخاً ، ومشيراً إلى ضعف عقله ، وقلة
تفكيره ، وشدة غيبائه : ما السيف إلا غمده ، والحمائل . .

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب : ما وقف القارئ للتعبيرات الجميدة
عليه من قرأتين الأحوال وسباقات الكلام ، فالسياق وما به من قرأتين

هو الذي يبرز لك حال الخطاب . . تأمل قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ..)^(١) ، وقوله عز وجل : (مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . .)^(٢) ، فالمبارات واحدة والبناء هو البناء ، وعلى الرغم من ذلك نقول : إن النص في الآية الأولى قصر أفراد ، وفي الثانية قصر قلب ، وألقى جملة تقول هذا القول الوقوف على أحوال الخطابين من خلال تأمل سياق الآيتين . . اقرأ سياق الآية الأولى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاءَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَاتَّقُوا كُفْرَكُمْ تَنْفُتُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقُومَهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنِّي بِفُتْرٍ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . .) فهو بذلك بمدى حب الصحابة رضي الله عنهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وتغلغل هذا الحب في نفوسهم ، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته ، ولم يخطر ببالهم ، وهذا عبد الله ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول : ، فرأى لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فسا أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها ، . . وهذا هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرفت حتى ما تلقاني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض . .

فلمسدة حب الصحابة لرسول الله وتعلقهم به نزلوا منزلة من يستبعد موته ، وكانهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبلي من الهلاك ، ولذا كان القصر قصر أفراد . . ثم اقرأ سياق الآية الثانية (اتَّقُوا كُفْرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ (٢) - سورة المائدة الآية ٧٥

(٢) علم الثاني

قَالَتْ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ بَنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ حَبِيبَةٌ . كَانَا بَاكِلَانِ لِلطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَبِيْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ : أَنَّى يُرْفَعُونَ) ، فستقف منه على حال هؤلاء ، فهم اعتقدوا أن عيسى - عليه السلام - إله ، وأن الله ثالث ثلاثة ، ولذا كان القصر هنا قصر قلب ، حيث قلب اعتقادهم وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولا يخلو كما خابت لرسول من قبله ، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها .

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومهمته بشئون مخاطبه ، فعند التأمل نجد أن حال المخاطب تتول إلى المتكلم وما قد علمه ووعاه عن مخاطبه . . وفي كثير من الشواهد لا يستطيع أن يحدد مخاطبا أو يعين حالا له ، بل يجد القصر منظورا فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه . . تأمل قول الشاعر :

وكنتم أسرا ألقى الزمان مسالما فمآليت لا ألقاه إلا محاربا

يجد القصر فيه قصر قلب ، فالشاعر قد تغير وتبدل وانقلب من امرئ يلقى الزمان مسالما إلى امرئ لا يلقاه إلا محاربا ، وأنت إن ذهبت تفأش عن حال هذا لا تجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه .

وقد انشغل كثير من البلاغيين ودارسين بمسألة المخاطب هذه ، وخاصوا فيها خوفا ، وقالوا أقوالا كثيرة ، ولا نرى داعيا لإلحاح مثل هذه الأمور أو الانشغال بها ؛ لأنها لا تعود على الدارس بفائدة ، والامر مآله - كما قلت لك - إلى المتكلم وما يرسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه . . . ونحن عندما

ندرس مسائل البلاغة في التعبيرات الجيدة ، والأساليب الرفيعة ، إنما نتأمل السياق لنقف على قرائن الإحوال فيه ، وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما نحذف إليه التراكيب ، وعلى صوره هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة .

قصر الصفة على الموصوف ، والموصوف على الصفة : وينقسم القصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة ، والمراد بالصفة هنا الصفة الممنوية التي هي معنى قائم بالذات سواء كان فعلا أو مصدرا أو مشتقا أو ظرفا أو جارا ومجرورا أو غير ذلك ، وليس المراد بها النعت النحوي ؛ لأنه لا يقع قسر بين نعت ومنعوتيه ، كقولك : جاء رجل فاضل ، ففاضل نعت نحوي للرجل ، لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر . . . كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غير ، وإن كان هو في نفسه صفة ، تقول في قصر الصفة على الموصوف : ماشاء إلا زهير ، ما كتب فلان إلا الشعر ، ما أكرمت إلا زيدا . . . وفي قصر الموصوف على الصفة : ما شوقي إلا شاعر إمام أنت والذي . . . محمد فارس لا عالم ، ما حاتم بخيلا بل جواد .

فتقصر الصفة على الموصوف معناه : ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلا . إذا كان القصر حقيقيا . أو إلى موصوف آخر إذ كان القصر إضافيا ، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقبولا : الخالق هو الله ، وتقصر صفة الخالق على الله سبحانه وتعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ^(١) حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (وَعِذُّهُ مُقَاتِلُ الْغَيْبِ

لَا يَنْفُلُهَا إِلَّا هُوَ ١٠٠) (١) حيث قصر العلم بمفاتيح الغيب على الله تعالى
قصرا حقيقيا تحقيقيا فهو قصر صفة على موصوف .

ومنه قول أن تمام :

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة النعب (٢)

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات
القفرة وهو موصوف قصر حقيقيا ادعائيا ؛ لأن الناس يطردون همومهم
بأمور كثيرة ، ولكن الشاعر لم يعتد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته
والتي كانت سببا في حزن صاحبه وانسكاب عيونها ، فأراد أن يبين لها أن
تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطرد الهموم والأحزان . . . تأمل :

رأت تشنقه فاحتاج هائجها

وقال لأعجبها لليرة انهكبي

لا تنسكبي منه تنديدا فجلا

فالسيف لا يزدرى إن كان ذا شطب

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل

مقلقل لبنات القفرة النعب

فهو لم يعتد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه ، على الرغم من وجود
وسائل كثيرة لطرد الهموم - كما قالت - ولذا كان القصر - حقيقيا ادعائيا . .
ومنه قول الآخر :

(١) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٢) المراد بالهم الأول : ما يجده الرجل في صدره من أحزان ، والمراد بالهم الثاني :
الهمة والعزيمة ، ومقلقل : من القلقله وهي الحركة العنيفة ، ولبنات القفرة : الإبل التي
تقطع القفار ، ولانعب مبردها نعوب ، ولانعبان : تحريك الناقة رأسها في الجير وهذا
دليل النشاط والقوة .

إلى الله اشتكوا لا إلى الناس انتهى
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصرت صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوز به إلى الناس فهو
قصر إضافي ... وقول المتنبي في رثاء جدته :

ولم يسلمها إلا المنايا وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقم

مقد قصرت سلوها على المنايا قصرت صفة على موصوف قصرا حقيقيا
تحقيقيا ، لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه في غيبته فلما وصلها كتابه قبضته
وفرحت ثم أخبرت كذبا أنه قد مات فحمت وماتت ، فرأها بتلك القصيدة ..
أما قوله : وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقم ، ذلك أن يجعله قصير صفة
على موصوف ، أى : قصر وأشد من السقم ، على الذى أذهب السقم ، والمزيد
بأشد من السقم : صفات الكآبة والالام والفقدان والوجع التي تغلب السقم
وتقهره وتعلو به ، لأنه لا يقهر الشئ إلا ما هو أشد منه وأقوى منه فهو يتخيل
صفات كآبة أقوى من السقم ، ويقصرها على ما أذهب السقم ، وهذا لغراب
في الخيال ... (١)

ولذلك أن يجعله من قصر الموصوف على الصفة ، أى : قصر الذى أذهب
السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم ، ويكون طريق القصر عندئذ
هو التقديم ، وإنما ملافة كما في قوله :

أسميا لم تزد ممرقة وإنما لذت ذكرناها .

وسميتي تفصيل القول في هذا ، وهو ما أراه وأرجح ؛ لأن في الأول
تدقيقا ولغرابا في الخيال ما أظن أن المتنبي قد قصد إياه .

وقصر الموصوف على الصفة معناه : ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً ، إذا كان "تقصر حقيقة" . أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافياً ، وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفاً لموصوف آخر غير المقصور . نقولك ما عمرو ، إلا شجاع ، قصر عمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى ، أما الشجاعة ، وليس هنالك ما يمنع من أن يتصف بها غير عمرو ، ونقول : زيد كاتب لا شاعر ، فتقصر زيداً على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر ، فهو قصر إضافي ونقول : ماشوق إلا شاعر ، فتقصر شوقياً على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة أخرى ، فهو قصر حقيقي ، ولا يقال : كيف يرتف الموصوف على صفة واحدة ؟ هذا محال ولا يتأتى ؟ . . . لأننا نقول : المراد بالصفات المنفية ، تلك الصفات التي تتصل بالمعنى المذكور ، فالصفة المقصور عليها في المثال ، صفة الشعر ، ومعنى قصر شوق عليها قصر حقيقة ، أنك نهيت عنه كل ما يتصل به ويدور في فلكها أو كما يقول عبد القاهر ، كل ما هو بسبيل منها ، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك ، فهو ليس بارعاً في فرع من فروع المعرفة إلا في الشعر الذي قصر عليه ، وليس المراد أنك نهيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها ، كما كونه مصرياً أو فقيراً أو أو صليحاً معافاً أو أبيضاً أو كريماً أو شجاعاً . ليس هذا مراداً بل المراد - كما قلت - ما هو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها .

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُسَمِّعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)^(١) . حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، لا يتجاوزها إلى أن يلك تحويل القلوب المشركة ، عما هي عليه من العناد والمكابرة . . . وقوله عليه

الصلاة والسلام : من يرد الله به خيرا يققه في الدين ، وإنما أنا قائم و الله عز وجل يعطى . . .

فقد قالوا في معناه : كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلى ، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المعاني الكثيرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يحدثهم يكون كلامه مقسوما بينهم ، شركة بين الجميع ، أما انهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن ، ففي الحديث قصر للرسول عليه الصلاة والسلام على كونه قاسما لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء فالإعطاء وتحقيق العلم من الله تعالى ، وكأن الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم في هدايته عليه الصلاة والسلام - وأما أنه يسم ويعطى ، ولذا بين لهم - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يملك إلا القسم ، وأما الإعطاء فمن الله تعالى ، فالقصر قصر موصوف على صفة قصر الإنسانيا أفراديا .

ومنه قول دريد بن الصمة :

دهل أنا إلا من غزبة إن غوت .

غويت وإن ترشد غزبة أرشد

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى غيرها من القبائل ، فهو قصر حقيقة تحقيق . . . وقول شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

إذ هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فقد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصر حقيقة ادعائيا ، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأمم كالقوة والمال والرق والحضارة وغير ذلك ، ولكن الشاعر لم يعتد بها وجعل الأمم مقصورة على صفة الأخلاق لا تتعداها إلى غيرها ، فإذا وجدت الأخلاق وسادت كانت الأمم وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

ومثله قول الآخر :

هل الجود إلا أن تجود بأنفس

على كل ماضى الشفرتين حصيل

حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصر
حقيقياً ادعائياً ، فالشاعر لم يعتد بما عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال
والرأى والجهد وغير ذلك من ضروب البذل . وجعل الجود مقصوراً على كونه
بالأنفس فقط ، إذ الجود بالأنفس أسمى غاية الجود .

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد باوغ الموصوف
الغاية ، ووصوله حد النهاية في تلك الصفة ، فقولك : ما زهير إلا شاعر ، يفيد
كمال المبالغة في شاعريته ، وأنه قد بلغ العاية في الشعر . ووصل إلى حد جعلنا
لا نعتمد بالصفات الأخرى التي يمكن أن يتصف بها ، وذلك لقصور تلك الصفات
عن صفة الشعر التي تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية . . . ولذا كان قولنا :
ما زهير إلا شاعر ، أبلغ في وصفه بالشاعرية من قولنا : ما شاعر إلا زهير ،
أو بمعنى آخر : يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقوى في اتصاف
الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف ، لاحتمال كون
هذه الصفة التي قصرت على الموصوف دون المستوى الأمثل إذ لم تصل إلى
حد الكمال كل ما هنالك أنها وجدت في زهير دون غيره من الناس . . .

هذا والمراد بالصفة - كما قلت - الصفة المعنوية التي هي معنى قائم
بغيره كما أن المراد بالموصوف ما قام به غيره وإن كان هو في نفسه صفة ،
وقد نظر البلاغيون في جملة القصر . ومنه واللك ضوابط تعينك على تحديد كل
من الصفة والموصوف ، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركبي الجملة
الاسمية ، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة
كقولك : ما زيد إلا أخوك وإنما محمد كاتب ، وقوله تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ^(١) وقوله : إِنَّمَا زِينَةُ الدَّارِ ، وما الجود إلا أن تجود بالنفس ، إلا إذا كان الخير اسماً جامداً والمبتدأ مشتقاً ، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف كقوله : ما السكائب إلا زيد ، وما القائم إلا عمرو ، لأنك أردت الحكم على السكائب بأنه زيد ، وعلى القائم بأنه عمرو ، فالسكائب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتدأ خبره عمرو ، والقصر قصر صفة على موصوف .

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى : (مَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)^(٢) ، وقوله عز وجل (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)^(٣) قد قصرت مهم ، الرسول على البلاغ قصر صفة على موصوف ، أما قوله : د علينا الحساب فهو قصر للمبتدأ الحساب ، على الخبر د علينا ، قصر موصوف على صفة قصر احذيقاً نحتميقاً .

وإذا وقع القصر بين أجزاء الجملة الفعلية ، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقوله : ما كتب إلا محمد ، لا يقال الملا إلا محمد ، ومنه قول القائل لا يطرد الهم إلا الهم من رجل ، وقوله جل وعلا : (لَا يَمْلِكُ إِلَّا هُوَ)^(٤) وقوله تعالى : (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)^(٥) وقوله : (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)^(٦) ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٧) .

وقصر الفعل على المنفعل كقوله : ما ضرب محمد إلا زيدا ، وإنما كرم

-
- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| (١) - سورة الحديد آية ٢٠ | (٢) - سورة المائدة آية ٩٩ |
| (٣) - سورة الرعد آية ٤٠ | (٤) - سورة الأنعام آية ٥٩ . |
| (٥) - سورة الأنعام آية ٤٧ | (٦) - سورة آل عمران آية ١٣٥ |
| (٧) - سورة فاطر آية ٢٨ . | |

زيد عمراً وكما في الآيات الكريمة: « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ » ..
« إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » .. « إِنْ يَنْتَهِمُونَ إِلَّا الظَّنَّ » ، وكقولهم:
إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، يجوز أن يعد من قبيل قصر الصفة على
الموصوف أى : قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى
عندئذ : ما مضروب محمد إلا زيد ، ما مكرم زيد إلا عمرو ، ما مقول إلا
ما أمرتني به ، ما مالهكمم إلا أنفسهم ، ما متهمهم إلا الظن ، ما مأكول الذئب
إلا الغنم القاصية ، فتؤول الصفة المقصورة اسم مفعول . لأن الحدث لم يقع
من المفعول المقصور عليه وإنما وقع عليه ... ويجوز أن يعد من قبيل قصر
الموصوف على الصفة ، أى : قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول ، ففى
الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد ، وزيد على إكرام عمرو ، وعيسى
عليه السلام على قول ما أمره الله به ... إلى آخر تلك الشواهد ... وتلاحظ
مدى التسكف فى الوجه الأول ، وأن الوجه الثانى غير ممكن إذا كان طريق
القصر وإنما ، لأنه يؤدى إلى أن المقصور عليه قد ولى وإنما ، ومعلوم أن
المقصور عليه وإنما هو المؤخر ... والأولى من هذين الوجهين أن يجعل
الفعل مقصوراً على تعلقه بالمفعول ، تقول فى الشواهد المذكورة ، قصر
ضرب محمد على تعلقه بزيد ، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو ، وقول عيسى
على تعلقه بما أمره الله به ، وأكل الذئب على تعلقه بالغنم القاصية ، وهكذا
فى بقية الشواهد المذكورة .

وقصر الفاعل على الظرف نحو : مسافر خالد إلا يوم الخميس ، أو على
المفعول لأجله نحو : ما زرتك إلا بحبة ، وقوله عز وجل : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
إِلَٰهًا يُفَرِّقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ زُلْفَىٰ)^(١) ، أو على المفعول المطلق نحو : ما قلت إلا قول
المخلصين ، ما حججت إلا حجتين ، وقوله تعالى : (إِنْ تَنْظُرْ إِلَّا ظَنًّا)^(٢)
أى : ظناً ضيقاً ، أو على التمييز كقولك : ما طاب محمد إلا نفسه ، أو على الجار

والمرور نحو : ما عملت إلا في بيتك ، وما دافعت إلا عنك ، أو على غير ذلك من المتعلقة التي يقع فيها القصر ، فإن القصر فيما يكون إما من قصر الموصوف على الصفة ، أو من قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارات الموضحة في قصر الفاعل على المفعول .

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو ما جاء على إلا راكبا ، وما لقيته إلا ضاحكا ... ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون .

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو ما جاء راكبا إلا خالد ، ما لقيني من حبا إلا عمرو ، ما انتصر غاضبا إلا زيد .

وأما المفعول المطلق المؤكد له عمله ، والمنعول معه فلا يتأني فيهما القصر إذ لا يقال : ما ضربت إلا ضربا ، ولا ما سبرت إلا والنيل ، أم قوله تعالى : (إِنْ نَظُنُّهُ إِلَّا ظَنًّا) ، فعناه : إن نظن إلا ظنا ضعيفا . فهو مصدر مبين للنوع .

ما الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي : وكما مر بك في أنواع لقصر ، فإن القصر الحقيقي الادعائي المنفي فيه عام . إذ يشمل كل ما عدا المقصور عليه ادعاء ومبالغة ، فقولك : ما شاعر إلا زهير ، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لا تعداه إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة ، وكذا قولك : ما زهير إلا شاعر ، قصر لزهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى غيرها أصلا ، وهذا يعني أنه قد تفرق في هذه الصفة وبلغ فيها الغاية ، إلى درجة جعلتك لا تعتمد بأي صفة أخرى غيرها . أما القصر الإضافي فالمنفي فيه محدد وليس عاما ، تقول : زهير شاعر لا كاتب ، فتقصر زهير على الشعر وتنفي عنه الكتابة ، إفراداً أو قلباً أو تعييناً حسب اعتقاد المخاطب وتقول حاتم جواد لا على فتقصر صفة الجرد على حاتم وتنفيها عن على .

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة إما أن يكون تحقيقيا وإما أن يكون ادعائيا ، لأن قولك : حاتم جواد لا على ، إذا كان مطابقا للواقع بمعنى إن يكون حاتم هو الكريم فعلا ، وعلى هو البخيل ، كان القصر تحقيقيا ، وإن كان على كزينا وليكن لم تعد بكرمه لأمر ما ، فخلت حاتما هو الجواد دونه كان القصر ادعائيا مبنيا على المبالغة . . . وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة ، فقولك : زهير شاعر لا كاتب ، إن كان فعلا لا يجيد الكتابة ولا يعرف طريقها وفنونها ، كان القصر تحقيقيا ، وإن كان يعرفها وليكن لم تعد بذلك المعرفة لكونه في الشعر أخص وأبلغ كات القصر مبنيا على الادعاء بالمبالغة .

طرق القصر :

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي أوظفها علماء البلاغيون أربعة ، العطف والتقييد والاستثناء وإلغا والتقديم وإضافة بعضهم طريقتين آخرين ومما : توسط ضمير الفصل وتعريف أحد ركني الإسناد بال ، وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين ، وليكن لفائدة القصر ليست مقصورة عليها ، فهناك طرق كثيرة غيرها ، وقد ذكر السمين في أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقا ، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعروفة على نحو ما سأذكر ، وليكن ليس وراء لفائدة القصر بغير طرقه المعروفة اعتبارات تذكر ، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغير هذه الطرق المشهورة ، الغنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية . . . وإليك بيان تلك الطرق وما يمكن وراء دلالاتها على القصر من مزايا وأسرار بلاغية .

١ - العطف بالإلزام والترك : تقول : زيد كريم لا عمرو ، ولأن جواد لا بخيل ، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر ، وخالد ينصحك مخلصا لا مرآيا ، وخالد لا عمرو ، وليس حاتم بخيلا بل جواد ، ولم ينصحني عمرو لمكن صديقه . . . فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة

فواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفى ، أى : المتصور عليه والمنفى عنه ، ولذا كان أقوى طرق القصر وآكدها ، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفى بل يفهم ضمنا كما سترى .

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى في هذا الطريق ، فإن مزية الإيجاز فيه تتضامل للتصريح فيه بالإثبات والنفى كما قلت .

و ، لا ، ملاحقة لكل أنواع القصر ، والمقصود عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلالتهما على القصر أن يكون المعطوف بها مفردا ولا يتقدمها نفي أو نهي وألا يكون ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها ، تقول : زيد شاعر لا غير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر قصرا حقيقيا . . . وتقول : زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصرا إضافيا .

وتأمل قول أبي تمام :

بيض الصفائح لا سرد المصحات في

متون جلاء الشك والريب (١)

تجده قد قصر السيوف التي حققت النصر وفتحت عمورية على كونها بيض الصفائح ، مشرقة لامعة ، ونفاها عن كونها سرد المصحات ، سوداء مظلمة ، فالمقصود عليه - كما ترى - هو المقابل لما بعدها لا ، ثم قصر جلاء الشك والريب ، على كونه في متون هذه السيوف أى : جوانبهن ، ونفاها عن كتب المنجمين ، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتي ببيانه . . . ولا يخفى عليك

(١) بيض الصفائح : كناية عن السيوف وسود المصحات : كناية عن كتب

المنجمين ، متون : جوانبهن ، جلاء : حذف وإزالة ، الريب : الخن ، يقول : إن للسيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة ، أما مصحات المنجمين السوداء فلإنها تضيق الحقائق وتغمر الأباطيل ، ولبيت من تصبده له في فتح عمورية .

- ٣٠ -

ما وراء أسلوبي القصر في البيت من توبيخ وتحقير لؤلؤ المذبحين وما تخبر به
صحنهم .. ومثله قوله في هذه القصيدة أيضا ، محقرا كتب المذبحين :

والعلم في شهب الأرماع لامة
بين الخبيثين لا في السبعة الشهب

حيث قصر العلم على كونه في شهب الأرماع ونفاه عن الهجوم التي
يستهدفها المذبحون ، السبعة الشهب ، .

وانظر إلى قول الآخر :

عمر النقي ذكره لا طول مدته
ومرته خزيه لا يومسه الداني

وقد قصر عمر النقي وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن وفناء عن
طول مدته وامتداد أجله في الدنيا كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحياء من
خزي وهوان ونفاه عن اليوم الداني ومفارقة الحياة ، وأهلك تشعب بما
وراء القصر من حث على الأعمال الصالحة التي تنفع الإنسان وتبقى بعد
حياته ، ومن تنفير من الذل والهوان والخزي ، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له
إلا فاقد الحياة ..

و لا ، صالحة لكل أنواع القصر - كما ذكرت - تقول في شعر الصفة
على الموصوف زهير شاعر لا عمرو ، وفي قصر الموصوف على الصفة زهير
شاعر لا كاتب وفي القصر الحقيقي : زهير شاعر لا غيره . . . وفي القصر
الإضافي : خالد جواد لا عمرو ، فيكون قصر قلب أو أفراد أو تعيين حسب
اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك . . . فإذا سبقت ، لا ، بنقي نحو : ما جاء
زيد ولا عمرو أو نهي نحو : لا تفعل هذا ولا ذاك ، أو كان المعطوف بها

جملة نحو : زيد مقدم لا أبوه كريم ، والفقير يعطى من الصدقة لا أحد يشكر هذا ، أو كان ما بعدها داخل في عموم ما قبلها نحو : عاد الحجاج لا إبراهيم ، ونجح الطلاب لا خالد ، فعندئذ لا تدل على القصر ، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر ونفيه عن غيره ، كما هو واضح في الأمثلة .

و د بل ، تفيد القصر إذا وإيها مفرد ، وتقدمها في أو نهى ؛ لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها فتضمن النفي والإثبات وذلك عماد القصر ، تقول لك : ما جاء زيد بل عمرو ، يفيد في المجيء عن زيد وإثباته لعمرو ، فالقصور عليه بل هو ما بعدها . ويرى البلاغيون أنها صالح للقصر الإضافي لإيراداً وقلبا وتعيينا ، ولا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المثنى معها يكون أمرا محذورا دائما ، فإن جاء عاملا لا يكون منفيا بل يكون مسكوتا عنه نحو : ما جاء في أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات المجيء لزيد ، أما ما قبل بل ، وهو أحد مسكوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات ، بل يرى الجمهور أن ما قبل بل ، مسكوت عنه حتى ولو كان محذورا نحو : ما جاء في زيد بل عمرو ، ما زيد قائما بل قاعد .

ولذا فهي لا تفيد قصرا ، ويرى البعض أن تأتي لما قبل بل ، ولما بعدها ، فتقولك : ما جاء زيد بل عمرو ، يفيد في المجيء عنهما معا ولذا فهي لا تفيد القصر ، لأن النفي والإثبات غير محقق (١) .

والذي أراه أن د بل ، تفيد القصر بأنواعه ، الإضافي : قلبا وإفرادا وتعيينا ، والحقيقي : تحقيقا وأدعائيا ، فهذا ما يفهم من الأساليب والتعابير ولا يمكن دفعه ولا إنكاره . تقول : ما جاء زيد بل عمرو ، فيكون قصر صفة على موصوف قصر إضافيا ، وتقول : ما زيد قائما بل قاعد (٢) ، فيكون

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) قاعد : لا تعرب نصبا عطفا على لفظ « قائما » ، لأن « ما » لا تعمل في =

قصر موصوف على صفة قصر إضافيا ، وتقول : ما جاءني أحد بل عمرو ،
فيكون قصر حقيقيا ؟ ولا أرى معنى لكون ما قبلها مسكونا عنه ، ولا توجه
النفي لما بعدها . . أما إذا وقعت د بل ، بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو ،
فلا نفيد القصر ؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجيء إلى التابع د عمرو ،
وجعلت المثبوع د زيد ، في حكم المسكوب عنه ، فالجمله لا نفيد سوى
بجود إثبات المجيء لعمرو وعندئذ فلا قصر ، لأن القصر بني وإثبات
كما علمت .

ومن شواهد القصر بل قول الشاعر :

ليس اليتيم الذي قد مات والده

يملك اليتيم يتيم العلم والأدب

لقد قصر الشاعر اليتيم على صفة المراهان من العلم والأدب ونفاه عن
فقدان الوالد قبل بلوغ مبلغ الرجال ، فهو قصر موصوف على صفة قصر
إضافيا ، وأراه قصر قلب ، لأنه قلب ما هو راسخ في الأذهان من أن اليتيم
هو الذي قد مات والده قبل بلوغ سن الرجال ، وفيه حث على التزود بالعلم
والتحلي بالأخلاق والآداب الرقيقة ، ففادها هو اليتيم . . .
ومنه قول عبيد الله بن الممتر :

ليس التعجب من مواهب ماله

بل من سلامتها إلى أوقاتها

حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاه عن
المواهب والعطايا ، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهي لا تستحق التعجب ،

== المثبت وإنما تعمل في النفي ، وتغرب ربما عطفها على محل و قانما عند لاجه ريبين
وعليه أفاد الأسلوب القصر ، فإن أعربت خبرا لمبتدأ محذوف لا قصر ، لأن ما بعد بل
عندئذ يكون جملة .

ولما التعجب من إصابة المحز وبلوغ الهدف المنشود حيث تبذل الأموال إلى مستحقهم وفي أوقاتها وتسلم لهذا .

و لكن ، تفيد القصر إذا سبقها نفى أو نهى ووليها مفرد ، د كبل ، مثل : ما أكرمني زيد لكن عمرو ، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفى عن زيد ، فالقصور عليه بالمكن هو الواقع بعدها مثل د بل ، تماماً وهي صالحة للقصر الإضافي قلباً وإفراداً وتعييناً حسب اعتقاد المخاطب والقصر الحقيقي بنوعيه ، وبرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المنفى معها دائماً يكون أسراً خاصاً ، ويشترط البعض للقصر بالمكن بالإضافة إلى ما ذكر إلا تقترن بالوار ، وهذا ليس بشيء لأننا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة قد اقترنت بالوار وأفادت القصر ، انظر إلى قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)^(١) ، فقد قصر النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة والحنم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد ، قصر موصوف على صفة قصر أ إضافياً ، ولكن مقرونة بالوار كما ترى .
ومنه قول الشاعر :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس
فقد قصر الإفساد على الناس ونفاه عن الجديدين وهما الليل والنهار .
وقول عروة بن الورد :

وما شاب رأسي من سنين تناهت على ولكن شيبني الوقائع
حيث قصر النشيب على الوقائع ونفاه عن تتابع السنين^(٢) . . . ومن
يجي . لكن مفيدة للقصر وهي غير مقرونة بالوار قول الشاعر :

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٢) لا يخفى عليك أن ما بعد لكن في البيتين جملة تدل على لكن على الإصرار ،

بناء على رأى بعض البلاغيين كما ستري .

ما زال في دنياه وإن بغية لكن أخو حزم يحمى ويعذل
فقد قصر نيل البغية على د أخو حزم ، ونفاها عن المتراخي الكسول
وفيه حث على الجهد والاجتهاد ، فالدنيا كفاح وميدان تسابق والذي
يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذي يكاد ويكدر ويسابق ويغالب .

وهذا الذي ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولها بالقبول في دلالة
تلك الحروف على القصر ، وهناك خلافات كثيرة حول هذه الدلالة ، فمن
البلاغيين من يرى أن د لكن ، لا تفيد القصر ، ومنهم من يرى أن د بل ،
مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنى أم لم تسبق ، - كما ذكرت لك - ومنهم من
يرى أن د بل ، لا ترد في فصيح الكلام ، ومنهم من يرى أن لكن لقصر
القلب دون الأفراد ، ومن يرى أنها للإفراد دون القلب ، ومنهم من يرى
أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفا جملة كما في قول
الشاعر :

ما افتربنا في وصفه بل وصفنا بعض أخلاقه وذلك يكنى

وكما مر بك في قول عروة :

وما شاب رأسي من سنين تتابع

على ولكن شيتني الوقائع

وقول الآخر :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

فمنهم من يرى أن د بل ولكن ، في الآيات تدلان على القصر ، ومنهم من
يرى أنها يفيدان معنى القصر ، وليس ما في الآيات قصرا ، أى : ليس طريقا
من طرقه ، لأنه مفاد من جملتين ومثله قولك : جاء عمرو ولكن زيدا لم يأت ،
وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله . . . وحتى د لا ، التي هي رأس هذا الطريق

لم تسل من تلك الخلافات ، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يترى بها إلا لذلك ، فهي عنده لقصر القلب دون غيره ، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر . . . إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة ، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناقشة .

٢ - النفى والاستثناء : تقول : ما القادم إلا زيد ، وما أنت إلا مصيب ، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول ، والموصوف على الصفة في الثاني ، ويستخدم هذا الطريق فيما ينسكه المخاطب ويدفعه أو فيما يشك فيه ويرتاب . . . يقول عبد القاهر : د وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا فيسكن للأمر ينسكه المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك . . . (١) .

تأمل قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي قَدْ أَتَيْتُكُمْ إِلَّا بِوَحْيٍ إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)^(٢) ، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوز به إلى غيره ، فهو قصر حقيقي ، وقد أوتر التعبير بالنفي والاستثناء ، إذ المخاطبون ينسكرون ذلك ويدفعونه ، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن ، لا يقرون بالوحي ، بل يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأسملا فلما كان المشركون منسكبين أن يكون الرسول - عليه الصلاة والسلام - متبعاً لوحي يوحى إليه ويجحدون ذلك ويدفعونه ، جاء القصر ، وإن وإلا ، ليبدد هذا الإنكار ويدفع ذلك الجحد . . . ومثله قوله تعالى :

(٢) - سورة الانعام آية ٥٠ .

(١) دلائل الإعجاز ١٢٧ .

(إِنِّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ)^(١)، وقوله عز وجل :
(حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُخَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنِ هَذَا إِلَّا سَاطِرٌ
الْأَوَّلِينَ)^(٢) فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في الآيتين ، لأن المخاطب
يشكر الحكم ويدفعه ، إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية ، والرسول - صلى
الله عليه وسلم - يذنب ويشكر كون ما جاء به أساطير الأولين ، ويوقن إيقانا
راسخا أنه حق من عند الله .

فمذا الطريق - النفي والاستثناء - يستخدم عندما يشكر المخاطب ويحمد
الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة ، وسيتضح لك هذا عند الحديث عن أوجه
الاختلاف بين طرق القصر .

ومثال النفي في إفادة القصر ، النهي والاستفهام ، كما في قوله تعالى :
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِلذُّنُوبِ وَمَنْ يُغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُعْرِثُوا قُلُوبَهُمْ بِمَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ)^(٣) ، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه وتعالى قصر صفة
على موصوف قصر حقيقيا تحقيقيا ، وطريقه هو النفي والاستثناء ، لأن
الاستفهام في الآية الكريمة مراد به النفي ، إذ المعنى : لا يغفر الذنوب إلا
الله . مثله قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)^(٤) ، حيث
قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة ، وطريقه هو
النفي والاستثناء ، لأن الاستفهام بمعنى النفي وتقول : لا تفعل إلا الخير . .
لا تصاحب إلا الوفي لا تعتمد إلا على الله ، فتقصر الفعل على الخير
والمصاحبة على الوفي والاعتماد على الله ، وطريق القصر - كما ترى - هو
النهي والاستثناء .

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ (٢) سورة النساء آية ٢٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٥ (٤) سورة الرحمن آية ٦٠

والمقصود عليه في طريق النفي والاستثناء هو الممتننى أى : الواقع بعد
أداة الاستثناء ، سواء تقدم أو تأخر تقول : ما جاء إلا زيد فتصير الجىء
على زيد ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرحم

فقد قصر الحرب على الذى علموه وذاقوه من ويلاتها ، قصر موصوف
على صفة ... ، ويقول المتننى :

لا يدرك المجد إلا سيد فطرن لما يشق على السادات فعال

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذى يستطيع إدراك ما يشق على السادة
السكرام ... ، وتقول : لا أختار الوفى إلا منكم ... ولا أختار منكم إلا
الوفى ، فتفيد بالأول : قصر اختيارك الوفى على كونه منهم ، ففيه مدح لهم
وتنويه بشأنهم ، وأن من أراد الوفى فعليه بالانجاء إليهم فهم جميعا أوفياء ،
وتفيد بالثانى : قصر اختيارك منهم على الوفى ، وهذا يعنى أن فيهم الوفى وذير
الوفى ، فانت تختار الوفى وترك غيره ، ولا يخفى عليك بعد ما بين القولين ،
وتأمل قول الشاعر يمدح بنى هاشم :

لو خير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم ، وهذا يعنى أنهم جميعا
فرسان وأن المنبر لا يتجه إلا إليهم حين يتاح له أن يختار فارسه ، ولو قال
الشاعر : ما اختار منكم إلا فارسا ، لتغير المعنى ، إذ يصبح المراد : قصر
اختيار المنبر منهم على الفارس دون غيره ، فهم ليسوا جميعا فرسانا ...
وتلاحظ في البيت تقديم إلا وما وإيها على المفعول ، فارسا ، وهو جزء من
المقصود - كما عرفت - إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم ،
وهذا التقديم قد منعه بعض البلاغيين وقالوا : إنه يؤدى إلى قصر الفعل قبل
تمامه ، وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلاما واحدا ، فالمفعول المؤخر ،

منعول لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم .. اختار فارساً ، وتقول : ما أعطيت إلا زيدا درهما ؛ والمعنى: ما أعطيت إلا زيدا .. أعطيت درهماً ، وكذلك لما نصرت الإعطاء على زيد ، شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء ، فأردت أن تبينه فقلت : درهما وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ما تقدم عليهما وبعضهم أجازه إذ صرح بالمستثنى منه ، كان يقال : ما ضرب أحد أحداً إلا زيد عمرأ ، فزيد مستثنى من أحد الأول وعمرأ مستثنى من أحد الثاني (١) ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقاً من غير تصريح بالمستثنى منه ، وإن كان هذا التقديم قليلاً في التعبيرات الجيدة ، وحجتهم أن أداة الاستثناء لا يخرج بها إلا شيئاً واحداً وهو ما يليها ، فلا يقع لبس فيما بعدها ، فإذا قلت : ما ضرب إلا محمد زيدا ، لا يتوهم أن محمداً هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك : ما شرب إلا اللبن محمد ، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة ، وطالما قد عرفت موضع المقصور عليه وحدده ، إذ هو دائماً الواقع بعد أداة الاستثناء ، فلاضير بعدد أن تقدم به الأداة أو تتأخر ، وليس ثمرة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه ، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه ، والمهم ألا تتخلى أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تزحزح عنه ، لأن زحزحته وتقدمها أو تأخيرها يدونه بغير المعنى وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارساً ما أعطيت إلا زيدا درهما .. ما ضرب إلا محمد زيدا .. ما شرب إلا اللبن محمد .. ثم زحزح إلا وحدها فنل: ما اختار منكم إلا فارساً .. ما أعطيت زيدا إلا درهماً .. ما ضرب محمد إلا زيدا ما شرب اللبن إلا محمد تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بتلك الزحزحة .

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت ، فالراجح أنه لا مانع من هذا التقديم لوضوح

(١) انظر شروح التلخيص ٢/٢٢٧ .

المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه . . . وتأمل قول المتنبي
يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا خالقها حكا
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا بكرمة طعماً

فقد قصر الاستعظام على نفسه ، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول
الحكم على خالفه ، ووجود الطعم على المكرمة ، وواضح تقديم إلا بالمقصود
عليه - في القصيرين الأخيرين - على المفعول (حكا وطعماً) وهو جزء من
المقصود ، ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا لبس لوضوح كل من المقصود
والمقصود عليه ومثله قول الآخر :

الناس إل علينا فلبس لنا إلا السيوف وأطراف القنا ورد
والأصل : فليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا .

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر : النفي والاستثناء هو رأس باب
القصر ، وهو الطريق الأم بين طرقه ، إد تراه يقيسون عليه غيره فيقولون
مثلاً . قولك : إنما زهير شاعر ، معناه : ما زهير إلا شاعر . وقولك : لك
هذا ، معناه : ما هذا إلا لك فلا منازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر ،
ولم يذهب أحد من البلاغيين إلى خلاف ذلك ؛ لأن دلالة الطريق على القصر
دلالة واضحة وضوحاً تاماً وظاهرة ظهوراً قوياً ، وعلى الرغم من ذلك نرى
البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة ، فيقولون : إن وجه دلالة النفي
والاستثناء ، على القصر هو أن النفي في الاستثناء المقرغ وهو الذي ترك فيه
المستثنى منه فقرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها
نحو : ما ضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة ، يقولون
النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه ، لأن إلا
للإخراج ، والإخراج يقتضى مخرجاً ، ولا بد أن يكون هاماً ليتناول
المستثنى وغيره ، فيتحقق الإخراج ، وأن يكون مناسباً للمستثنى في جنسه

وصفته فيقال في الأمثلة المذكورة : ماضرب أحد، إلا زيد .. ما فعل زيد شيئاً من الأشياء إلا هذا .. ما كسوته من اللباس إلا جبة ، وإذا كان النفي متوجهاً إلى هذا المقدر العام المناسب للمنتفى في جنسه وصفته فعند ما توجب من ذلك المقدر شيئاً بإلا أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر ، لأن ما عدا هذا المثبت يظل باقياً على صفة الانتفاء ، وكل قصر يفهم إنشائياً ونقياً ، أى : إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه ، على الإطلاق في القصر الحقيقي ، أو عن معين في القصر الإضافي ...

ويذكر السيوطي أن قولك : ما قام إلا زيد ، صريح في نفي القيام عن غير زيد وبه تضيئ إثبات القيام لزيد ، قيل بالمنطوق ، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح ، ولكنه أقوى المفاهيم (١) . .

أما جمهور البلاغيين فيرون أن « النفي والاستثناء » مثل التقديم والإعلاء ، الدلالة في ثلاثتها نص على المثبت دون المنتفى ، والخطب في ذلك يسير ، لأن البلاغيين نظروا إلى الجملة بعد تمامها ، والسيوطي نظر إلى ما يتبادر إلى الذهن أولاً ، فالذي يتبادر إلى ذهنك عند سماعك : ما قام إلا زيد ، هو نفي القيام عن غير زيد ، ثم يأتي بعد ذلك إثباته لزيد ، وكأنه تحقيق له وتحديد ، وذلك دقيقة جيدة في تحايل دلالة العبارة ...

هذا وعندما تقول : ما زيد إلا شاعر ، فتدخل النفي على الذات ، لا يكون القصد إلى نفي الذات ، لأن أنفوس الذوات لا تنفي ، وإعلاء يتجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي يحددها السياق ، وفي المثال المذكور ، حيث لا نزاع في طول زيد وقصره ، ولا في كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك ، وإعلاء النزاع في كونه شاعراً أو كاتباً أو خطيباً تناول النفي هذه « صفات » التي هي موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر ، جاء القصر (٢) ...

(٢) انظر الإيضاح ج ٢ ص ١٢ .

(١) انظر الإيضاح ٢٠ / ٥٢٠ .

هل يفيد الاستثناء التام القصر ؟ . لا خلاف بين البلاغيين في أن
الاستثناء التام المنفي نحو قوالك : ما جاءني أحد إلا زيد ، وما أكرمت أحداً
إلا عمرا ، وقول المتنبي :

كأن لم يميت حتى سواك ولم يقم على أحبد إلا عليك الفوايح

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر ، ولكن الخلاف في جعله من طرف
القصر الاصطلاحي ، فالبعض يرى أنه ليس قصراً اصطلاحياً بل هو قيد
يصحح المحكم المنفي ، فإذا قلت : ما جاءني أحد إلا زيد ، كان استثناء زيد
قيداً مصححاً للحكم ، لأن قوالك : ما جاءني أحد ، حصل به الحكم المنفي ،
لكن لما كان هذا الحكم شاملاً لزيد وهو لم يأت قيد المجيء . بغير زيد
ليصحح الحكم المنفي ، وحجتهم أن ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت
عليه ، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة ، وعندئذ يكون
ما بعدها كأنه قيد مصحح . . . ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحى كالاستثناء
المفرغ ، ولكنه جاء على خلاف الأصل ، حيث صرح فيه بالمشتبك له والمنفي
عنه معاً ، والجمهور على أن الأصل في طريق النفي والاستثناء النص على المشتبك
له فقط (١) . .

أما الاستثناء التام الموجب كقوالك : جاء القوم إلا زيد ، وأكرمت
الطلاب إلا المهمل ، فالصواب أنه ليس قصراً ، بل هو قيد مصحح للحكم
لا غير ، وكأنك قلت : جاء القوم المغايرون لزيد ، وأكرمت الطلاب
المغايرين للمهمل ، كما تقول : جاء القوم الصالحون . . . وقيل : إنه قصر
لأن المعنى على قصر عدم المجيء . على زيد ، وعدم الإكرا على المهمل ، وهذا
ليس بقول ، والصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر
أى : الإثبات والنفي ولكنه ليس شريعاً من طريقه . .

وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقوالك : ما جاء إلا زيد ، قصر

اصطلاحى بانفاق البلاغيين ، والاستثناء التام المنفى كقولك : ما جاء أحد إلا زيد ، قصر اصطلاحى على الراجح ، والاستثناء التام الموجب كقولك : قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصراً على الراجح من أقوالهم . .

هل يجوز اجتماع المنفى والاستثناء ، والمطف بلا . . ؟ طريق المنفى
والاستثناء لا يجتمع والمطف بلا ، فلا يجوز أن تقول : ما جاء إلا زيد لا عمرو ، وذلك لأن المنفى فى قولك : ما جاء إلا زيد ، عام فهو يشمل ما عدا زيدا ، وعمرو داخل فى دائرة المنفى ، ولا ، العاطفة وضعها القوم لأن ينفى بها الشيء ابتداء ، لا لأن ينفى بها شيء قد نفي بغيرها ، يقول شيخ البلاغة : « ليس من كلام الناس أن يقولوا : ما زيد إلا قائم لا قاعد ، فإن ذلك إنما لم يجوز من حيث لك إذا قلت : ما زيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافى القيام ، وصرت كأنك قلت : ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكى ، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام ، وإذا قلت من بعد ذلك : لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئاً قد بدأت فنفيه ، وهى موضوعة لأن تنفى بها ما بدأت فأوجبته ، لا لأن تفيد بها المنفى فى شيء قد نفيت . . » (١) . . ولذا عيب قول القائل :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يرمه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وينبغي أن تفرق بين « لا » العاطفة و « لا » الداخلة على الجملة ، فإن الأخيرة يجوز أن يجتمع ، والمنفى والاستثناء ، نحو : ما زهير إلا شاعر ، لا يقول أحد غير ذلك ، ما هذا إلا لك ، لا يشاركك فيه أحد ، ليس السكوت عن العيوب إلا جبناً ، لا يرى أحد غير ذلك ، وإنما كان هذا جائزاً ، لأنك لم تنف « بلا » شيئاً قد نفي قبل ، بل نفيت بها جملة مستقلة وأدت بها جملة القصر السابقة . .

٣ - إنما : ودلالة إنما على القصر دلالة وخيمة وعلى الرغم من ذلك

لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر ، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى « ما وإلا » ، واستدلوا على ذلك بوجوده ، منها : قوله تعالى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)^(١) بالنصب ، حيث ذكر المنسرون الذين يحتاج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين ، أن المعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين ، فالآية فيها ثلاث قراءات وكلها تفيد القصر ، القراءة الأولى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ، ببناء « حرم » للمعلوم ورفع « الميتة » ، وعلى هذه القراءة تكون « ما » اسم موصول وعائده محذوف والمعنى : إن الذي حرمه عليكم هو الميتة ، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها وطريق القصر تعريف الطرفين ، والقراءة الثانية : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ، ببناء « حرم » للمفعول ورفع الميتة ، وعلى هذه القراءة ، فما إما اسم موصول والمعنى : إن الذي حرم عليكم هو الميتة ، وإما كافة لإن والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، وهذا قصر أيضا للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول وإنما في الثاني ، والقراءة الثالثة : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » ببناء « حرم » للفاعل ونصب « الميتة » ، فما كافة لإن ، والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، فهو قصر طريقه إنما ، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر ، سواء كانت « ما » كافة لإن أو موصولة .

ومنها : قول من يحتاج بقولهم من النحاة وهم ، أخذوا اللغة من كلام العرب مباشرة : إن إنما لإثبات ما ينكر بعدها ونفي ما سواه ، أي : لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم ، وهذا القول من النحاة يقتضى تضمنها الإثبات والنفي كما وإلا ، إما في قصر الموصوف على الصفة كقولك :

إنما زيد قائم ، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ماعده من القعود ونحوه ، وإنما في قصر الصفة على الموصوف كقولك : إنما يقوم زيد ، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم ، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء ...

ومنها : صحة انفصال الضمير معاً كقولك : إنما يقوم أنا ، وإنما يكرم أنت ، وإنما يعطى نحن ، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا لغرض ، فلا يجوز أن تقول : يكرم أنت ولا يقوم أنا ولا يعطى نحن ، بإمكانك أن تقول : تكرم وأكرم ونكرم ونعطى ، فلما صح انفصال الضمير مع «إنما» دل ذلك على أنها بمعنى «ما وإلا» ، لأن إلا لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك : ما يقوم إلا أنا ، وما يكرم إلا نحن ، وكقول عمرو بن معد يكرب :

قد علت سلمى وجاراتها ماطر الفارس إلا أنا (١)

ومن ورود الضمير منفصلاً بعد إنما قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها :

أنا الذائد الخاضع للدمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى (٢)

فقد قصر الدافع عن أحسابهم عليه هو أو مثله ، قصر صفة على موصوف قصرأ حقيقة ادعاءيا ، ولو قال ، إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى لسكان قصرأ لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة ، ويكون قوله : أنا أو مثلى ، توكيدا لا مقصورا عليه ، وليس

(١) قطر بمعنى صرعه صرعة شديدة .

(٢) الذائد : من الذود وهو الدفاع ، والدمار : ما يلزم الشخص حمايته من أهل مال ونحوها مأخوذ من الذمر وهو الحث .

هذا مراد الشاعر ، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره ، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب أومه دون أحساب غيرهم ، لأن هذا يقتضى ومقام المدح والفخر ، تقول : إنما يفهم البلاغة المتذوق ، فتجده أبلغ من قولك : إنما يفهم المتذوق البلاغة ، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره ، والثانى أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم ، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى ، ولا يقال : إن القصر فى البيت طريقته تغريف الطرفين وأن دما موصولة وإيست كافة لأن ، والمعنى إن الذى يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلى ، فيكون الداعى لفصل الضمير وقوعه خبراً وليس وقوعه بعدد إنما ، التى بمعنى دما وإلا ، وذلك لأن المقام مقام نثر كما قلنا فهو يقتضى دمن ، الموصولة التى للعاقل ، وليس هنالك سر بلاغى ولا ضرورة شعرية تقتضى العدول عن دمن ، إلى دما ، ولذا فليست دأما ، إلا مركبة من دإن ، وما البكافة ...

وأضاف السكاكى وجها لطيفا لإفادة دإنما ، القصر ، يستند إلى على بن عيسى الريسى وهو لما كانت كلمة دإن ، لنا كيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها دما ، المؤكدة ، وليست ما النافية كما يظنه ، ن لا وقوف له على علم النحو ، فاسب أن يضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيدا على تأكيد ، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا يصاح دايلا لإفادة إنما القصر ، لعدم اطراد فى كل الأساليب التى يجتمع فيها مؤكدان نحو : إن زيدا لقائم (١) .

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة دإنما ، القصر قوله تعالى : (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) ، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ) ، وقوله جل وعلا : (قُلْ إِنَّمَا عِزُّهُ عِنْدَ رَبِّي) ، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنما للحصر ليكون معناه لا آتيكم

به إنما يأتي به الله ، ولا أعلمها إنما يعلمها الله (١) ..

وتلك إضافة جيدة ، فقد نظر ابن السبكي إلى استعمالات إنما في التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام في شأنها ، وعندما تتأمل سياق الآيات الكريمة التي أشار إليها تجد أن إنما ، يتحتم أن تكون بالاحصر ، تأمل سياق الآية الأولى : (وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الذُّرُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَتُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) (٢) ، تجد أن القريم قد طلبوا العذاب الذي أنذروهم به هود - عليه السلام - واستمعوا له وقرعوه ، فأجابهم بأن مهمته إنما هي تبليغ ما أُرسل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده ، لا يتعداه إلى هود فها هود إلا مبلغ ، وبهذا يتضح لك أن قوله تعالى : إنما العلم عند الله ، يدل على القصر لا محالة ... وتأمل سياق الآية الثانية : (قَالُوا . يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ) (٣) فالمراد بآتيكم به الله إن شاء لا أنا ، لأن مهمته - عليه السلام - تقف عند حد التبليغ . وانظر في سياق الآية الثالثة : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ) (٤) ، أريد : علمها عند ربي وليس عندي ، فالسياق - كما رأيت - يقتضي أن تكون إنما ، للقصر لإفادتها النفي والإثبات معاً ..

(١) انظر شروح التلخيص ١٠٣/٢

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١ - ٢٣

(٣) سورة هود آية ٢٢ - ٣٣

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٧

هذا والمقصود عليه ، وإنما ، هو المؤخر دائماً ، تقول في قصر العلم على محمد ، إنما العالم محمد ، وفي قصره على العلم ، إنما محمد عالم ، وثاني ، إنما ، لإفادة كل أنواع القصر ، فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه التحقيقي والادعائي كما تفيد القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة : القلب والإفراد والتعيين . اقرأ قوله تعالى :
(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْئِيسْرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ قُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)^(١) ، نجد إرادة الشيطان قد قصرت ، وإنما ، على إبقاء العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخير والميسر وصددهم عن الذكر والصلاة ، فهو قصر صفة على موصوف قصر حقيقية غير تحقيقي ، لأنه مبني على المبالغة ، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه ، وليكن لما كانت هذه الأمور وهي الخير والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليها وكان ماعداً لا يعتمد به إذا ما قدرن بها . ولما كانت ، إنما ، تستعمل في الأمور المعلومه التي لا تنسك ولا تدفع - كما سيأتى - فقد أوثرت بالتميز هنا لتنبيه بأن هذا الأمر من الأمور المعلومه التي لا ينكرها أحد ولا بد منها مدافع . . ومثله قوله تعالى : (إِنَّمَا بَأْسُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٢) ، حيث قصر ما بأسر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصر حقيقية وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٣) ، حيث قصر خشية الله على العلماء قصر حقيقية غير تحقيقي ، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى ، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم ، ولكنه لم يعتد بذلك ، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله ، وتدبرت بك هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ما قلناه فيها . . وقوله تعالى : (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا مِمَّا سَمِعَهُ)^(٤) إنما إنما

(٢) سورة البقرة آية ١٦٩

(١) سورة المائدة آية ٩١

(٣) - سورة فاطر آية ٢٨

عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ^(١) إِذْ الْمُرَادُ أَنْ مَنْ بَدَلَ الْوَصِيَّةِ وَحَرْفَهَا وَغَيْرَ حِكْمِهَا ، فَلَا إِثْمَ وَاقَعَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى مَطْلَعُ عَلَيْهِ وَكَاشَفَ أَمْرَهُ ، وَوَضَحَ أَنَّ الْقَصْرَ فِي الْآيَةِ قَصْرُ صِفَةِ الْإِثْمِ أَوِ الْعِقَابِ عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ . قَصْرُ صِفَةٍ عَلَى مَوْصُوفٍ قَصْرٌ حَقِيقِيًّا تَحْقِيقِيًّا . .
وَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِ شَوْقِي :

وَلِنَّمَا الْأَمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

تَجِدُهُ قَدْ قَصَرَ الْأَمَمُ عَلَى الْأَخْلَاقِ قَصْرٌ مَوْصُوفٍ عَلَى صِفَةٍ قَصْرٌ حَقِيقِيًّا ادِّعَائِيًّا ، وَهَذَا الْقَصْرُ يُنْبِئُ بِقِيَمَةِ الْأَخْلَاقِ وَأَهْمِيَّتِهَا فِي بِنَاءِ الْأَمَمِ وَالشُّعُوبِ حَيْثُ لَمْ يَعْتَدِ الشَّاعِرُ بِمَا سِوَاهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسَاهِمَ فِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعَاتِ . . . وَتَقُولُ :
إِنَّمَا زَهَرَ شَاعِرٌ ، فَتَفْقِدُ قَصْرَ زَهْرِ عَلَى صِفَةِ الشَّعْرِ لَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى صِفَةِ الْكِتَابَةِ ، فَيَكُونُ قَصْرًا إِضَافِيًّا إِمَّا قَصْرُ نَلْبٍ أَوْ لِأَفْرَادٍ أَوْ تَعْيِينَ ، حَسَبَ اعْتِقَادِ الْمُخَاطَبِ - كَمَا مَرَّ بِكَ - وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ لَنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَاصْكُلْ لَكُمْ يَوْمَ هَازٍ)^(٢) ، تَجِدُ قَصْرَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى صِفَةِ الْإِنْذَارِ لَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى الْإِثْبَانِ بِالْآيَاتِ ، فَهُوَ قَصْرُ أَفْرَادٍ ، إِذْ يَعْتَقِدُ الْكَافِرُونَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَجْمَعُ بَيْنَ صِفَتَيْ الْإِنْذَارِ وَالْإِثْبَانِ . . . وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ الْقَاهِرِ^(٣) أَنَّ
دَإِنَّمَا ، لَا تَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي قَصْرِ الْقَلْبِ ، وَالصَّرَافُ مَا ذَكَرْنَاهُ وَهُوَ أَنَّهَا تَسْتَحْمِلُ فِي كُلِّ أَنْوَاعِ الْقَصْرِ كَمَا رَأَيْتُ فِي الشُّوَاهِدِ وَهُوَ مَا عَلَيْهِ جَمْعُورُ الْبَلَاغِيِّينَ .

هل تفيد هـ أنما ، القمر ؟ : يرى بعض العلماء كالزحشرى والبيضاوى والتنوخي ، أن هـ أنما ، من طرق القمر ، فهي كأنما بالكسر في الدلالة على

(١) - سورة البقرة آية ١٨١ (٢) سورة الرعد آية ٧ .

(٣) ارجع إلى دلائل الإيجاز ٢٢٠ .

القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع، ومن ذلك قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ كُفُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ^(١)، وقوله عز وجل: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ كُفُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ^(٢) والذي أراه - والله أعلم - أن دما، في دأنا، زائدة للتأكيد وأن المراد في الآية الأولى: قصر د يوحى إلى، على دأنا إلهكم إله واحد، والمعنى ما يوحى إلى في أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد في الآية الثانية قصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - دأنا، على بقية الجملة، أى على كونه بشراً مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد..

٢ - التقديم: ومن طرق القصر التقديم، وهو باب واسع من أبواب البلاغة، تمكن وراه العديد من الموايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل في الجزء الأول. فقد تكفل بيان هذه الموايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر.. تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإبلاؤه أداة النفي على القصر، أى: نفي قول الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره. ومن ذلك قول المتنبي:

وما أنا أستهمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب ناراً
وقوله أيضاً:

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله

ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد أداة النفي، يفيد - غالباً - الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن نقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد

(٢) سورة الكهف آية ١١٠

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٨

(٤ - علم المانج ٢)

غيرى ، أو تقول : ما أنا قلت شعراً ، أو ما أنا أكرمت إلا زيدا (١) . .
وكذا تقديم المسند إليه في الإثبات كقولك : أنا سميت في حاجتك ،
ومحمد يقرنى الضيف ، فإنه يفيد القصر أو التقوية وتأكيد الحكم ، حسبما
يقضيه السياق وقرائن الأحوال ، والنسبة في هذا كالمعرفة تقول : ما رجل
جاءنى ، فيفيد تقديم النسبة : القصر أى : نفى الجنىء عن جنس الرجال وقصره
على جنس النساء ، والمعنى : ما رجل جاءنى بل امرأة ، أو نفيه عن الواحد وإثباته
لغيره ، والمعنى : ما رجل جاءنى بل أكثر . . ونقول : رجل جاءنى ، فيفيد
تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر ، أى قصر الجنىء على جنس الرجال
ونفيه عن جنس النساء ، والمعنى : رجل جاءنى لا امرأة ، أو قصره على العدد ،
والمعنى : رجل جاءنى لا رجلاً . .

ومن تقديم المسند الذى أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا : (لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (٢) ، وقوله تعالى : (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا تُمْ عَنْهُمْ
مُنْزُوتٌ) (٣) وقوله عز وجل : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (٤) . .
ومنه قول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
وقول الآخر :

رضينا قسمة الجباريننا لنا علم وللأعداء مال
وقوله :

لنا القلم الأعلى الذى بشباته يصاب من الأمر السكلى والمفاصل (٥)

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال . .

(٢) سورة الكافرون آية ٦ (٣) - سورة الصافات آية ٤٧

(٤) سورة آل عمران آية ١٨٩

(٥) شبة كل شيء حدة طرفه وجمعها شبات بفتح الشين في المفرد والجمع ،
وللإشارة أنهم يسيبون الحر بما يسكتون ويقولون فالبت كناية عن اللصاحة وإجادة
القول ، والسكلى : جمع كلية بضم الكاف .

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى : (إِيَّاكَ تَسْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)^(١) وقوله جل وعلا : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاغْبُذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)^(٢) ... ومنه قول شوقي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء

وقول الآخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى

ارى الأرض تبتى والأخلاء تذهب

وتقول : ما بهذا أمرتك .. ما زيدا أكرمت ، فيسكون كلاما مستقيما ، لأنك قصرت الأمر والإنكرا الممنعين على المقدم أى : نفيت الأمر عن الجار والمجرور المقدم وأثبتته لغيره ، ونفيت الإنكرا عن زيد وأثبتته لغير زيد ، فإن قلت : ما بهذا أمرتك ولا بغيره .. ما زيدا أكرمت ولا أحدا من الناس قلت ما ليس بقول^(٣) .

هذا والمقصود عليه بهذا الطريق هو المقدم دائما ، وهو صالح لكل أنواع القصر ، فقوله تعالى : (إِيَّاكَ تَسْبُدُ) ، قصر للعبادة على الله قصر صفة على موصوف قصر حقيقة بما تحقيقا ، وقول عمرو : (لنا الدنيا ومن أضحى عليها) قصر للدنيا ومن عليها على كونها لم قصر موصوف على صفة قصر حقيقة ادعاء ، وقول الآخر : (إلى الله أشكو لا إلى الناس) ، قصر لإضافى صالح لأن يكون قلبا أو إفرادا أو تعيينا حسب اعتماد المخاطب .

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

(٢) سورة هود الآية ١٢٣

(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب

٥ - ضمير الفصل : ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه بضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصوراً على المسند إليه ، كقولك : زهير هو الشاعر ، ففقه قصر لصفة الشعر على زهير ، لا تتمدها إلى غيره ، وطريق القصر هو الفصل بالضمير ، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسماً ، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب ، وهو يقع كاترى بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصله المبتدأ والخبر كقولك : صار امرق القيس هو الشاعر وعلمت أن حاتم هو الكريم ، والمقصود عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصود بالخبر ، ونلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر : تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر . كما أفاد أيضاً الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة . لأن قولك : زهير الشاعر ، فيه إيهام أن الشاعر صفة زهير ، فإذا قلت : زهير هو الشاعر ، يدفع هذا التوهم ، وأصبحت الجملة دالة دلالة بيّنة على أن الشاعر خبر زهير لا صفة . .

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله تعالى : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّئِيبَ عَلَيْهِمْ)^(١) . التوفية في الآية بمعنى الرفع ، فقد جاءت اتوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت كما في قوله عز وجل : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاجِمِهَا فَيُمْسِكُ إِيَّاهِ تَتَوَفَّى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)^(٢) ، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يَقَوِّفَاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيُمْسِكُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ)^(٣) ، وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي . .)^(٤)

(٢) - سورة الزمر آية ٤٢

(٤) انظر فتح التفسير ٢/٩٥

(١) سورة المائدة آية ١١٧

(٣) سورة الأنعام آية ٦٠

وفي الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى : المراجعة والحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى ، وطريق القصر هو ضمير الفصل : «أت ، ولو لم يكن ضمير الفصل في الآية الكريمة للدلالة على القصر لما خشن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم في جميع الأحوال ؛ وإنما الذي حصل بتوفيقه عيسى عليه السلام - وقد كان شهيداً عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله ، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، ولذا ينبغي أن يتعين إعرابه فصلاً دالاً على القصر (١) . . .

ومن ذلك قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) (٢) ، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصراً إضافياً ، فهي لا تنعدم إلى أصحاب النار ، وطريق القصر هو ضمير الفصل . وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار ، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل هم ، للاختصاص ، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانياً ولا تأكيداً للجملة . . ومثله قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ) (٣) ، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصراً حقيقياً . وقوله تعالى : (إِنَّ شَأْنِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (٤) قصرت صفة «الأبتر» على «شأنك» ، والمعنى : إن عدو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو المحروم من رحمة الله ، المقطوع من كل خير . . ويمكن أن يكون طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بالجنسية وعندئذ يكون ضمير للفصل لتأكيد القصر . وتأمل قوله عز وجل : (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٥) تجد أن

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣٨٧

(٣) سورة الداريات آية ٥٨

(٥) سورة الشورى آية ٩

(٢) سورة الحشر آية ٢٠

(٤) سورة الكوثر آية ٣

صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التي
 يتخلفون عنها من دونه ، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق ، الضار النافع ، المحي
 ، المميت ، القادر على كل شيء ، الحقيق أن يتخذ وليا . . . وضيق القصر : لك
 . . . يلقى يجعل لبعضهم الفصل ، هو ، ، ذلك أن نجمله تعريف المسند بالانجسية ،
 ويكون الجنس غير تأكيد للقصر . . .

١٢٦ . تعريف المسند أو المسند إليه ، بال ، الجنسية : إذا كان المبتدأ
 والخبر معبرين فالراجح أن السابق منهما هو المبتدأ ، واللاحق هو الخبر ،
 تقول : محمد الشجاع ، فتخبر عن محمد بالشجاعة ، وتقول : الشجاع محمد
 فتخبر عن الشجاع بمحمد ، وتقول : زيد أخوك ، وأخوك زيد ، فالأول
 إخبار عن زيد بأنه أخوه ، والثاني إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد . . . وعندها
 يكون أحد طرفي الإسناد معرفاً ، بال ، التي للجنس ، فإن هذا التعريف يدل
 على القصر ، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين ، كما عرفت . . . تقول :
 محمد الكريم ، والكريم محمد ، فتفيد بهذا قصر الكرم على محمد في الموضوعين ،
 فالمقصود هو المعروف ، بال ، الجنسية سواء تقدم أو تأخر ، والمقصود عليه
 هو الآخر . . . وتقول : خالد الأمير ، والأمير خالد ، فتفيد قصر الإمارة
 على خالد قصرًا حقيقياً تحقيقاً إذا لم يكن ثمة أمير سواه . . . وتقول : محمد
 الشجاع ، ثم الشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصرًا حقيقياً ادعائياً ،
 لأنك حينئذ تجمد السكامل في الشجاعة ، ولا تعد بشجاعة غيره المقصود لها عن
 رتبة السكامل . . . وتقول محمد القوي ، والقوي محمد ، فتفيد قصر القوة على محمد .
 قصرًا إضافياً ، إذا ألفت أنه القوي ذرئ زيد أو عمرو مثلاً ، وتقول أنت المقدام ،
 وهو المقطاع ، ونحن الإبطال ، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفها ،
 قصرًا حقيقياً أو إضافياً حسب مرادك بتلك الأقوال . . . فإن كان طرفا
 الإسناد معرفين ، بال ، الجنسية كقولك : العالم المنطلق ، فإن السياق هو الذي
 يحدد المقصود والمقصود عليه . . . إذ هو صالح لقصر العلم على المنطلق ولقصر
 الانطلاق على العالم ، والسياق هو الذي يحدد ويعين المراد منه ، والمقصود

بهذا الطريق وهو المعروف بال ، أو الذي يحدده السياق إذا كان الطرفان
مرفين معا بها ، قد يكون على إطلاقه كما في الأمثلة السابقة ، وقد يقيد بقيد ،
كقولك : محمد المطاع في قومه ، وأنت القائد الجريء ، حيث قصرت المطاعة
المقيدة بالجار والمجورور على محمد وقصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطبة .
ومن ذلك قولهم : هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرا . وهو الجواد
حين يبخل الناس ... ومنه قول الأعشى :

هو الواهب المسائة المصطفأ ة إما مخاضا وإما عتارأ

فالمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشاء ، وهي التي
مضى لحملها عشرة أشهر . والشاعر قد عبر ألحبة على الممدوح ، ليس مطلقا ،
ولما مقيدة بكونها من "نوق" وبكونها مائة وبكرها مصطفأ ، وبكونها إما
مخاضا وإما عتارأ ، وهذا أبلغ في مقام المدح من قصر ألحبة المطلقة ،
كما لا يخفى ...

هذا وقد يأتي التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم ، دون
الدلالة عن القصر ، كما في قول الخنساء :

إذا قبح البكاء على قليل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فليس المعنى على إرادة القصر ، وإنما مرادها أن تقرير الحسن والجمال
لبكائها صخرأ ، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجهه جمال بن ، فلا
أحد يستطيع أن ينسكه أو يشك فيه ، وإذا استقبح البكاء على قليل ، ظل
بكائك الحسن الجميل الذي لا يستقبحه أحد ، فالتناس لا يترددون في حسن
بكاء . وقبح آخر ، حتى يكون المعنى على القصر ، وإنما هم يستقبحون البكاء
على القليل ، ويستحسنون بكاءها صخرأ . وبهذا يتضح لك أن المازد
بتعريف المسند في البيت د بال ، الجنسية الحسن الجميل ، هو تقرير الحسن
والجمال وتأكيدهما ، وإبراز بكائها صخرأ حسنا دائما وجميلا أبدا ، وليس
المراد به الدلالة القصر

أوجه الاختلاف بين طرق القصر : ومن أهم ما ينبغي أن تتجه إليه
عناية الدارس لأسلوب القصر ، أن يقف على ما بين طرقة من فروق وأوجه
اختلاف : فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها في الدلالة على معنى القصر
فإنها ، تختلف من عدة أوجه ، ويوجد بينهما فروق دقيقة ينبغي على الدارس
أن يلم بها ... وأهم هذه الأوجه :

١ - أن دلالة التقديم ، وضمير الفصل ، وتعريف الطرفين أو أحدهما
د بال ، الجنسية ، على القصر ليست دلالة وضعية ، وإنما هي دلالة تدوقية
تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله ، فصاحب الذوق السليم ،
والطبع العربي الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك
ما يمكن وراءه من أسرار ودقائق ، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على
القصر وتقديم الغاية منه مزية أخرى ، فليس كل تقديم يدل على القصر ،
وإنما يقع التقديم بين أجزاء الكلام لإفادة أغراض شتى ومزايا
عديدة (١) ...

وكذا توسط الضمير بين ماضي الإسناد ، قد يكون لتأكيد مضمون
الكلام ويعرب مبتدأ ثانياً ؛ فليس دائماً لإفادة الاختصاص .. وتعريف الطرفين
أو أحدهما ، بال الجنسية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند
إليه ، كما مر بك في بيت الخنساء :

إذا قبيح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجليلا

وبهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر مرجعها إلى السياق
ومعرفة قرائن الأحوال ، والتأمل الواعي ، ذو الذوق السليم ، الخبير
بدلالات الكلام وخصائص التراكيب ، هو الذي يميز بين ما يدل على القصر
منها وبين ما يقصد به إلى غاية أخرى ... أما د النفي والاستثناء ، وإنشاء ،

(١) ارجع إلى أغراض التقديم في الجزء الأول من هذا الكتاب ..

و د العطف بلا وبلا ولسكن ، فدلالتهما على القصر دلالة وضعية ، وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة ، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر ، ولا تنافي الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها ، والبحث عنهما في علم المعاني ، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلا عن مزايا القصر وأحواله وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني ..

٣ - أن الأصل في طريق د العطف بلا وبلا ولسكن ، النص على المثبت والمنفي معا ، تقول : زهير شاعر لا كاتب ، ماشوق كاتب بل شاعر ما عمرو جوادا لـكن حاتم ، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراحة الإطناب في مقام الإيجاز ، كما إذا قال المتنبي : زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والآداب . أو زيد يعلم الدلاءة وخالد وعمرو وبكر وحاتم ، فتقول له : زيد يعلم البلاغة لا غير ، والمعنى في الأول : قصر زيد على علم البلاغة ، أي : زيد يعلم البلاغة لا غير ما ، وفي الثاني : قصر عام البلاغة على زيد أي : زيد يعلم البلاغة لا غيره .. ومثله قول الشاعر :

جوابا به تنجو اعتمد نورينا لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

فقد نص في القصيرين : زيد يعلم البلاغة لا غير ، .. عن عمل أسلفت لا غير تسأل ، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب ؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار ..

أما بقيه الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي ، نقول : ما شاعر إلا زهير في قصر صفة الشعر على زهير ، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عداد وكذا القول في : ما زهير إلا شاعر ، إنما أنت أب ، إياك أكرمت ، محمد الشجاع ، خالد هو زلوفى ، فني هذه الطرق قد نص على المثبت فقط ، أما المنفي فم من القصر بمعرفة سياقات الكلام

وقرائن أحواله . . وقد يصرح في بعض هذه الطرق بالمنفى دون المثبت كقولك في التقديم : ما أنا قلت هذا ، ففيه نفي للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره ، فالمقصود عليه الذي صرح به هو المنفى عنه دون المثبت له كما ترى ، وقد ينص على المثبت والمنفى ما كلفك في الاستثناء التام : ما قام القوم إلا زيد ، وقد مر بك أن الاستثناء المفرد هو الأصل في الدلالة على القصر ..

٣- اجتماع طريقين من طرق القصر : لا يجوز أن يجتمع طريق النفي « بلا » العاطفة وطريق النفي والاستثناء - كما مر بك - لأن دلا موضوعا لأن ينفي بها ما أوجب للتبوع كقولك : زيد كريم لا شجاع فهي موضوعا للنفي ابتداء ، لا لأن نفيها النفي في شيء قد نفيت . وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء ، لأن قولك : ما زيد إلا قائم ، يفيد نفي كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له ، فلو قلت : دلا قاعد ، فقد نفيت « بلا » العاطفة شيئا هو منفي قبلها بما النافية ، ولذا عيب قول الحريري :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما نبجي يومه لا ابن أمسه

هذا إذا كانت دلا ، العاطفة داخلة على المفرد ، فإن دخلت على الجملة كقولك : ما هذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد ، فهو جائز ، لأنك عندئذ لا تنفي « بلا » شيئا قد نفي أولا ، وإنما تنفي بها جملة مؤكدة بجملة القصر المتقدمة عليها ..

أما بقرينة الطرق فتجتمع والنفي « بلا » ، تقول في اجتماعه وإنما : وإنما زيد كريم لا شجاع ، وفي اجتماعه والتقديم : دلي الله أشكر لا إلى الناس ، وفي اجتماعه والتعريف بال : زيد الكريم لا عمرو ، وذلك لأن النفي في هذه الطرق ليس نفيا صريحا ، فأنت لم تنف « بلا » ما قد نفي من قبل نفيا صريحا بأداة من أدوات النفي الموضوعة له ، بل نفيت به ما قد فهم نفية في الجملة

المتقدمة بغير أداة ، والقصر عندئذ طريقه ، إنما ، و التقديم ، و التعريف بأن ، ، أما العطف ، بلا ، فتأكيده للقصر ، وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها ، فلا تبني بناء تناقض فيه أجزاؤها .. لا تقول : إنما هذا لك لا ذاك ، ، لأن المقصور عليه يأما هو المؤخر ، والمقصور عليه بلا هو المقابل لما بعدها - ، وإما ، تقتضي أن يكون المقصور عليه هو ذلك ، و لا ، تقتضي أن يكون المقصور عليه ، هذا ، وذا تدافع وتناقض في القول ، فالصواب أن يقال : ، إنما هذا لك لا لغيرك ، ، إنما أخذ زيد لا عمرو ، ، إنما زيد يأخذ لا يعطي ، ، إنما أكرمت عمرا لا زيدا ، .. وتقول : زيد الكريم لا عمرو ، وحاتم هو الثري لا خالد ، وهذا تشغل لا بدالك ، وبهذا تأمر لا بغيره ، فتراه كلاما مستقيما ، إذ لا تدافع بين التعريف وبإل ، أو التقديم ، وبين العطف ، بلا ، ، فإن قلت زيدا الكريم لا البخيل ، وعمرو هو الشجاع لا الجواد وبهذا تأمر لا تنهى ، تناقض قولك وتدافع ، فإن سألت : ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير لئلا كيد وتقوية الحكم ، وعندئذ يكون طريق القصر بلا ، والمقصور عليه : ، تأمر ، .. قلت : لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ ، ولا تناقض في القول ، فالذي ينبغي نزاعاته هو التشبه لما بين طريق القصر من فرق دقيقة حتى لا تبني الجمل بناء تناقض فيه أجزاؤها ، فقد تجتمع - مثلا - ، إنما ، وضمير الفصل أو التعريف بإل ، فيقال : إنما الجواد أنت ، إنما العالم هو محمد ، وتجدد كلاما مستقيما ، إذ المقصور عليه بالتعريف ، أو بضمير الفصل هو الخالي من دال ، والمقصود عليه يأما هو المؤخر ، فلا تناقض في بناء العبارة ، كما ترى بل إن طريق القصر يؤكده كل منهما الأخير ، فإن قلت : إنما أنت الجواد ، إنما محمد هو العالم ، تدافع الطريقان ، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد وتقوية الحكم وتقريره فلا تدافع ، إذ يكون القصر مدلولاً عليه يأما ، والتعريف وضمير الفصل مؤكداً له .. وقد يجتمع طريق دلتما ، وطريق التقديم ، كقوله : إنما زيدا أكرمت وإنما بهذا أمرتك .. وإنما عليك المعول ... فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد

الطريقين على القصر ويبقى الآخر، وذلك لأنه لا يمكن أن تلتزم بين طريق
إثبات وظل بقى التقديم، إذ المقصور عليه به إثبات، هو التوخر، والمقصود
عليه بقى التقديم هو التمسك، والذي يحدد ذلك هو السيق وقراين الأحوال
وهذا يقتضي التمسك... تأمل قول المتن:

الجزء الثاني أتت شعرا... يشتمل على تلك البلاد حين مر دنا

فبعد المتن يقتضي أنه يكون المقصور عليه هو الجار والمجورين به شعري
لأنه لو كان شعرياً فقد احتوى كل فنون المديح واشتمل على كل الخصال
والصفات التي يمكن أن تكون حوفاً الخيلة الشعراء ولذا قال الشعراء: إذا
أتوا بالمدحين، فإنما يمدحون به شعري، ويكررون قوله، قلن يقتضي أن
يكون ظل بقى القصر هو التقديم، وأن تكون به إثبات، ملغاة... وخلف
قول الآخر:

الأقاصيص من شأنه يملك إثباتاً عليك من الأقاصيص كان حنانيا

فبعد المتن يقتضي أن يكون حنانياً الشاعر مقصوداً على مرثية، عليك
بأنه يجب إلى غير ذلك، فالتصوير من الأقاصيص والمقصود عليه الجار
والجارين... عليك، وهذا المستلزم أن إثباتاً مستلزم أن طريق القصير هو التقديم...
والقول قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾، فحينئذ يندفع الوعد بكونك حنانياً
فكأنك التوخر وتلك الأيتام... (١٥) فبعد المتن يقتضي أن يكون الجار والمجورين به
فذلك المقصود هو الإيلاج، المقصود أنه عليه، لأن التوخر: قصر مهمة
الرسول إلى حلال الله عليه وسلم على الإيلاج الاستعانة بالقلب وتحموه...
والذين من أن أقصر الإيلاج على الرسول... وهذا مستلزم أن طريق القصر هو
إثبات... والتمسك بالقديم على القصر ملغاة فهو التأكيد وقوية الحكم...
لما قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ الْحَاسِبِينَ﴾ فهو قصر الحساب على الله تعالى لا يتجاوز إلى

غيره وطريقه : التقديم ، ومعنى الآية الكريمة : فإما ترينك بعض الذى نهدم
من الإهلاك والعذاب أو تتوفينك قبل تعذيبهم . فإن الذى عليك هو الإنذار
وتبليغهم الرسالة ، وعلينا نحن الحساب والجزاء لا عليك . . وهذا المعنى قد
اقتضى أن يكون طريق القصر فى الجملة الأولى - كما وضعنا - هو : وإنما ،
وفى الجملة الثانية هو التقديم . . وقرأ قول المتن فى مدح عضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبه وسرت حتى رأيت مولاها
ومن منايهم براحتهم يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بنارس عضد الدولة فناخسرو شهرشاهها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

فقد عدد أسماء آباء الممدوح ، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد
أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر ، قليل الشجرة ،
تدارك الشاعر ذلك فقال :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

أى : ما ذكرناها إلا من أجل اللذة ، . فلهذا ، مقصور عليه مقسدم ،
وإنما ، ملغاة . . وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأى من الطريقتين ، على
نحو ما ترى فى قول العباس بن الأحنف :

كان لى قلب أعيش به فاصطلى بالنار فاحترقا
أنالم أرزق مودكم إنما للعبد ما رزقا

بخلاف أن يكون ما للعبد مقصورا على رزقه ، لا يتمدها إلى رزق غيره ،
وجائز أن يكون : ما رزقا ، مقصورا على كونه للعبد لا يتمدها إلى كونه
لغيره . ففى الأول يكون طريق القصر : إنما ، ودلالة التقديم ملغاة ، وعلى
الثانى يكون طريق القصر : التقديم ، ودلالة : إنما ، ملغاة ، فالبيت - كما ترى -
يحتمل المعنيين . .

هذا ويرى البعض أنه إذا أدى اجتماع أى طريقين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغى أحدهما حسبما يقتضيه السياق وتحدد القرائن ، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع ، ولو قلت : إنما هذا لك لا ذلك ووجدت ، إنما ، لا تستقيم مع ، لا ، فعليك أن تلغى أحد للطريقين حسبما يحل على السياق ، ولو قلت : إنما لك هذا لا لغيرك ، فوجدت ، إنما ، متدافعة مع ، التقديم ، و لا ، ، فلما أن تلغىها ولما أن تلغى التقديم و لا ، (١) .

والحل هذا البعض قد نظر إلى اجتماع ، إنما والتقديم ، ، وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقتضى السياق ، فرأى أن ما يجرى على ، إنما والتقديم ، عند اجتماعهما يمكن أن يجرى على أى طريقين ، فليس هنالك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع ، إنما والتقديم ، واجتماع غيرهما . .

والذى أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة في إصدار هذه الأحكام ، بل ينبغي أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء ، وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر في تلك التعبيرات الجيدة ، ويقر عندئذ ما يقتضى به سياقها ، على نحو ما رأيت في اجتماع ، إنما والتقديم في النظم الكريم وفيما سر بك من شواهد . .

٤ - أن الأصل في طريق ، النفي والاستثناء ، أن يستعمل فيما شأنه أن يجهله المخاطب ، ينكره ، والأصل في ، إنما ، أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره . . يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا ، فيكون للأمر ينكره المخاطب ، يشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ ، قلت له لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك ، (٢) .

(١) انظر بنية الإيضاح ج ٢ ص ٢٨ . (٢) دلال الإعجاز ص ١٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: «إِنْ هَذَا لَهُوَ النَّصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ»^(١)، فالخطاب في الآية لمن يحاجون في عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله، ويجدون في ذلك، ولذا دعوا إلى الابتغال: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»^(٢)، ثم أكد الخبر بأن واللام: «لَنْ هَذَا لَهُ الْقَصَصُ الْحَقُّ» ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء: «وما من إله إلا الله»، ثم أكد الخبر مرة ثانية: «وإن الله هو العزيز الحكيم».. وفي هذا ما يدفع لإنكار المنكرين ويبدد جهودهم إلى ترك الحاجة في عيسى بعد وضوح الأمر وبجيء العلم.. وقرأ قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهَيَّيْكُمْ لَهُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْمُرُونَ»^(٣).. فالرسول — عليه الصلاة والسلام — يذكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعونه إليه أساطير الأولين، وهم يعتقدون أنهم به لا يكون بعدادهم وجداهم الرسالة وصاحبها، وينكرون أنهم به لا يكون أنفسهم ولذا جاء القصر في الموضعين بالنفي والاستثناء... وخذ قوله تبارك وتعالى: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ»^(٤) فالخطابون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعا للوحي يوحى ويرون أن ما يقوله أساطير، ولذا جاء

(١) - سورة آل عمران آية ٦٢.

(٢) - سورة آل عمران آية ٦١.

(٣) - سورة الأنعام آية ٢٥ - ٢٦.

(٤) - سورة الأنعام آية ٥٠.

القصر بالنفي والاستثناء : « إن أتبع إلا ما يوحى إلى . . . ومن أشعارهم قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير :

له عسكرا خيل وطير إذا رمى بها عسكرا لم يبق إلا جماجه

فذكرن الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبق من الأعداء حيا ولا جسدا ميتا ، وإنما يبقى جماجم ليس إلا ، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله ، ويكون منها إنكار له ودفع ، ولذا كانت القصر بالنفي والاستثناء : « لم يبق إلا جماجه » . . .

ومنه قول الآخر :

فا زادني الشيب إلا ندى إذا استروح المرصعات القطار (١)
لأن ما ذكره من شأنه أن ينكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتسلم به ، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى ، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصاً ، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت استروح فيه المرصعة القطار ، فإذا كانت المرصعة وهي التي يعتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه ، فما بالك بغيرها . . . إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر ، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء : « ما زادني الشيب إلا ندى » ، دفعاً لهذا الإنكار . . .

قلت : إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله ، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر . تنزيلاً له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة . . . من ذلك قوله تعالى : « وَمَا يُحَمَّدُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » . . . (٢) في الآية قصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) استروح : اشم . والقتار بضم اللام : ربيع للشواء . . .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك ، فهو رسول يموت ويخلو . كما خلت الرسل من قبله ، والمخاطبون وهم الصحابة رضى الله عنهم ، يعلمون يقينا أنه صلى الله عليه وسلم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى الحلد ، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا ، واسكنهم لما كانوا متعلقين به . عليه الصلاة والسلام - ويستعظمون موته ، ويعدون له أمرا خطيرا وحدثا جليلا ، نزلوا منزلة من يشكر موته ، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبرى من الهلاك ، فخرطوا خطاب المنكر ، والسر البلاغى ذو تصوير . حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه صلى الله عليه وسلم بينهم ، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيقهم على وفق ما يعلمون ، وما هو راسخ في نفوسهم ، ولا يخفى عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة : « وَبَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَهَذَا يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَئِنْ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » فأتت تشفر بنعمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ ، من إيمان واعتقاد ، ولو استعملت وإنما هنا ، لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل : إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهى إبراز حال الصحابة ، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول . . .

واقرا قوله تعالى : « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِذَعْوِكُمْ إِيغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَبُخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّيَّسَّرٍ قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... » (١)

(١) سورة إبراهيم آية ١٠ ، ١١

قال رسل عليهم السلام لا يشكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك ، ولكنهم نزلوا منزلة من يشكر ذلك ويدفعه ، فجاء القصر بالنفي والاستثناء : « إن أنتم إلا بشر مثلنا . . . » ، لا اعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشراً ، وإصرار الرسل - عليهم السلام - على دعوى الرسالة ، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم - في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة - واعتقدوا أنهم ليسوا بشراً ، فكان القصر : « إن أنتم إلا بشر ، قصر قلب أى : أنتم بشر لا رسل ، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد ، التناقض بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما . . وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذى لا ينكره الرسل بتزويلهم منزلة المتكبر ، يصور حال الكفرة وماخيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعنتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية . . أما قول الرسل لهم : « إن نحن إلا بشر مثلكم » ، فن مجازاة الخصم ، للتبكيك والإلزام والإلحاح ، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر لا يخالف فيه ولا ينكر ، أن يعيد كلامه على وجهه ، كما إذا قال لك من يناظرك : أنت من شاك كذا ، فتقول : نعم أنا من شاكى كذا ولكن لا يلزمى من أجله ما ظننت أنه يلزم ، فكان الرسل - عليهم السلام - قالوا : إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فإله يمن على من يشاء من عباده . فقد سلم الرسل بملك المقدمة : « إن نحن إلا بشر مثلكم » ، بالمناظرة ومعناها وفى هذا ما يؤنس نفوس الكفرة ويستميلهم نحو الحق والهدى ، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة ، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية ، فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسموا ، ويصير أهلاً للرسالة وتلقى الوحي . . . وخذ قوله تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنَّ

أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ^(١) فقد قصر - صلى الله عليه وسلم - على صفة الإنذار قصر
 أفراد فهو لا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية ، والرسول
 عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك لا ينكره ولا يحمله ، ولكن لما كان عليه
 الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه ، ملأها في توجيه الدعوة إليهم
 حتى شق على نفسه ، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية فيجاء
 القصر بالنفي والاستثناء : د إن أنت إلا نذير ، ، ومر بلاغته نسلياً الرسول
 - صلى الله عليه وسلم - وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه ، وإلحاحه
 في دعوتهم وتبليغهم الرسالة ، فقد بلغ في ذلك مبلغاً نزل فيه منزلة من اعتقد
 أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قسراً ، وسباق الآيات الكريمة يرشد
 إلى هذا المغزى ، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوى تلك الأضداد : الظل والحرور
 - الأعمى والبصير - الظلمات والنور - الأحياء والأموات - ثم صرح بأن الله
 - سبحانه وتعالى - يسمع من يشاء ، وأنه عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع
 إسماع من في القبور ، فمؤلاء الكفرة قد صاروا في عداد الموتي ، والرسول
 في إجهاد نفسه وبذل كل مافي وسعه وإلحاحه في إسماعهم وهدايتهم كن يسوى
 بين الأضداد - الأحياء والأموات - وهي ليست سواء ، وتكن يحاول إسماع
 من في القبور ، ولا جدوى في إسماعهم ، فاعليك يا محمد ، إذا لم يقبلوا
 الهدى ، فقد بلغت ونصحت ، وأرشدت ووضحت ، وما عليك بعد ذلك إذا
 لم يهتدوا : د إن أنت إلا نذير . . .

هذا وقد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله
 منزلة منكر . . . تأمل قوله تعالى : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ
 لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
 مِنَ الظَّالِمِينَ)^(٢) نجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى

قصرا حقيقيا نحيقيا ، وطريق القصر هو النقي والاستثناء ، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكرا أو منزلا منزلة المنكر ، كيف ويونس - عليه السلام - يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء ، فلا يتأني ولا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب - جل وعلا - وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس - عليه السلام - ومدى انفعاله بالخبر . فقد ألق الخبر مؤكدا كما أحس ، وكما امتلأت به نفسه ، وفاض به ضميره ، دون نظر إلى حال مخاطب ، وتأمل قوله : « إني كنت من الظالمين » ، وماذا لوقيل : لا إله إلا أنت سبحانه فأننا من الظالمين ، إنه يكون كلاماً ساقطاً ، فأنتم تشعرون عندئذ بخلخلة في السياق ، وعدم تناسق ، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم .

وانظر إلى قول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غربة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه ، وقد ألقى الخبر مؤكدا ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء ، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطباً منكراً أو منزلاً منزلة المنكر لمكنت كن يتناول المحال ويتعسف في القول تعسفاً الكلام في غنى عنه . .

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائماً في استخدام النقي والاستثناء ، أو في تأكيد الخبر ، بل قد ينظر إلى غير المخاطب (١) .

أما ، إنما ، فالأصل فيها - كما قلت - أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره ، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها

(١) ارجع إلى آخر باب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب .

المخاطب ولا يحجمها ، وهذا عكس النفي والاستثناء ، الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة ... وكان ، إنما ، أداة همس ، وتنبيه ، يهمس بها المتكلم وينبسه مخاطبه إلى تلك الأمور المألوفة ، والمعاني الواضحة ، تقول : إنما هو أخيك ... إنما هو صاحبك ... إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ... إنما يعجل من يخشى الفوت ، فتلك أمور معلومة لا يحجم لها أحد - ولا يدفعها مدافع - والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق ، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن ، ومبادرة الفرصة ... إنما معان واضحة والقصر فيها - كما قلت - تنبيه للمخاطب وتذكير ... ولو وضعت : وما وإلا ، مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى ، لأن النفي والاستثناء تلائم المعاني القوية الشارة . تأمل قولك لصاحبك : أشفق على خالد ، وعامله معاملة طيبة ، فإنما هو ابن صديقك عمرو ، تجد أن القصر بإنما كأنه همس وتنبيه للمخاطب ، وتذكير له بتلك الصداقة وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها ، ثم انظر إلى قولك : كيف تؤذى خالدًا وتقسو عليه ، وما همداك إلا صديقاً حميماً لأبيه ، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة ، ولا تشعر فيه بالحدود التي لمسته في القول الأول ، ولذا لاءمه النفي والاستثناء .

ومن شواهد ، إنما ، قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي :
إنما أنت والد والاب القسا طع أحنى من واصل الأولاد
فالشاعر لم يرد أن يعلم كافورا أنه بمنزلة الوالد ، ولا ذاك عما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره بالامر المعلوم ، لينبئ عليه استدعاء ما يوجب له باطف إلى حق الولد على أبيه من العطف والحنان ... ومثله قوله :

إنما تنجح المقالة في المر - إذا صادفت هوى في الفؤاد
وقول أبي تمام :
ولا تمكن الإخلاق منها فإنما يلبس لباس البرد وهو جديد

وقول علي بن الجهم :
 وقلن لنا نحن الإهـلة إنما
 وقول الخطابي جد جرير :
 وفي الصمت ستر للفي وإنما
 وقول الآخر :

وما الزين في ثوب تراه وإنما
 فإن طرة راتك فانظر فرما
 يزين الفتى مخبوره حين يخبر
 أمر مذاق العود والعود أخضر

وغير خاف عليك دخول إنما في تلك المواضع على معان واضحة
 معلومة ، لا يحجبها المخاطب ولا يدفعها . . وتأمل قوله تعالى : (إِنَّمَا الْعِدَّةُ لِلَّذِينَ
 لَقِئُوا الدَّعَاءَ وَالْمَسَارِكِينَ وَالْمَأْمِيَةَ وَعَائِيَهُمُ وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ)^(١) نجد أن
 الصدقات قد قصرت على كونها للفقراء . وما عطف عليهم ، لا تعدى تلك
 الأصناف إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر . .
 وكذا القول في الآيات الكريمة : (إِنَّمَا يَنْفَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٢) . (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاكُمُ)^(٣)
 (مَنْ أَخَذْتَنِي فَإِنَّمَا بِهِ نَتِدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمُ)^(٤) . .
 (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَإِكْلٌ قَوْمٍ هَادٍ)^(٥) فقد جاء القصص بإنما ، في
 الآيات الكريمة ، لأن المعاني التي استعملت فيها معان واضحة بيّنة ، لا يحجبها
 المخاطب ولا ينكرها السامع . .

وقد تستعمل إنما ، في الأمور التي يشكرها المخاطب ويدفعها تزيلا لتلك
 الأمور منزلة ما لا يحجبها المخاطب ولا ينكرها ، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها .

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| • (١) سورة التوبة آية ٦٠ | • (٢) سورة التوبة آية ١٨ |
| • (٣) سورة التوبة آية ٩٣ | • (٤) سورة الإسراء آية ١٥ |
| • (٥) سورة الرعد آية ٧ | |

ويعمد .. تأمل قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) (١)
تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خير ينسكركه المخاطب ويدفعه . فكان
حق "قصر أن يكون بالنفي والاستثناء : " إن نحن إلا مصلحون ، ، ، ولكن
النظام الكريم أثر التعبير ، بإنما ، تنزيلا لهذا الخبر المنسكرك منزلة الأمر
المعلوم "ظاهر ، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجمله
المخاطب ولا ينسكركه ، لأنه من الموضوع فكان ولذا جاء الرد عليهم عنيفا وقاسيا :
" ألا إنهم هم المفسدون وليسن لا يشعرون ، فقد بدأ ، بالأ ، الاستفتاحية التي
تفيد التوبيخ وتهينة الأذهان لما يلقى بعدها ، ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث
لا يتعداهم إلى غيرهم ، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم ، وأكد
ذلك ، بأن : : " ألا إنهم هم المفسدون ، ، ثم جاء هذا الاستدراك ، ولكن
لا يشعرون ، الذي بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرده إلى فقدانهم الشعور ،
فهم قوم لا يشعرون ، ولو كين عديم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار
الفساد فيما بينهم ، وقصره عليهم . .

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :
إنما مصعب شهاب من أنلا ه تجلت عن وجهه الظلماء .

فقد وصف مصعب بأنه شهاب من الله ، وأثر التعبير ، بإنما ، ليفيد أن
كونه موصوفا بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينسكركه
أحد ، وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا ، أن يدعوا في كل ما يصفون به
مدوحهم الجلاء ، وأنهم قد شهرروا به حتى إنه لا يدفعه أحد . . . ولذا أنسكرك
عبد الملك بن مروان مدح ابن قيس له بقوله :

يا بلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقال له : ألسنت أنت القائل في مصعب : إنما مصعب شهاب من الله .
وكان عبد الملك قد أحس بما في مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس
وقوة شعور ، وأن ما قاله ابن عيسى فيه لا يقارن بما قاله في مصعب ، خاصة وأنه قد
مدحه بأمراض عسوس ، لا غير فيه ومدح مصعباً بفضيلة من الفضائل النفسية
وهي القوة والشجاعة ، والمدح إنما يفضل ويحسن بمثل تلك الفضائل
النفسية .

هـ — تحديد موقع المقصور والمقصور عليه : وبخلاف موقع المقصور
والمقصور عليه باختلاف طريق القصر - كما رأيت - فالماقصور عليه إنما
هو المؤخر دائماً تقول : إنما أنت جواد ، فتقصر مخاطبك على صفة الجود .
ولنما الشاعر زهير ، فتقصر صفة الشعر على زهير .

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم كقواك في قصر الكرم على زيد :
زيداً أكرمت . . . والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو الواقع بعدهما
تقول : ما جاء زيد بل عمرو . . . ما الشاعر زهير بل عنقرة . . . ما الشجاع
سالم لكن عمرو . . . فتعيد بذلك قصر الجبي . على عمرو ، والشعر على عنقرة ،
والشجاعة على عمرو . والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين
بالجنسية هو الخالي من ، آل ، تقول : عمرو هو الجواد ، فتقصر صفة
الجود على عمرو ، وتقول : الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد . .
أما المقصور عليه في النفي والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء ، ويجوز
تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء . . . تقول : ما أكرمت إلا زيداً في
قصر إكرامك على زيد ، وتقول : ما جئت إلا راكبا في قصر بجيتك على تلك
الحال ، وتقول : ما كسوت زيداً إلا جبة . في قصر الكساء الذي كسوته زيداً
على كونه جمة ، وتقول : ما اخترت صدقاً إلا منكم ، في قصر اختيارك
الصدق على كونه منهم ، والك أن تقول : ما اخترت إلا منكم صدقاً
فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء . . . ومنه قول السيد الحميري في
مدح بني هاشم :

لوخير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء ، لأن أداة الاستثناء لو حذرت عن مكافئها بتأخيرها عن المقصور عليه أو بتقديمها عنه لاختل المعنى . . . تأمل قولك : ما اخترت منكم إلا صديقا : ما اخترت صديقا إلا منكم . . . وقولك : ما اختار منكم إلا فارسا . . . وما اختار إلا منكم فارسا نجد المعنى قد تغير وتبدل^(١)

فعلبك أن تنبيه إلى أن المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو ما يلي أداة الاستثناء . وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أدواته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام .

جمال التعريض ، وإنما : صرح الشيخ عبد القاهر ، أن أفضل مواقع ، إنما ، هو التعريض ، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعاق ما ترى بالقاب ، فقد علمت أن الحكم الذي تستعمل فيه ، إنما ، من شأنه أن يكون معلوما ، لا يحمله أحد ولا ينسكه منكر ، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به ، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض ، نقول لمن يهمل في مدارسة العلم ولا يهتم في تحصيله : إنما ينال العلا من اجتهاد ، فانت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره . وإنما قصدت أن تلوح له بإعماله وأنه لم يحقق رغبته في نيل العلا إلا بالجهد . وتأمل قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَمُنُّ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)^(٢) ، فإلغى : إنما يتذكر الحق ويعقله أرباب العقول الساجدة والفكر السديدة ،

(١) ارجع إلى طريق النفي والاستثناء ص ٣٥ وما بعدها

(٢) سورة الرعد الآية ١٩

وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر ، بل ترمى من وراء ذلك إلى التعريض بدم الكفار ، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم ، قد صاروا في حكم من ليس بذي عقل ، فالذي يطمع منهم في أن ينظروا كمن يطمع في ذلك من غير أولى الأبواب . . . وتلاحظ أن التعريض بإيما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه وبين الأعمى الذي أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه فاستحق ذلك التوبيخ الذي أفاده أسلوب التعريض .

وكذا القول في قوله تعالى : (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)^(١) ، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا)^(٢) ، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كلاً إنذار .. ومنه قول العباس بن الأحنف :

كان لي قلب أعيش به فاصطلي بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد مارزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا طمع له في رسالها ، لأنه لم يرزق محبتها ولذا يتس من أن يكون منها إسعاف له . . وقوله أيضا :

يلوم في الحب من لم يدر طعم هوى

وإنما يعذر العشاق من عشقا

يريد أن يقول : ينبغي للعاشق ألا يشكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق إلا من عشق ، ولو كان هذا اللائم قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره ومالاه . .

(١) سورة فاطر الآية ١٨

(٢) سورة السراعات آية ٤٥ .

وقول الآخر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما بدعى الطبيب لساعة الأوصاف

يقول في البيت الأول : ينبغي أن أنجح في أمرى حين جعلتك السبب
إليه ، وفي الثانى : إنما قد طلبنا الأمر من جهة حين استعنا بك فيما عرض لنا
من الحاجة ، وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له
من السقم يكون قد أصاب في فعله وطلب الأمر من موضعه (١)

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ويستشف من
أطراف المعانى المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله ، وليس هنالك
وسيلة لتحديد بها أى الأساليب يكون للتعريض وأنها لغيره ، فالمعول عليه
فى ذلك هو سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وما يفيض به التركيب من
معان جانبية وإشارات وإيحاءات . . وقد سار عبد القاهر تفسير جريان
المعنى فى أسلوب التعريض ، وارتباطه بإنما لدلائها على القصر ، حتى إنك
لو حذفته دلتما ، يسقط المعنى التعريضى ، ولو قيل : دتذكر أولو
الآللاب ، لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت الآية الكريمة : دلتما
يتذكر أولو الآللاب ، ، والسبب فى ذلك : أن التعريض إنما وقع لأن
من شأن دلتما ، أن الكلام معها يتضمن معنى النفي بعد الإثبات والتصريح
بامتناع التذكر عن لا يفعل ، وإذا أسقطت من الكلام فقيل : دتذكر
أولو الآللاب ، كان مجرد وصف لأولى الآللاب بأنهم يتذكرون ولم يكن
فيه معنى نفي التذكر عن ليس من أولى الآللاب ، ومحال أن يقع تعريض
بشئ ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه . . . ويجوز أن يقع

- ٧٦ -

التعريض بقولك : « يتذكر أروى الآلباب ، بإسقاط « إنما ، إذا دل دليل على
ففي التذكر عن غيرهم ؛ بأن أردت به مدح الإنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه
لما تنبه له لهفته وحسن تمييزه ، كما يقال : « كذا يفعل العاقل » ، « وهكذا
يفعل الكريم » . عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم (١) .

واقعه تعالى أعلم

الفصل الثاني

أساليب الإنشاء

ونفت في الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبرى وأحوال الإسناد الخبرى وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل ، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب ؛ لأنه مبنى على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية ، وبجانب هذا الأسلوب الخبرى ، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء ، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر ، وإنما هي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ لإنشاء ليطلب بها مطلوباً ، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإثارة ذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب ... ولزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائي تعالوا ننظر في تلك الشواهد .. يقول الخنوي في رثاء أخيه :

أخ كان يكفيني وكان يعينني علم قاتبات الدهر حين تنوب
عظيم رماد القدر رحب فناؤه إلى سنـد لم يحتجبه غيوب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه سريعا ويدعوه الندى فيجيبه^(١)

عندما تتأمل هذه الآيات تجد أن الشاعر يحكى عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة ، وكان كريماً تقصده الضيوف فلا يحتجب

(١) السند : ما ارتفع عن الوادى وسهل عن الجبل .. والنيب : البطن المنخفض من الأرض .. وحليف للندى أى : بينه وبين الندى وهو الكرم حاف وعهد ..

هـنهم ؛ لأن السكرم خلقه وشيمته ، فهما حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر ، ولا يتخلف عن إجابة دعواه .. وهذا الذى يخبر به الغنوى قد يطابق الواقع فيكون صادقاً ، وقد يخالفه فيكون كاذباً ... وقارن بين رثاء الغنوى فى الآيات المذكورة وبين قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

أعفى جودا ولا نجهدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجواد الجميلا ألا تبكيان الفهم السيدا

تجد الأسلوب هنا يختلف ، فالخنساء لا تخبر وإنما تنادى وتأس وتنهى ، ونسأل ، هى تحض عينيها وتحثهما على بكاء صخر ، فهذه أساليب لإنشائية ، وهى وإن كان لها واقع فى نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنما يقصد بها إنشاء تلك المعانى .. وكذا القول فى قول سعد بن ناسب منادياً قومه آل رزام .

فيا لرزام رشحوا بى مقدما إلى الموت خواضاً إليه الكتائب .

وقول البحتري :

فيا ليت طالعة الشمسين غائبة ويا ليت غائبة الشمسين لم تغب

وقول الآخر :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح فإرضى لكم كلنى

فؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار ، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعانى ...

ولذا سأغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين :

القسم الأول : الخبر ، وقالوا عنه : لأنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته ، كقولك : جاء زيد .. ذهب خالد .. نجح عمرو .. فتلك أخبار تحتمل الصدق والكذب ، وقدره بقولهم ، لذاته ، أى : لذات القول لغيره

إلى تلك الأقوال التي لا نحتمل إلا صدق كإخبار القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكالأقوال الثابتة نحو أسماء فرقتنا والأرض تحتنا والواحد نصف الاثنين ، فذلك الأخبار لا نحتمل سوى الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، وباعتبار ثبات الأقوال في الأخبار التي تتضمن أقوالاً ثابتة . . . وليذهبوا أيضاً إلى الأخبار التي لا نحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلة الكذاب فمثل هذه الأقوال لا نحتمل إلا الكذب ، ليس لذات القول ، بل باعتبار من قالها ، ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم : لذاته ، أى : بغض النظر عن قائله . . . ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما . فقوله : نبيح عمرو ، له نسبتان كلامية يقيد بها النطق بالخبر والإعلام به ، وخارجية وهي ما عليه الواقع ، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقاً وإن تخالفتا كان كاذباً .

القسم الثانى : الإنشاء ، وقد عرفوه بقولهم : قول لا يحتمل الصدق والكذب ، ، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها - كما قلت - إلى إنشاء المعاني ، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوباً معيناً ، وهذا لا يعنى أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتها فيكون المعنى على الكذب ، بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمن أو أسر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الأخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتدائه (١) . .

وانت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائي وتقارن بينه وبين الأسلوب الخبرى . انظر إلى قول الشاعر :

ولى كبد مكلومة من فراقكم أطامتها صبراً على ما أجنت

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ١ / ١٦٦ وما بعدها . .

وقارنه بقول الآخر :

فيا ليت ما بينى وبين أحبى من البعد ما بينى وبين المصائب
تجد أن المعنى في البيت الأول معنى على الحكاية والإعلام بالخبر الذى
يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول : إنه صادق فيما يخبر أو كاذب ، أما
المعنى في البيت الثانى فالمراد منه : إنشاء التمنى وإيجاد النسبة وإيقاعها دون
قصد إلى المطابقة لما فى نفس الشاعر أو عدم المطابقة ، ولذا تجسد المعانى
الإنشائية قد ترد فى أسلوب الخبر كقولك : غفر الله لك وفرج كربك
وأنا بك . وكقوله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب ، كما
أن المعانى الخبرية قد ترد فى أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى
بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ)^(١) وكقوله عليه الصلاة
والسلام : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . . . ، وسنفصل
القول فى هذا - إن شاء الله تعالى - فيما بعد .

ولك أن نخبر عن أساليب الإنشاء فتقول : تمنيت لك الخير وأمرت
خالداً بالمعروف ونهيته عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت
عمرأ فأقبل إلى ، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والذى
وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلاهما يحمل الصدق
والكذب .

الإنشاء الطلبى وغير الطلبى : وينقسم الإنشاء إلى قسمين :

١ - إنشاء طلبى وهو ما يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ويشمل
أساليب الأمر والنهى والتمنى والاستفهام والنداء . . تأمل قوله تعالى : (فَاصْدَعْ
بِمَا تَوَدَّرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أُتُوا آتَا بَلْ أَخْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)^(٣) ،

(١) سورة الأعراف آية ٢٩ . (٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

وانظر في قول عمر بوصى ابنه عبد الله رضى الله عنهما: «يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكره زاده ..»، ثم تأمل قوله تعالى: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي»^(١)، وقوله جل وعلا: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الْبَيْتِ كَانُوا عَمَّيْنَا ..»^(٢)، وقول شوق في رثاء حافظ إبراهيم:

ماذا حشدت من الدموع لحافظ وذخرت من حزن له وبكا.

نجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فاقه عز وجل يأمر نبيه «فاصدع»، «وأعرض»، والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن»، والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر ينادى عبد الله: «يا بني»، وفي النداء طلب الإقبال، والكافر يتمنى: «يا ليتني قدمت»، والتمنى: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون: «ما ولائم»، وشوق يستفهم: «ماذا حشدت»، والاستفهام طلب الفهم، فهذه الأساليب قد طلب بها - كما ترى - أمور غير حاصلة فغناء الطلب، وإذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبياً، فإذا استعملت تلك الأساليب - الأمر والنهي والتمنى والاستفهام والنداء - في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن وما يناسب المقام .. تأمل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ..»^(٣)، وقوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..»^(٤)؛ وقول عمر السابق: «يا بني اتق الله ..»، تجب أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالتمنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى.

(١) سورة البقر آية ٢٤ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤٢ .
(٣) سورة الاحزاب آية ١ .
(٤) سورة النساء آية ١٣٦ .
(٥) - ٦ - علم المنهج: ج ٢

ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره . . . وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية متعددة . . أما أساليب الإنشاء غير الطي فقد أهملوها لأمريين وهذا :

١ - أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

٢ - أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها ، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب . . . وهذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبار البلاغية والمزايا الجمالية ، بل تمكن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة ، انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجميدة تجد وراءه كثيرا من الدقائق التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني . . . وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقفه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديدة بالبحث والدراسة . . . وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل . . . وسنقوم - إن شاء الله تعالى - بالنظر في تلك الأساليب وتجزئتها ما وراءها من أسرار واعتبارات في بحث آخر مستقل . . . أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية .

أسلوب الأمر : للأمر أربع وهي :

١ - فعل الأمر كقوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطٍ أَلْحِلْ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ »^(١) ، وقوله عز وجل : « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا »^(٢) .

٢ - الفعل المضارع للقرون بلام الأمر ، كما في قوله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذَوْ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُغْنِنِيْ يَمَّا آتَاهُ اللَّهُ »^(٣) ،

(٢) سورة هود آية ٣٧ .

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

(٣) سورة الطلاق آية ٧ .

وقوله عز وجل : « فَلْيَكْفُرْ وَلِيُؤْمِلَ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ
اللَّهَ رَبَّهُ .. »^(١).

٣ — اسم فعل الأمر ، نحو : صه بمعنى اسكت ، ومه بمعنى اكفف وعليك
بمعنى الزم ، ومنه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لَا تَظْهَرُوا مِنْ خُلٍّ إِذَا احْتَدَيْتُمْ .. »^(٢).

٤ — المصدر للفائب عن فعل الامر كقوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ
وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. »^(٣) ، أى : وأحسنوا بهما ،
وقوله عز وجل : « فَإِذَا أَقْبَبْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَخَرَبُوا الرُّقَابَ حَتَّى إِذَا
أَمْنَحْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ .. »^(٤) ، أى : فامسكوا الرقاب ..
ومنه قول فطرى بن الفجاءة :

فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نبل الخلود بمستطاع

وقوله عليه الصلاة والسلام : « رافقا بالقوارير ، » وتقول : سعيافى
الخير وأسراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ورمياً بالرمح وضرباً بالسيف وحمداً
لله وشكراً .

وقد قالوا فى تحديد مفهوم الأمر : هو طلب حصول الفعل على جهة
الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى ، فالأعلى يطلب من هو دونه
حصول الفعل وتحقيقه وبعثه عليه ويبحث ، وقد اختلف البلاغيون فيما
يستعمل فيه أسلوب الأمر ، فيرى البعض أنه يستعمل فى الوجوب
وأن المراد به الإلزام والتسكيف ، وبعضهم يرى أنه للندب ، وآخرون
يرون أنه يستعمل فى معنى يشمل الوجوب والندب وهو الطالب على جهة
الاستعلاء ، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب

(٢) سورة المائدة آية ١٠٥ .

(٤) سورة محمد آية ٤ .

(١) سورة البقرة آية ٢٧٢ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ .

والندب فقط ، أو بين الوجوب والندب والإباحة ، وذلك كاشتراك لفظ الغزاة في الشمس والظبي ، والخال في الشامة بخد الحستاء وأخ الام ، فأسلوب الامر موضوع للمعنيين : الوجوب والندب أو المعاني الثلاثة : الوجوب والندب والإباحة ، أو لمعنى يشملها مثل الإذن^(١) .

ولهذا وجدنا الخطيب القزويني يحتاط عند تعريفه الامر حيث قال : « والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو : ليحضر زيد ، وغيرها نحو : أكرم عمراً ورويد بكراً ، موضوعات لطلب الفعل استعمالاً لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ماسواها على القرينة »^(٢) .

فلم يحزم بتعريفه - كما ترى - بل جعله دالاً على ، ولعل سبب اختلاف البلاغيين في تحديد استعمال أسلوب الامر، مرده إلى أن صيغ الامر قد شغلت الدارسين في كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية ، وتوجب الحذر في الدراسة والاستنتاج^(٣) .

والذي أراه أن الأصل في صيغ الامر أن تستعمل في طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى الأدنى ؛ لأن هذا هو التبادر إلى الذهن عند سماعها - كما ذكر الخطيب - وقد تستعمل في غير هذا الأصل الذي وضعت له فتقيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمني أو الحث والإنارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل .. إلى غير ذلك من المعاني التي تفيد هذا صيغ الامر بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعاني وتجلياتها والكشف عن دقائقها ومزاياها في التعبير .

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٠/٢ .

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٥٣/٢ .

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢٦١ .

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها : -
الأصل في أسلوب الأمر - كما بينت - طالب حدوث شيء لم يكن حاصلًا وقت
الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا أمرة إلى جهة دنيا مأمورة ،
وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معاني كثيرة يرشد لإيها السياق وقرائن
الأحوال ، وأم هذه المعاني :

١ - الإباحة : وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه
السامع حظر شيء عليه ، كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، فليس المراد
هنا طلب الفعل استعلاء ، وإنما لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين
جالتيهما لما كان بينهما من سوء المزاج ، أباح المتكلم له بجالسة أيهما شاء
قال أمر - كما ترى - يفيد الإباحة ، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين
أو كليهما أو لا يجالس ، وليس ملزما له بفعل شيء . . ومن جملة ذلك قول
كثير غزوة :

أسيء بنينا أو أحسنى لا ملومة

لديننا ولا مقلية إن تقلت (١)

أى : لا أنت ملومة ولا مقلية ، فكثير يبيح لغيره أن تسيء إليه أو
تحسن ، فهو راض في الحالين غاية الرضا ، وسر جمال هذا التعبير أى : التعبير
بصيغة الأمر في مقام الإباحة في هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر
من عشق وهيام ، فقد وصل به إلى منتهاه ، حتى صار يطلب منها الإساءة كما
يطلب الإحسان ، ويلجأ في ذلك إلحاحا ، وكان الإساءة أمر مطلوب مرغوب ،
فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط يصير كل فعل يصدر عن

(١) القلى : البغض والكراهية وفي أوله : تقلت ، التفت وحذف للمفعول والأصل.

إن تقليتنا فالتفت إلى الغائب وحذف للمفعول .

حبيبته لا يراه إلا جمالا ، وبـ هذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله ، بأخصر طريق وأجمله ..

واستعمال الأمر في معنى الإباحة كثير في آو، الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبْذِبَ أَلْكُمْ الْخَلِيطَ الْأَيْسُّ مِنَ الْخَلِيطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . »^(١) فالمراد من الأمر في الآية السكرية لإباحة الأكل والشرب في ليالي رمضان حتى طلوع الفجر ، وفي التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة ، حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه . . . ومثله قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . . . »^(٢) ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق .

٣ - التخيير : ويكون في مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع ، كما في قول بشار :

فمَشَّ واحدًا أوصل أخاك فإنه مقارِف ذنب مرةً ومجانِبُه

فهو يخير مخاطبه بين أمرين : العيش واحداً منعزلاً أو صلة الإخوان ومخاطبتهم مع التجاوز عما يكون منهم من إساءات ، فتلك لابد منها ، على حد قول الآخر :

ولست بمسْتَبِق أخا لأنله على شعث أي الرجال المهذب

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير ، أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان مما ، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين ، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشئين والإباحة تجوزه

(٢) سورة الجمعة الآية ١٠

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

٣ - التهديد : ويكون في مقام عدم الرضا بالمأمور به ، كما تسمع من الرئيس يقول للمروسة : افعلى ما بدا لك ، أو من السيد يقول لعبده : دم على عصيانك فإلصق أمانك ، فليس المراد من الأمر في الموضعين الامتناع ، أى : فعل ما أمر به ، ولكن المراد هو التهديد والوعيد ، وكان الرئيس والسيد يطلبان من المروسة والعبء أن ينالهما وذلك لرغبتهما القوية في إنزال العقوبة بالمروسة والعبء ، فإذا ما كانت المخالفة كان العقاب مرا والإبذاء شديداً . . . وتأمل قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »^(١) ، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أنداداً ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعيد والتهديد : « تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » ، فليس المراد بالأمر في الآية : الامتناع ، وكان الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء ما لا يغفر وهو الشرك ، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشدد إعراضهم ويزدادوا تمعناً بشهواتهم ، فإذا ما هم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى ، فليس الأمر مراداً - كما ترى - بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقاع هؤلاء عمائم فيه من هناد ومكابرة ، وتدبر الالتفات من الغيبة في قوله : « جعلوا . . . ليضلوا . . . » ، إلى الخطاب في قوله : « تمتعوا فإن مصيركم . . . » فهو التفات لغضب المتوعدة . . . وخذ قوله تعالى : « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا بِإِنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ مَا يُخْفُونَ »^(٢) فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمتثلوا بل ليزدادوا نفاقاً على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأقوى ، وفي هذا من الزجر والتوعد والتهديد ما فيه ، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب ، كما في الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر . . . ومثله قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَنْ يُبَاقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ

يَا أَيُّهَا آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (١) . . .

فليس المراد بالامر : « اعملوا ، أن يمشوا فاعملوا ما يشاءون بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد وكان الله سبحانه وتعالى - لشدة غضبه عليهم - يأمرهم بما يوجب عقابهم لئلا يكل همهم أشد تنكيل ، وهذا هو سر بلاغة التعمير بالامر في مقام الوعيد والتهديد . . .

وخذ قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » ثم قارن بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلام : « لعل الله اطاع على أهل بدر فقال : اصنعوا ما شئتم فإن قد غفرت لكم » ، تجد أن الامر في الحديث الأول يفيد التهديد والتوعد بدليل قوله : « إذا لم تستحى » ، وفي الثاني يفيد التبشير وكالرضا عنهم ، فالحق سبحانه وتعالى قد أقبل إياهم « اطاع » ، وفي هذا من التشریف والتكريم لهم ما لا يخفى ، وقد أنعم عليهم بالرحمة والغفران ، وإن قد غفرت لكم ، وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن الأحوال فهو الذي يحدد المعنى الذي يفيد أسلوب الامر ، وعادة إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأمن فيه النظر ، وعندئذ فيمتضح لك أن أسلوب الامر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات الكريمة . .

٤ - التعجيز : ويكون في مقام إظهار عجز من يدعى قدرته على فعل أمر ما وليس في وسعه ذلك ، كما في قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » (٢) فليس المراد بالامر في الآية الكريمة التنكيل والإلزام بالإتيان بسورة من مثله ، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان ، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الامر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهور . .

وسر بلاغة التعبير بالامر في مقام التعجيز إبراز قوة التحدى والتسجيل عليهم ليعتزلوا ويقنعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة . .

ومثله قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(١) وقوله عز وجل : « الَّذِينَ قَالُوا لِلْأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٢) ، وقوله تعالى « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »^(٣) ، ولا يخفى عليك ما في الآيات السكريمة من قوة التحدى والتسجيل على المخاطب وإبراز عجزه ، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكير فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير . . . وتأمل قول المهمل مخاطبا آل بكر ، ومعلنا شدة غضبه لقتلهم أخاه كلبا .

يا لبكر أنشروا لي كلبا يا لبكر أين أين الفـرار

فهو يهددهم بالويل والشور ويطلب منهم إعادة كلب إلى الحياة ، وإعادة كلب إلى الحياة من المحال ، فالامر في قوله : « أنشروا لي » ، للتعجيز وسر بلاغة التعبير بأسلوب الامر في البيت : إشعارهم بأنه لا منجى لهم ولا هرب ، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة . . . وخذ قول الآخر :

أروني بخيلا طال عمرا يبخله وهاتوا كريما مات من كثرة البذل
فالشاعر يتحدى المخاطبين أن ينفقوه على بخيل قد امتد عمره وطال أبعده بسبب بخله ، وأن يبرزوا له كريما قد مات من كثرة البذل والعطاء ، ويشعر بما وراء ذلك من التغيير من البخل ، والحث على الكرم والعطاء ، فأسلوب الامر في البيت ، أسلوب موح ومقنع ، يكشف أمر البخل حتى يقطع البخل

(٢) - سورة آل عمران آية ١٦٨

(١) - سورة البقرة الآية ١١١

(٣) - سورة لقمان الآية ١٦

عن بخاتم ويبرز فضل الكريم الماعطاء فيزداد كرمًا وتطيب نفسه ربيقتع.
بسلامة منهجه وصحة مسلكه ..

ومثله قول الآخر :

أروني أمة بلغت منهاها بغير العلم أو حد الحسام
فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدى من حث على طلب العلم ومكافحة
الاعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ منهاها ..

• الإهانة والتحقير : وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة
المبالاة به كما في قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ »^(١) فالكافر
لا يمكنه الذوق ؛ لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ويحزنه وتلك حال لا يستطيع
فيها أن يذوق إلا الحميم والغسانين ، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من
الإهانة والتحقير والتهمك والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا
عن المنهج القويم وتنبعث تلك السخرية من قوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ »
الكرِيمُ ، ولا عزة ولا كرامة ، وإنما ذلة ومهانة .. ومثله قوله تعالى :
« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ أَسْمَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »^(٢) فالأمر بالتبشير في الآية يحمل
معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين .. وتأمل قول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضايرى أطنين أجنحة الذباب يضير
فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد .
ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد ، فوعيده طنين كطنين
أجنحة الذباب ، وأنى مثل هذا الوعيد أن يضير ، بل كيف يتوعد من
هذا شأنه .

٦ - التسوية : وتكون في مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر ، كما في قوله تعالى : « قُلْ أَنْذِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا أَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ »^(١) أى : يستوى عدم القبول منكم ، سواء أكانت النفقة صادرة عن طوعية أو عن كراهية ، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهداء ، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعاً مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما . . . ومثله قوله تعالى : « اضْلَوْهَا نَاصِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِمْنًا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »^(٢) . وقوله عز وجل « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . »^(٣) أى : يستوى الصبر وعدمه في عدم النفع وذلك دفعاً لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة . . وتشعر في الآية الثانية فضلاً عن التسوية بين الإيمان وعدمه بمعنى الاحتقار والازدراء وقلة المبالاة ، أى : آمنوا أو لا تؤمنوا فقد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم ، ولذا استوى إيمانكم وعدم إيمانكم ..

٧ - التنى : ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له في حصوله . . كما في قوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »^(٤) . فقد طلبوا الخروج من النار ولات حين خروج ، لأنه محال ولا طمع لهم في حصوله وليكنه التنى . . وانظر إلى قول امرئ القيس :
ألا أيها الليل الطويل ألا انتحلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالشاعر قد كثرت همومه وتكالبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم ، فهو يتمنى أن يتجلى ذلك الليل ، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الإصباح وينعم بضياؤه ، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال : وما الإصباح منك بأمثل ، فانت وهو سواء ، وإنما طلب انجلاء الليل مع هذا ، لأن في تنفير

(١) - سورة التوبة آية ٥٣ . (٢) - سورة الطور آية ١٦ .
(٣) - سورة الإسراء آية ١٠٧ . (٤) - سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

الزمن راحة على كل حال .. وليس الغرض من صيغة الأمر ، انجلي ، طلب
الانجلاء من الليل ، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر ، وإنما يتمنى الشاعر
ذلك تخلصاً مما يعانيه ..

وتأمل قول أبي العلاء الممرى :

فياموت زر إن الحياة ذمية

ويا نفس جدي إن دهرك هازل

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر ، زر ، وأراد بذلك التمني ، لأن الموت
لا يقبل أن تطلب منه الزيارة ، ولسكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر
تأخراً مملاً ، ولذا تمنى زيارته حتى يلبي تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جميعها
لا يطاق ، والشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعانيه من قسوتها .. وهذا المعنى
تراه شائعاً على ألسنة الناس فهم يعلمون الموت عند حلول الشدائد والأزمات
وتسكاب الأحزان ، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه ،
فيتمنون الموت تخلصاً من تلك النوائب ..

٨- الدعاء : وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ويكون في
أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة . كما في قوله تعالى :
« رَبِّ اسْرَحْ لِي صَدْرِي وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا
قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي زَاجِراً مِنْ أُمْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ
فِي أَمْرِي »^(١) . وقوله عز وجل : « رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِعِلَّةٍ مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ
أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ الْأَبْرَارِ »^(٢) . وقوله جل وملا : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. »^(٣) فالأمر في

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٣ .

(١) سورة طه آية ٢٥-٢٢

(٣) سورة البقرة آية ١٢٦ .

هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له ، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه . . . ومسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل ، وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال ، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا . . ونأمل قول المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكينهم فأت الذى صيرتهم لى حسدا

وقوله أيضاً :

أخا الحود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

تجد المتنبي يخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر : ، أزل . . أعط . . ، ولا يريد بالأمر حقيقة من الإلزام والتكليف ، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه ، وإنما أراد المتنبي التوسل والدعاء ، وإيثاره أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية في تحقيق ما يريد ، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة . .

٩ - الالتئاس : ويكون عند خطاب من يسأرك في الرتبة والمنزلة ، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء ، على نحو ما ترى في قول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

اسقط اللوى بين الدخول لحومل

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه ، ليزرفا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكري الغالية ، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر ، الالتئاس ، ، لا الإلزام والتكليف ، لأن خطاب الندند لا يراد به معنى الإلزام . . ومثله قول كثير :

خليل هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكا ثم ابكيا حيث جلت (١)
فهو يطلب من خليليه أن يقف معه ساعة في منزل فتاته د عزة ، وفاء لها
وقياما بحقه من البكاء فيه ، لخلوه من سا كنبه ..

والتعبير بصيغة الأمر في مقام الالتباس ، يوحى بمدى انفعال الشاعر
وميطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ماعدارغبته في تحقيق ذلك الأمر
من جميع الرفاق ، وكان البكاء ليس مطلوباً منه وحده بل مطلوب منهم
جميعاً ، وأسلوب الأمر لا يكون حسناً ومقبولاً بين الرفاق إلا إذا كان بينهم
تواضع جم وحب شديد ولذا تلاحظ كثيراً يقول : خليلي ، ، فهما خليلاه
اللذان اصطفاهما وارضى صحبتهما وألفهما .

١٠ - النصيح والإرشاد : وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد
وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجه الإلزام ، كما في قوله تعالى :
« يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى
مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام
لعملي كرم الله وجهه : « إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطمك وأعط
من حرمك وأعف عن ظلمك ، ففي الآية السكرية يوصي لقمان ابنه بتلك
الفضائل وفي الحديث ينصح صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أن يتجلى بتلك
الخصال الحميدة ، ولا يقال إن الأمر هنا للوجوب إذ المأمور به واجب ،
لأن المأمور به إنما يكون واجباً إذا وردت تلك الأوامر في مقام الأمر
والإلزام من الله عز وجل ، أما وردها هنا على لسان لقمان في الآية وعلى
لسان المصطفى في الحديث ، فإن المقام يقتضي أن تكون للنصح والإرشاد . . .
ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على السنة الوعاظ والمرشدين
والموجهين ، فهم يريدون منها النصيح والإرشاد ، وأن يعبروا عما يضمرونه

(١) الربع : الحى أو العمار . والقولس : النانة الشابة . وعقل البعير : قيد .

(٢) - سورة لقمان آية ١٧ .

من حب وإخلاص لاتباعهم ، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الإرشاد والنصح .

١١ - الإكرام : كما في قوله تعالى : « أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ » (١) ، فقد قالوا في معناه : إنهم لما صاروا في الجنات ، فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها : « ادخلوها ، وأرى - والله أعلم - أن أسلوب الأمر في الآية مراد به ، الإكرام ، للؤمنين وهذا شائع بين الناس ، نإذك تقول اضيفك وهو مستمر في الأكل والشرب كل واشرب ، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما في حاجات نفسك من حب له وسرور به .

١٢ - وقد يأتي الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط ؛ كما في قوله تعالى : « وَتَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » (٢) ، فأصحاب النار يعلمون يقيناً أن ما في الجنة محرم عليهم ، ولكنهم لفرط مالم فيه من هول وعذاب ، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون مالا سبيل إلى تحقيقه .

ومثله قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ... » (٣) ، وقوله عز وجل : « قَالُوا : رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » (٤) ، وكان الكافر وقد حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب مالا سبيل إلى تحقيقه ، ولا يدري ماذا يقول . وكذا في الآية الثانية ، كان الأشقياء لشدة ماذاقوا من العذاب في جهنم أصبحوا في حيرة وتخبط فصاروا يطلبون ويتمنون مالا سبيل إلى تحقيقه .

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الحجر آية ٤٦ . | (٢) سورة الأعراف آية ٥٠ . |
| (٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠ . | (٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ . |

١٣ - وقد يأتي الأمر بالإثارة والإلهاب والتوبيخ وذلك عندما يوجه إلى
 المأمور الواقع منه الفعل، والذي لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما في قوله
 تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّكَ إِلهٌ لِّمَنْ تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » (١) .
 وقوله عز وجل : « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَؤْا بِآيَةٍ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً » (٢) . وقوله جل وعلا : « نَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَتِكَ لِلَّذِينَ خَنِيئًا
 فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّفْسَ عَلَيْهَا . . » (٣) . إلى غير ذلك من الآيات
 الكريمة التي يوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهي عن غير الحاصل إلى
 الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الغرض من الأمر أو النهي عندئذ هو الإثارة
 والتوبيخ والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكاً بما هو عليه من الحق واليقين
 ويستمر ويدوم، ولذا قالوا: إن التوبيخ بالأمر في مثل هذه الآيات وكذا النهي،
 يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أي: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد
 عن الكفر وعن الطغيان . . ونرى أن أسلوب الأمر والنهي الموجهين إلى
 الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق،
 الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفرداها بالأمر والنهي وأن البشرية
 في أسمى صورها وأعلى منازلها، وهي النبوة تؤمر وتنهى، وهذا تعميق للفرق
 بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى
 لا يتطرق إلى عقيدة الوجدانية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم
 السابقة، فقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزير ابن الله،
 ولهذا كان أسلوب الأمر أو النهي الموجه إلى النبي - عليه الصلاة والسلام -
 في مثل هذه الآيات: « اسْتَقِمْ - اتَّقِ اللَّهَ - لَا تَطْغَ - لَا تَسْكُرْ » من المشركين،

(٢) - سورة هود آية ١١٢

(١) - سورة الأحزاب آية ١

(٣) - سورة الروم آية ٣٠

مشير إلى أن محمداً وهو الذى ما خلق الله ولا ذراً ولا أبرأ نفساً أكرم عليه منه ، إنما هو بشر يؤمر وينهى ويحذر ويتوعد : « لَنْ أَمُرَّكَ أَنْ تَلْبَسَ بَطْنَ عَمَلِكَ »^(١) ، « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »^(٢) وهذا يظل الألوهية سلطانها القاهر المهيمن وتقف النبوة عند منزلتها السامية التى مهما سمت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية^(٣) . .

١٤ - وقد يأتى الأمر تصويراً للحدث وبياناً لكيفية وقوعه انقباداً لقدرة الله تعالى ، كما فى قوله عز وجل : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ »^(٤) ، وقوله جل وعلا : « فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُحْيَاهُمْ »^(٥) ، وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ »^(٦) ، فالأمر فى الآيات الكريمة : « ائْتِيَا - موتوا - كن » بصور حال الحدث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى . . وفى هذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع - ونأمل ما فى الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة ، ثم تارن بينه وبين أن تقول : فأما هم الله ثم أحياهم . . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يكون . . فأمرهما الطاعة فأطاعا . . فستجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل ، قد ولى وذهب ، فى هذه الأقوال . .

١٥ - وقد يأتى الأمر بالفعل مراداً به الحث على الاتصاف بهصفة معينة ، كما فى قوله : مت وأنت كريم . . مت وأنت تقى - صل وأنت خاشع . . وأقرأ وأنت بمظفأنت . فى هذه الأقوال لا تريد أمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة ،

(١) - سورة الزمر آية ٦٥ (٢) - سورة الحاقة الآيات ٤٤ - ٤٦ .

(٣) - ارجع إلى دلالات التراكيب ٢٧٠ (٤) - سورة فصلت آية ١١

(٥) - سورة البقرة آية ٢٤٣ (٦) - سورة يس آية ٨٢

وإنما يريد أن نجثه على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة ، وأن يحافظ ويستمر على الاتصاف بها ، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من السكرماء الانقياء . . . ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهى تقول : لا تصل إلا وأنت خاشع . . . لا تمت إلا وأنت كريم ، ومرادك من هذا النهى : أن نجثه على الخشوع والكرم ، لا نهيه عن الصلاة والموت . . . ومن ذلك قوله تعالى : « وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » (١) ، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، أى : حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت - وهو لا يأتي إلا بغتة - ماتوا وهم مسلمون .

١٦ - وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتى منه الخطاب ، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - : « بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » ، لا يريد - صلى الله عليه وسلم - مخاطبة معينين ، وإنما أراد عموم الأمر ، حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لنور ، وفى هذا تذكيرهم للمشائين إلى المساجد وتنويه بشأهم وبرضا الله تعالى عنهم وتجليه عليهم بالرحمة والخفران والنور التام . . . إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر ، فهى كثيرة يطول حصرها ، وما نريده الآن هو أن نقف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعانى . .

قال كثير من البلاغيين إن هذه المعانى التى يفيدها أسلوب الأمر معانٍ مجازية بمعنى أن الأسلوب - انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعانى ، وكل مجاز لا مد فيه من علاقة بين المعنى الاصل والمعنى المجازى . . وقد خاض

البلاغيون وجدوا في النفس تلك العلاقات ، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هي الإطلاق والتقييد ، لأن الأمر إذن مقيد ، والإباحة لمطلق الإذن ، فاستعمال الأمر في الإباحة مجاز مرسل . . . ويجوز أن تكون العلاقة : التضاد ، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب . . . والعلاقة بين الأمر والتهديد : شبه التضاد وبين الأمر والإهابة : اللزوم . . . وهكذا (١) . . .

وبعضهم يجعل استعمال الأمر في تلك المعاني من قبيل الكناية ، وبعضهم يجعله من قبيل مستبهمات الكلام . . . وكذا القول في المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي أو أساليب الاستفهام الآتي بيانها . . . والذي نراه أن دلالة الأمر وكذا النهي والاستفهام على تلك المعاني من مستبهمات الكلام بمعنى أن السياق وقرائن الأحوال هي التي تحدد تلك المعاني المرادة ، وأما لا داعي للخوض في التماس علاقات وأهمية بين تلك المعاني وبين أساليب الأمر والنهي والاستفهام ، لأنه على الرغم من ومن هذه العلاقات فإنه لا فائدة للدرس البلاغي وراءها ، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية في الدلالة على هذه المعاني ، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله ، لا أن تبدد في اللهث وراء التقاط علاقات لا تمنى ذوقا ولا تفيد شيئا . . . قائل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يُخَفُّونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ بَايَعَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (١) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » وقوله عليه الصلاة والسلام : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فأني قد غفرت لكم » تجد أن أسلوب الأمر واحد « اعملوا ما شئتم »

(١) ارجع إلى هذه العلاقات في شروح التناخيس ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) سورة صافات آية ٤٠

اصنع ما شئت ، وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالاته ، وهذا الاختلاف مردد إلى السياق ووقوفنا على مرعى الكلام ومعزى الحديث ، نالآية تتحدث عن الكفرة الذين ياحدون في آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى ، فهو عليهم بهم ومصيرهم إلى النار ، فليعملوا ما شاءوا ، الأمر كما ترى ينبغي بالوعيد والتهديد الشديدين . وكذا الحديث الأول يتحدث عن الذى لا يستجى من الله تعالى ، فقوله صلى الله عليه وسلم في خطابه : اصنع ما شئت إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير . . أما الحديث الثانى فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه لإنهم أهل بدر ، وقول الله لهم : اعملوا ما شئتم ، إنما هو وعد ورضا وتعيم ورضوان . . مثل هذا هو الذى ينبغي أن تسكرث الجهود لمعرفة والإحاطة به فهو الذى ينمى الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس على خبايا التراكيب وأسرارها ، ومزاياها الجمالية . . أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر في مقام التهديد ، مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد ، إذ المسأور به إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه ، وأن شبه التضاد هو الذى يجوز استعمال الطلب مكان التوعيد والتهديد استعمالا مجازيا ، فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه ، ولذا ينبغي أن يكون عن البلاغة بمعزل . . ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستقبات التراكيب ، وأن الواجب على الدارس أن يجد في تذوق تلك المستقبات التى هى سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يتف على أسرارها ودقائقها ، ومن خلال ذلك يصل إلى الممانى البلاغية التى تفيدها تلك الأسباب . . .

• • •

أسلوب النهى : هو كل أسلوب يطالب به المكلف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام ، فيكون من جهة علمية ناهية إلى جهة دنيوية منهية ، وله صيغة واحدة وهى المضارع المقرون بلا الناهية كقولك : لا تصاحب الأشرار لا تفعل السوء . لا تكف عن البذل والعطاء ، ومنه قوله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ تَوْزِعُكُمْ) (١) .
 وقوله عز وجل : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » (٢) .
 وقوله عز من قائل : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا » (٣) .
 فقد أفاد النهي في الآيات الكريمة طاب الكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد
 في الأرض وعن اقتراب حدود الله ، وصيغته كما ترى هي المضارع المقرون
 « بلا ، الناهية » .

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي : والذي تهتم به الدراسات
 البلاغية ليس هو طلب الكف عن الفعل وهو المعنى الأصلي لتلك الصيغة ،
 وإنما تهتم بمآرء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهي . وأهم
 هذه المعاني :

١ - الدعاء : وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى ،
 كما في قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
 عَلَيْنَا أُمْسِرًا كَمَا سَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
 لَنَا بِهِ » (٤) ، فالمقام مقام ضراعة وخضوع ، والمؤمنون يبتلون إلى الله
 تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل ، فالمقصود منه الدعاء
 والابتهال . . . وسر التعبير بصيغة النهي في مقام « الدعاء » في الآية الكريمة ،
 هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين في أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والحق والظهور
 كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا . . . ومنه قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ
 قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » (٥) ، وقوله تعالى : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا » .

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الإسراء آية ٣١ . | (٢) سورة الأعراف آية ٥٦ . |
| (٣) سورة البقرة آية ١٨٧ . | (٤) سورة البقرة آية ٢٨٦ . |
| (٥) سورة آل عمران آية ٨ . | |

كَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . »^(١) ، إلى غير ذلك من الآيات التي يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعياً وراجياً بهذا الأسلوب الذي يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاه ويجيب طلبه . .

٢ - الالتئاس : وذلك إذا كان النهمى من المساوى والنند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل ، كـ «قوله لك لنظيرك : لا تفعل هذا ، ومنه قوله تعالى : على لسان هارون يخاطب أخاه موسى - عليهما السلام - : « قَالَ : يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتُ بَيْنَ يَدَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ تُرْقُبْ قَوْلِي »^(٢) فالنهمى في قوله : « لا تأخذ » المراد به : الالتئاس ، لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام ، ولا تذلل وخضوع حيث وجه من هارون إلى موسى وهما متساويان في الرتبة والمهلة فهو يلتمس منه بهذا النهمى ، عدم إزال العقوبة به ، فقد خشي أن يخرج عليهم أن يتفرقوا ، وفي إشار التعمير بنسبته إلى الام « يا ابن أم ، على الرغم من كونه أخاه لا يمه وأمه : استعطاف لموسى وترقيق لقلبه ، والسر البلاغى وراء التعمير بصيغة النهمى في مقام الالتئاس ، في الآية الكريمة ، هو إظهار حرص هارون على ترقيق قلب أخيه ، ورغبته القوية الأصلية في العفو والتسامح فقد كان له عذر . ومنه قول المتنبي في سيف الدولة :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكفيا عن سيف الدولة ما يقوله في وصف شجاعته وحسن بلائه في الحروب ، وقد عبر بأسلوب النهمى في هذا المقام ، مقام الالتئاس ، إظهاراً لشدة حرصه على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة ، وفي ذلك ما فيه من تهويل وتفخيم لشجاعته وقوة فتك بأعدائه . . ومنه قول الآخر :

(١) سورة آل عمران آية ١٩٤ . (٢) سورة طه آية ٩٤ .

خليلي من بين الأخلا. لا تكن حبالها أنشودة من حبالها (١)
فهو يلتبس من خليليه الأثيرين عنده المحبين إلى نفسه ألا تكون مودتهما
وصلتهما ضعيفة واهية . وقد عبر بأسلوب النهمى إبرازاً لشدة رغبته في أن يتحقق
له ما يريد من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما .

٢- النصيح والإرشاد : كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ » (٢) ، وليس المراد بالنهي عن
السؤال في الآية الكريمة : الإلزام وطالب التكف . وإنما أريد به النصيح
والإرشاد ، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال . .
ومنه قول أبي العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدى (٣)
فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا ، وقد
عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمثل المخاطب ويستجيب
لنصحه وإرشاده . . .

٤- الحث على الفعل . . كما في قول الخنساء :
أعني جوردا ولا تجمدا ألبكيان لصخر الندى
فهو يحث عينيها على البكاء وأن تجردا بالدمع وتنملا وألا تبخلا به ،
فإنهما تبكيان صخر الندى ، والتسمير بالأمر والنهي في هذا المقام يظمر شدة
حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما ترده فتفيض عينها بالبكاء وفاء
لحق هذا المقام . . ومنه قول إسماعيل صبري :

(١) أنشودة : واهية غير وثيقة المقد . .
(٢) سورة المائدة أية ١٠١ .
(٣) الدنايا : جمع دنية وهي العيب والنفقة . والمراد بتعدى . تلنقل إلى
من يحالهم .

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فاؤه العذب لم يخلق لكسلان

فهو ينهى المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملاً عظيمًا
يصبحون به جسد يرين أن يشربوا ماءه . والغرض من النهى هو الحث على
التقدم والتفاني في سبيل رفعة مصر .

وليثار التعبير بالنهى في مقام الحث في البيت ، يبرز حب الشاعر لمصر
وبصور عاطفته القوية نحو تقدمها ورقمها ، فهو يرى أنه لا يستحق الحياة من
لا يعمل لرفعة وطنه ويذل جهده لتقدمه وازدهاره .

هـ - التمنى : كما في قول الشاعر .

يا ليل حل يا نوم ذل يا صبح فف لا تطالع

فهو يتعنى أن يمتد الليل ويطول والآن يطالع النهار وذلك حتى يطول
اجتماعه بحبيبه والتحدث إليها ، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال ،
ولكن الشاعر لرغبته الشديدة في أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح
وعدم طلوعه أمر ممكن ، فأمره بالوقوف : وقف ، ونهاه عن الطلوع :
لا تطالع ، ومراده بهذا : التمنى ورغبته القوية في الاجتماع بحبيبه والتمتع
بجودتها .

٦ - التحقير والإهانة : كما في قوله تعالى : « قَالُوا : اخذوا فيها
وَلَا تُسْكَلُونِ .. »^(١) ، فالأمر والنهى في الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة
والتحقير لهؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا وكانوا أوماضالين ،
ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »^(٢) ، فكانت تلك الإهانة : « اخسأوا فيها
ولا تسكلمون » .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٨ .

- ١٠٦ -

ومنه قول الخطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر :
دع المسكارم لا ترحل لبعيتها واقعد فإنك أنت الطاعم السكارم
فالمراد بالأمر : ددع واقعد ، والنهي : ولا ترحل ، تحقير المخاطب وإهانته
وإظهار أنه ليس أهلاً للكفاح من أجل المسكارم والمعالى ، فعليه أن
يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله .

٧ - التوبيخ : كما في قول أبي الأسود الدؤلي :
لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
فالمراد بأسلوب النهم : دلأنه ، توبيخ من ينهى الناس عن الشر والسيئ
ولا يأتى عنه . . ومثله قول الآخر :
لا تحسب المجد تماً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبيرا
فالنهم في قوله : لا تحسب ، المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل
وهو يطمع في تحصيل المجد ، وفي نفس الوقت فيه حث على العمل والجد لنيل
العلا وتحقيق المجد .

٨ - التهديد : كقول الرئيس لمروسة : لا نطع امرئ . . لا نقلع
عنادك ، فهو لا يطلب منه ترك الامتناع لأوامره وإنما يهدده ويتوعده .
ومنه قوله تعالى : « وَآيُنْ سَأَلْتَهُمْ آيَةً وَلِيُنْ إِئْمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِإِلَهِ وَأَبِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . لَا تَمْتَرُوا وَآيَاتِهِ كَذِبٌ
يَمْدٌ لِمَا بَيْنَكُمْ . . »^(١) فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة وإنما
المراد التهديد والتحذير حتى يفعلوا عن غيرهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق
والهدى .

(١) سورة التوبة آية ٦٥ ، ٦٦ .

٩ - التَّيْبِيسُ : كافي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »^(١) فلا معنى لنبههم عن الاعتذار في ذلك اليوم وإنما هو التَّيْبِيسُ ، وإسلامهم أنه ان يقبل منهم ولن يلتفت إليهم ، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم .. ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

لا تطلبن كراماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخام بداختموا
فقد أراد بالنهاي : لا تطلبن ، تيبس الخطاب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه ، فسيف الدولة أكرم الأكرام وأسخى الأسخياء وقد ختم به الكرام ، ومهما حاول الخطاب أن يثر على كريم مثله فلن يفلح ، وفي هذا من المبالغة في كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ما ترى .

١٠ - التَّفْظِيعِ وَالتَّهْوِيلِ : بكسر لك : لا تسأل عن فلان وقال الله شر ما أصيب به ... تريد أن فلاناً هذا قد ألمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التي لا توصف لشدها وهرطها وفظاعتها ، فليس المراد بأسلوب النهي : لا تسأل ، طلب الكف عن السؤال عنه ، وإنما أريد به التهويل وتفضيع ما ألم به ، كان المتكلم لا يستطيع وصفه ، أو كان المخاطب لا يطيق سماعه أو كان المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإسماعه تلك الأحوال .. ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ »^(٢) ، في قراءة من قرأ بالنهي وجزم المضارع ، أي : لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أمرهم من النكال ، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه ، أو لا يستطيع أنت سماعه لفظاعته وشداعته .. وقد يكون اتهميل في النعيم والخير ، كان تقول : لا تسأل عن فلان ، ، وتريد فلاناً الذي حل به من الخير والنعيم ما لا يوصف لكثرة وفرفته ..

(٢) سورة البقرة آية ١١٩ .

(١) سورة التحريم آية ٧ .

١١ - وقد ينهى عن الفعل مقيداً بقيد أو موصوفاً بوصف ، ولا يكون الغرض : النهى عن الفعل في هذه الحال بل النهى عن الفعل مطلقاً ، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للبالغة في التنفير والتحذير كقولك : لا تضيع دينك بكسرة خبز . . لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تريد النهى عن ضياع الدين في هذه الحال ، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط ، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه ، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح ، وإنما تريد حثه على التمسك بدينه وحفظه حقوق جاره مطلقاً ، وقد قيدت التضيع بكسرة الخبز وبوصفت الجار بالصالح ، لأن في ذلك مزيداً من التنفير والتقبيح ، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقياداً . . ومن ذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْطَافَةً » ^(١) ؛ وقوله عز وجل : « وَلَا تُسْكِرْهُوا قَتِيلَاتِكُمْ عَلَى الْيَتَامَى » ^(٢) ؛ وقوله عز وجل : « وَإِنِ ارْتَدَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا » ^(٣) ؛ وقوله عز من قائل : « فَإِنِ انْتَهَبْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا » ^(٤) ، فالأفعال المنهى عنها في الآيات الكريمة قد قيدت بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها ، وليس المراد النهى عن الأفعال المذكورة في الحال التي قيدت بها

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٠

(٢) سورة النور الآية ٢٣

(٣) سورة النساء آية ٢

(٤) سورة النساء آية ٦

فقط دون ما عداها وإنما المراد النهى المطلق ، وقد جرى بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت . . . انظر إلى آية النهى عن الزنا ، تحذف هذا النهى قد قيد بكونه أضعافاً مضاعفة والمراد النهى عن أكل الربا مضاعفاً وغير مضاعف ، ولحكمه جرى بهذا القيد تبشيعاً للصورة وتنفيراً للنفوس . . . وتأمل آية النهى عن البغاء ، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه : لا تذكرهوا ، والمراد هو النهى عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو إقباطن طواعية ، ثم جرى بهذا القيد : إن أردن تحصن ، والفتاة لا تذكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف . وكان القيد تأكيداً لإكراه المنهى عنه ، وفي هذا مزيد من التقطيع والتنفير ، وتصوير الصورة في أبشع صورها . فتأمل كيف تم تحصن وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عقابها وتحصنها ، تلك هي الصورة المنهى عنها ، وهي صورة تبشيعها النفوس وتستغظمها وتنفر منها ، والمراد - كما قلت - هو النهى عن البغاء مطلقاً . . .

وتأمل الآيات التي تناولت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا التحريم قد قيد بالأكل : « لا تأكلوا ، ولا يعنى ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الأكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك ، وإنما المراد النهى عن الاعتداء على أموال اليتامى بأى وجه من وجوه الاعتداء ، ولكن لما كان العربي يتضمم بملء البطن وكثرة الأكل وبعد ذلك من البهيمية ، فقد أوتر التعبير بالأكل تفضيلاً وتفصيلاً ، وهكذا تجد الآيات التي تناولت تحريم الاعتداء على أموال الغير .. انظر : « لا تأكلوا الربا .. لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. لا تأكلوا مال اليتيم .. » فالتعبير بالأكل فيها يفيد التفضيع والتنفير ، والمراد هو النهى عن الاعتداء على أموال الغير بأى وجه من الوجوه .. وعد إلى آيتي أموال اليتامى المدكورتين : « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم .. » « ولا تأكلوها إسراراً وبهراً أن يكبروا .. » تجد أن هذين القيدين : « إلى أموالكم ، و « إسراراً وبهراً

أن يكبروا ، قد جبه بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة - صورة الاعتداء على مال اليتيم - في أبشع الصور وأفظعها ، فهذا غنى يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعاً وجشعاً وذاك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله... ومما جاء على هذه الطريقة في أسلوب الأمر قوله تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْئُوفًا . . . »^(١) ، فذو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدراً من الميراث على سبيل النذب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب - وهذا مما تهاوت به الناس ولم يلتفتوا إليه - وهذا القدر يعطى للقريب غير الوارث وللمساكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا ، وقد قيد الأمر - فآرزقوهم ، بحضور القسمة ليكون ذلك أبعد على الغطاء ، ودافعا أقوى لترضية ذوى القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعافهم والقول لهم قولا مرفقا...^(٢)

أساليب الاستفهام : الهمزة والياء والتاء إذا زيدت في الفعل الثلاثي ، أفادت معنى الطلب ، يقال : استزاد أى : طلب الزيادة ، واستغفر : طلب المغفرة واستفهم : طلب الفهم ، فالاستفهام يعنى طلب الفهم ، ولذا قالوا في تعريفه : الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة . . . وهذه الأدوات هي : الهمزة وهل ومن وما وكيف ولم وأين وإيان ومتى وأنى وأى . . . وقد عرفت أن الجملة الخبرية التى تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هي المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات ، وبضم هذه الأجزاء وسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التى تفيد حكما معينا بهذا الضم أو بذلك الإسناد . . . وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين : إما عن النسبة أى : الإسناد أو الحكم المقاد من الجملة

(٢) ارجع إلى دلالات القرا كيب ص ١٧٦

(١) سورة النساء آية ٨

ويسمى ، تصديقا ، وإما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى ، تصورا ، . .
فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشئين ثبوتا أو نفيا . . والتصوير هو إدراك
أحد أجزاء الجملة ، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات . . وأدوات
الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع :

١ - ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة
وحدها . .

٢ - ما يطلب به التصديق فقط ، وهو هل . .

٣ - ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقية الأدوات . .

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع ، الهمزة وهل ، ضوابط واعتبارات
دقيقة ينبغي الوقوف عليها والإحاطة بها ، أما بقية الأدوات فلكونها تطلب
تصور أشياء محددة ، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئا زائدا عن
الضبط امام في النظام الإعرابي ووجوب تصدر هذه الأدوات . . .

ولذلك إيضاح بناء الجملة مع الهمزة وهل وبيان ما يسأل عنه ببقية
أدوات الاستفهام . .

الهمزة : ويطلب بها إما التصديق ، أى : إدراك النسبة الواقعة بين
الطرفين ثبوتا أو نفيا ، وذلك عندما يكون السائل عالما بأجزاء الإسناد ،
ويجهل الحكم أو مضمون الجملة : فهو يسأل ليقف على هذا الحكم . .
وإما التصور ، أى : إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالما
بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء . فإذا كانت الهمزة تطلب التصديق ،
كان جواب الاستفهام بنعم أو لا ، ولا يفكر معها معادل ، ويليهما غالبا
الفعل إن وجد . . تقول : أنجح خالد . . عمرو وشجاع ؟ إذا كنت تتصور
أجزاء الكلام : د نجح وخالد وعمرو وشجاع ، وتتصور النسبة بين أجزائه
أى بين نجح وخالد ، وبين عمرو وشجاع ولكذلك تجمل وقوع هذه النسبة ،

أواقعة هي وعققة أم غير واقعة ، ولذا يجاب سؤالك بنعم أو بلا ، أى بتحقيق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها . . ومن ذلك قول الشاعر :

أترك إن قلت دراهم خالداً زيارته ؟ لى إذا للقيم

فالجواب هنا بالنفى أى : دلا ، لن أترك زيارته إن قل ماله ، لأن السؤال عن التصديق ، إذ المتمكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتمكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد . كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء ، وليكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع . . فإن ذكر المعادل د أم ، بعد همزة التصديق هذه ، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقصورة ، كما فى قول الشاعر :

ولست أبالى بعد فقدى مالكا

أموتى ناه أم هو الآن واقع

فالسؤال بالهمزة عن النسبة د أم ، للإضراب عن الكلام السابق ، أى : عن هذا التساؤل ، وبعدها همزة مقصورة يسأل بها سؤال آخر والمعنى : أموتى ناه ؟ بل أهو الآن واقع ؟ . . . وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه . . ويذكر للمستفهم عنه - غالبا - معادل بعد د أم ، المتصلة وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه . . ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا ، وإنما يكون بتعيين المستفهم عنه . . تقول فى السؤال عن الفاعل : أحمد جاء أم عمرو ؟ فيكون الجواب : محمد أو عمرو أى بتعيين من جاء منهما ولا يقال عندئذ نعم أو دلا . . وفى السؤال عن الفعل أجاء محمد أم تخلف ؟ فيقال : جاء أو تخلف وعن المفعول : أعمراً ضربت أم زيداً ؟ فيجاب : عمراً أو زيداً وعن الظرف : فى البيت زارك عمرو أم أم فى المدرسة ؟ فيجاب : فى البيت أو فى المدرسة . . . وقد يستغنى عن المعادل

إذا دل عليه دليل ، كما في قوله تعالى : « قَالُوا : أَنْتَ قَتَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ » ^(١) فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل ، حيث أشاروا إلى الفعل « هذا » فهو معلوم لهم ، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويجهلون الفاعل ، ولذا ولي الفاعل الهمزة « أَنْتَ » والمعنى : أَنْتَ فعلت هذا أم غيرك ؟ ، وقد أنجأهم - عليه السلام - معينا لهم الفاعل على سبيل التكم : « بَلْ قَتَلْتُمُوهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ » ^(٢) .

وينبغي أن يراعى عند ذكر المعادل بعد « أم » ، المتصلة أن يكون موافقاً لما بعد الهمزة وألا يتناقض معه ، على نحو ما ترى في الآيات الكريمة « يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » « أَطْلَعَ النَّيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟ » ، « قُلْ أَنْتُمْ أَهْلُ أَمِّ اللَّهِ » ، « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُنِعٍ » ، « إِيَّاكَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ » حيث تجد أن ما بعد « أم » ، مماثل لما بعد الهمزة . . ولذا كان من الخطأ أن تقول : أزيدا أكرمت أم أهنت . . أأكرمت زيدا أم عمرا . . أجاهك خالد أم علي . . لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد « أم » ، المتصلة ، وهو ليس تناقضا في تركيب العبارة لحسب ، بل تناقض واضطراب في الإدراك والوعى ؛ إذ تقديم المفعول مثلاً في قولك : أزيدا أكرمت ؟ ينبيء بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب ، فلو قلت بعد ذلك : « أم أهنت ، أو قلت : « أم خالد » بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول . . وعليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك في الفاعل والجهل به كقولك : أَنْتَ بنيت هذه الدار ؟ ولا يصح قولك : أبنيت هذه الدار ؟ ، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوماً ويجعل الشك في الفاعل ، وتقديم الفعل وإيلاء الهمزة ينفي ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٦٣ .

(٨ - علم الثاني ج ٢)

ويجمل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض ، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحده ، بل أتركه بلا تحديد كأن تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها . . أقلت الشعر الذي عزمت على قوله ؟ . . ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول : أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ . . أنت قلت الشعر الذي عزمت على أن أقوله ؟ . . لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله ، وقولك : التي كنت على أن تبنيها . . الذي كنت على أن تفعله ، يدل على أن الشك في الفعل . . وهذا تناقض .

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب : فعله فلان ، ، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد ، فلا يقال : أنت أكلت طعاماً ؟ . . أنت رأيت اليوم إنساناً ؟ . . أنت قلت شعراً ؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال : أأكلت طعاماً ؟ . . أرايت اليوم إنساناً ؟ . . أقلت شعراً ؟ . .

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك : أزيد عندك أم عمرو ؟ أزيد أقيمت أم بشر ؟ أفضل وأحسن . فإن قلت : أعندك زيد أم عمرو ، أقيمت زيدا أم بشر ؟ كان حسناً جازاً . . . وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون ؛ لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة - كما رأيت - وسيبويه يجوز تأخيرها ، بل يعمده حسناً . .

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازته سيبويه كان في مراحل سابقة اللغة فيها تنمو ، والتراكيب تتطور ، ثم إن الترقى في التراكيب الهادف إلى تغذية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ماعدائها بما أجازته سيبويه واستحسنه ، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تراكيب يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن ، توحى بصحة

هذه الإجابة (١) ..

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل وبلى الهمزة غيره لغرض بلاغى وهو المبالغة فى الإنكار ، وتأكيد الردع والزجر ، وذلك عندما بلى الهمزة أو يعطف على ماولياها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل غيره ، كقولك : أفى ليل وقع هذا أم فى نهار ، فانت لانسأل عن الظرف ، وإنما تذكر وقوع الفعل ، ولم بلى الفعل الهمزة كما ترى ، بل وليها وعطف على ماولياها الظرف الذى ليس للفعل ظرف سواء ، فإذا ما انتفى الظرف الذى لا ظرف يقع فيه الفعل غيره ، كان هذا أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد إنكاراً وأقوى ردعاً لمن يدعى وقوعه .. ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ أَلَمْ كَرِهْ حَرَّمَ أُمِ الْأَنْثِيَيْنِ أَمْ مَا اسْتَحْتَمَلَتْ عَلَيْهُ أَرْحَامُ الْأُنْثِيَيْنِ .. » (٢)

وقوله عز وجل : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَهُ أَوْذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » (٣) :

فالمعنى هل لإنكار التحريم ، ود الإذن ، وقد رلى الهمزة غيرهما مبالغة فى الإنكار والزجر ، لأنه إذا انتفى المفعول الذى ليس للفعل مفعول غيره ، فى الآية الأولى ، والفاعل الذى ليس للفعل فاعل سواء فى الآية الثانية ، كان ذلك أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد ردعاً وأقوى زجراً لمن ادعى وجوده وثبوته (٤) .

هل :- أما د هل ، فإنها لطلب التصديق لحسب ، تقول : هل قام زيد ؟ ، وهل عمرو ناجح ؟ ، فتسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثانى ، ولذا

(١) ارجع الى دلالات التراكييب ص ٢١٩ .

(٢) سورة الانعام آية ١٤٣ .

(٣) سورة يونس آية ٥٩ .

(٤) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٧ .

يكون جوابك: نعم أولا ، أى : بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها ... ولما كانت
هـ ، اطالب التصديق لحسب : فقد ترتب على ذلك مايلي :

١ - امتناع ان يذكر بعدها معادل هـ بأم ، المتصلة ، فلا يقال: هل زيد
قائم أم عمرو ؟ ، لأن هـ ، تدل على أن مضمون الجملة ، هو النسبة غـير
معلومة وأن السؤال عنها ، ووقوع المفرد بعد هـ أم ، دليل على أن هـ أم ،
متصلة ، هـ وأم ، المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو
تعيين أحد الأمرين : المفرد الذي قبلها أو المفرد الذي بعدها ، والسؤال عن
ذلك إنما يكون بهمة التصور : أزيد قائم أم عمرو ؟ فالجيب بين هـ هل ،
وهـ أم ، المتصلة في مثال واحد يؤدي إلى التناقض .. ويصح اجتماع هـ هل ،
وهـ أم ، المنقطعة ، لأنها بمعنى بل ، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها ..

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحا

رحا الحرب أم اضحيت بفالج كما هي

هـ قائم ، في البيت منقطعة وقد ذكرت بعد هـ هل - كترين - والمعنى : هل
تغيرت الرحا : رحا الحرب ؟ بل اضحيت بفالج كما هي ؟ ، فهما كلامان ..

فإن وردت هـ أم ، بعد هـ هل ، وكان بعد هـ أم ، المفرد ، وجب تأويله
بالجملة وجعل أم منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر ، من ذلك ما روى
أنه صلى الله عليه وسلم قال الجابر : هل تزوجت بكرا أم ثيبا ؟ ، فالمعنى :
هل هل تزوجت ثيبا ؟ ، وإذا لو قبل في المثال المذكور : هل قام زيد أم عمرو ؟
لأن المعنى : بل هل قام عمرو ؟ لجاز ذلك وصح ...

٢ - يقيح استعمال هـ هل ، في كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر
الفعل أو المفعول على الفعل كقولك : هل زيد قام ؟ وهل زيد اكرممت ؟
ووجه قبحه عند الجمهور ، أن التقديم في هذين الحالين قد يكون الاختصاص ،

والاختصاص يقتضى وقوع النسبة والعلم بها ، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول ، وهل لا يؤتى بها لهذا ، بل هى للتصديق ، أى طلب العلم بالنسبة ، فإذا كانت النسبة معلومة ، عند دلالة التقديم على الاختصاص ، كانت هل لطلب جصول الحاصل ، وهذا عبث . . وظاهر هذا الوجه المنع ولكنهم عدوه قبيحا لاحتمال أن يكون التقديم مجرد الاهتمام بالمقدم ، لا للتخصيص الذى يقتضى العلم بالنسبة ، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم مجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب ، إذ الغالب فى تقديم المفعول على الفعل أو المستند إليه على خبره الفعل أن يكون للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة وعلى الاحتمال الثانى ، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح . . ورجع العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثانى دون الأول ، لأننا لو قلنا إن التقديم فى : هل زيد قام وهل زيدا أكرمت للاهتمام ، لم يكن هنالك وجه لعدوه قبيحا ، وإلا لازم أن يكون التقديم الاهتمام قبيحا مطلقا ولا قائل به (١) . .

وأما قولك : هل زيدا أكرمته ؟ فهو صحيح لا قبيح فيه ، لأن الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره ، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد ، ويكون هذا الفعل مقدما على المنصوب ، وبهذا نكون هل قد وليها الفعل ، فلا قبيح . .

وبما يفتح دخول هل على المعرفة وبمدها فعل ، فإنه يفتح دخولها على التكررة المتلوة بفعل نحو : هل رجل سافر ؟ لنفس الأسباب المذكورة . . . والفتح هنا فى تقديم التكررة باتفاق البلاغيين ، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب المسكاكى ، إذ يرى أن الأصل : هل سافر رجل ، فـ رجل فاعل فى المعنى ،

إذ هو بدل من الضمير المبستقر في سافر ، وقد قدم من تأخير ، أما قولك :
هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي ، لأنه
ليس مقدما عن تأخير ، ولو تأخر لكان قاعلا في اللفظ لا في المعنى ، فلم
يتوقف الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم الاختصاص ، كما نورا في تقديم
الذكر ، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة في : هل زيد سافر ، فبيحا على
مذهب السكاكي حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص ، ولكن
هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة . . . فهل هناك تعليل آخر لهذا ؟ قبيح الجمع
عليه لا يرتبط بدلالة الاختصاص التي لم يقرها السكاكي ؟ نعم هناك تعليل
آخر - وإن لم يذكره السكاكي - يرجع إلى طبيعة هل وأصلها ، لا إلى دلالة
الاختصاص التي يحتملها التقديم ، فقد قالوا إن : هل ، في الأصل بمعنى قد ،
وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال : أهل جاء زيد . . . ومن ذلك قول خنظام
المجاشعي :

أهل عرفت الدار بالترين لم يبق من آى بها يحلن^(١)

وقول الآخر :

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل وأونا بسفح القاع ذى الأكم^(٢)

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام ، فسقطت الهمزة
وبقيت هل دالة عليه ، ولما كانت قد لا تدخل إلا على الأفعال ، كانت كذلك
هل ، التي معناها . .

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب ، وجب مراعاة معنى هل ،

(١) الثريان - بناءان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسما
بالثريين ، لأن الثمنان بن اللنذر كان يربيهما بدم من يقاتله يوم يؤسه . . انظر لسان
العرب مادة : غراس ٣٢٥٠

(٢) الأكم : الموضع الذي يكرن أعدا ارتقا بما خوله . .

الأصلي في لزوم إبلاتها الفعل ، وإن لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب ،
روعى في «هل» معنى الاستفهام الذي استمدته من الهذرة ، فجاز دخولها
على الاسم ، ولذا لا يقيح أن يقال : هل زيد قائم ؟ وإنما يقيح أو يمتنع نحو
قولك : هل زيد قام ؟ .. والفرق بين التركيبين ، أنها إذا رأيت الفعل في حيزها
تذكرت عهداً بالحى وحننت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترضى بانفراق
الاسم بينهما . بخلاف ما إذا لم تره في حيزها فإنها تتسلى عنه ذاهلة (١) ..

هذا ونجد أن ما تبعه البلاغيون واتسموا به العمل المذكورة في بيان
وجه قبحه ، نجده برد في كلام أهل النصيب من الشعراء ، كما في قول
عائقة الفجول :

هل ما عدت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نألك اليوم مبروم
أم هل كبير يكى لم يقض عبرته إثر الاحبة يوم البين مشكوم

وقول ابن الرومى في رثاء ولده :

هل العين بعد السمع تسقى مكانه أم السمع بعد العين يهدى كما تهدي

بل نراه قد ورد في آى الذكر الحكيم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ؟ .. » (٢) ، ولهذا كان ينبغي ألا يضاف البلاغيون تلك التراكيب
بالقيح ، بل الأول أن يقال : إنها قليلة ونادرة ، فإنه إذا جاز أن نصف ما ندر
فروده على السنة البشر بالقيح والكدارة ، فلا يجوز أن نطلق ذلك على ما ورد
في القرآن الكريم . بل ينبغي الاحتراس وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن
مثل هذه الأوصاف (٣) .

(١) أنظر للطول ص ٢٢٩

(٢) سورة طه آية ٣

(٣) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٧

ومن خصائصه هل ، أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال ، ولذا لا يجوز أن تقول : هل يقوم زيد الآن ، لأن في ذلك تدانعا في بناء الجملة ، إذ هل ، تمحضها للاستقبال والتقييد بلفظه الآن ، يجعلها للحال ، وكأنك تقول : هل يقوم بعد الآن ، ثم تقول : الآن ، وهذا تناقض واضطراب وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال ، كقولك : هل تسي إلى صاحبك ؟ إذا دل الحال على وقوع الإساءة ، ولهذا لا تقع هل موقع الهمزة في مثل قوله تعالى : « أَنْزِلْ مُكُتُّوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ »^(١) ، وقوله عز وجل : « قَالَ أَتَعْجِدُونَ مَا تَنْحِتُونَ .. »^(٢) ، وكل ما دل فعله على الحال . .

وهذا الذي قاله اللاغيون تراه منخرما ، إذ نجد في كثير من آيات الذكر الحكيم دخول هل على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال . . تأمل الآيات السريفة : « هَلْ تَنْفَعُونَ مِمَّا إِيَّاهُ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ .. »^(٣) .. « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا .. »^(٤) .. « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. »^(٥) .. « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .. »^(٦) « وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَمِّينِ وَبُورَتْ الْبَلْجِيمُ لِلْغَاوِينَ وَفِيلَ لَهُمْ : ابْنُ مَا كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِتُونَ ؟ فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ .. »^(٧) .. « قُلْ تَرَى أَعْمَى مِنْ

(٢) - سورة الصافات آية ٩٥

(١) - سورة هود آية ٢٨

(٤) - سورة التوبة آية ١٢٧

(٣) - سورة المائدة آية ٥٩

(٦) - سورة مريم آية ٩٨

(٥) - سورة الفرقان آية ١٦

(٧) - سورة الشعراء آية ٩ - ٩٤

بأقْيَر ؟ ^(١) ، فبإمعان النظر في هذه الآيات الكريمة ، وغير ما كثير نجد أن المضارع بعد د هل ، قد أريد به الحال ، ولم تتمحض دلالة للاستقبال .. ولذا كان ينبغي ألا يبنى ذلك على القطع والإطلاق ، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلا : إن د هل ، إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه - غالبا - يراد به الاستقبال ، وقد يراد به الحال ، أما القطع بأنها تتمحضه الاستقبال ، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التي أشرنا إليها ^(٢) ..

وعما تقدم يتضح لك أن د هل ، لها مزيد اختصاص بالافعال ، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية :

١ - أنها في الأصل بمعنى دة ، وقد لا تدخل إلا على الافعال ، فكذلك ما هو بمعناها ..

٢ - تأثيرها في بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه .. غالبا - للاستقبال ..

٣ - اختصاصها بطالب التصديق وهو إدراك النسبة ، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعاني لا إلى الأفراد ، أي : إلى الفعل دون الاسم ؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذي هو جزء من مفهوم الفعل ، إذ الفعل حدث وزمن ..

ولكون د هل ، لها مزيد اختصاص بالافعال ، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لفسحة بلاغية .. وهي أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذي هو مفاد الجملة الفعلية ، أو يجعل ماسيوجدا باعتبار د هل ، تخلص المضارع في الغالب للاستقبال ، في معرض المكان الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية ، اهتماما بشأنه واعتناء بأسره . وذلك بناء على قول البلاغيين : إن الجملة الفعلية

(١) سورة الحاقة آية ٨ .

(٢) انظر أساليب الاستفهام في القرآن ص ٩٤

تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام. تأمل قوله تعالى :
 « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ
 شَاكِرُونَ ؟ »^(١) ، وقوله عز وجل : « قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »^(٢) ؟ نجد أن قوله : « هل أنتم شاكرون »
 « هل أنتم مسلمون » أدل على طاب حصول الشكر والإسلام من قولك :
 « هل تشكرون ؟ » « هل تسلمون ؟ » أو « هل أنتم تشكرون ؟ » « هل أنتم تسلمون ؟ » وذلك
 لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية ،
 ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد في معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على
 الاهتمام بشأنه وكال العناية بحصوله من إبقائه على أصله .. وكذا من قولك :
 « أنتم شاكرون ؟ » « أنتم مسلمون ؟ » ، وإن كانت صيغته للثبوت - كما نرى - ،
 لأن « هل » نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة ، فترك معها أدل على كمال
 العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه ...

ولهذا قال البلاغيون : إن قولك : « هل زيد منطلق ؟ » أقوى دلالة على
 طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن نقول : « زيد منطلق ؟ » ..
 وقالوا : إن العدول عن الهمزة إلى « هل » في مثل هذا المثال ، لا يحسن إلا من
 من البليغ . لأنه هو الذي يلتفت إلى تلك الدقائق ويراعى هذه النكات
 البلاغية وبقدر على تطوير الكلام وتكليف العبارات وصياغتها على حسب
 ما يقتضيه المقام ..

ومن الفروق الدقيقة بين الهمزة و« هل » : أن الهمزة لا يستفهم بها حتى
 يمحس في النفس إثبات ما يستفهم عنه ، فأنات لا نقول : « جاء عمرو ؟ » إلا ولديك
 شعور قوى بمجيئه ، أما « هل » فلا يترجح فيها الإثبات ولا النفي ، فعندما نقول : « هل

- ١٣٣ -

جاء عمرو؟ لا يكون لتبدك ترجيح لمجئته أو عدم مجئته ، فالنسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل لإثباتها ووفرعها ، ويكون عنده هـ اجن قزية ترجح الإثبات على النفي ، أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها لإثبات ولانفي (١) .

وبقية أدوات الاستفهام للتصور لحسب ، فيسأل بها عن معانها ، ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه ، وإذا لا يلتزم في بناء الجمل معها سوى الضبط العام في النظام الإعرابي لصياغة الجمل ، مع مراعاة تصدير تلك الأدوات ، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغى مراعاتها ، كما هو الحال بالنسبة للهمزة ود هل ..

فن : يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم ، كقولك : من عندك ؟ من فتح بلاد الأندلس ؟ فيقال في الجواب زيد والقائد البطل طارق بن زياد .. ولك أن تقول في جواب الأول العالم الصادق .. وفي جواب الثاني : القائد البطل الذي لا تخفى على أحد بطولاته وتفانيه في نشر دين الله .. أى أن الجواب يكون إما بذكر الدات المستفهم عنها ، وإما بذكر الأوصاف الخاصة بالمستفهم عنه ، المشخص له ..

ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .. » (٢) ، فقد أحاب موسى - عليه السلام - ببيان الصفات الخاصة برب العزة المفرد بها سبحانه وتعالى .. وانظر في قوله عز وجل : « قَالُوا : مَنْ قَوْلَ هَذَا بَأْسًا لِمَنْ لَمْ يَلْمِزْ أَلَّا يَلْمِزْ . قَالُوا : سَمِعْنَا نَقَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ .. » (٣) ، وقوله عز من قائل : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِقَادَةً ؟ أَوْ لَمْ

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٨٩ .

(٢) سورة طه آية ٤٩ . ٥٠ . (٣) سورة الأسماء آية ٨٨ ، ٩٠ .

يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً .. »^(١) وواضح في الآيتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات للاستفهام عنها ..

وما : يستفهم بها عن غير المعتاد ، فيطلب بها بيان اذات كقوله تعالى : « وَمَا نِلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ » قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَنزَلْتُ بِهَا عَلَيْهَا وَاهْبُتُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى .. »^(٢) ، وقوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ »^(٣) .. كما يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقوله : ما زيد ؟ فيجواب عالم أو ملوول ومنه قوله عز وجل : « مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَاكِفِينَ »^(٤) .

وقوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »^(٥) .

فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضى الاستفهام في الآية الأولى ، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية^(٦) ..

ويطلب بها أيضا لبيان الاسم نحو : ما المسجد ؟ فيجواب : الذهب .. متى : ويستفهم بها عن الزمان ماضيا كان أو مستقبلا ، كقوله : متى حضرت ؟ ومتى تسافر ؟ ومنه قوله تعالى : « وَتَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٧) .

-
- | | |
|---|----------------------------|
| (١) سورة فصلت آية ١٥ . | (٢) سورة طه آية ١٧ . |
| (٣) سورة الشعراء آية ٧٠ . | (٤) سورة الأنبياء آية ٥٢ . |
| (٥) سورة الشعراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ . | |
| (٦) إرجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٣٠٦ . | |
| (٧) سورة يس آية ٤٨ . | |

أيان : ويستفهم بها عن الزمان المستقبل ونستعمل في مواضع التفتيح والتهويل كقوله تعالى : « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ » (١)

أين : ويسأل بها عن المكان ، كقوله تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيَّنَ التَّفَرُّ ؟ » (٢)

كيف : ويسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّقُكُمْ .. » (٣)

أى : وتسكون بمعنى كيف كقوله تعالى : « قَالَ رَبُّ أُنَى يَسْكُونُ لِي غَلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمَرَ ابْنِي عَاقِرٌ » (٤)

ومعنى من أين كقوله تعالى : « قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا » (٥)
ومعنى متى كما في قوله تعالى : « نِسْأَوْكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » (٦) (فأنى) في الآية السكينة محتمل المعاني الثلاثة ، أى : متى شئتم وكيف شئتم ومن أين شئتم ، على أن يكون الإتيان في موضع الحَرْث ..
كم : ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ كَيْبَتُمْ فَأَلَوْا : كَيْبَتُنَا يَوْمَآ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . » (٧) ...

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد جلبت على عشارى
في رواية من نصب د عمة ، وخالة ، فدعاء : من الفدع وهو عوج
في المفصل ، والعشار : مفردهما : عشار وهى الناقة النقساء أو التى مضى
لحلمها عشرة أشهر ..

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) - سورة الداربات آية ١٢ | (٢) - سورة القيامة آية ١٠ |
| (٣) - سورة البقرة آية ٢٨ | (٤) - سورة آل عمران آية ٤٠ |
| (٥) - سورة آل عمران آية ٣٧ | (٦) - سورة البقرة آية ٢٢٣ |
| (٧) - سورة السكهف آية ١٩ | |

أى : وتستعمل في تمييز أجد المتشاركين في أمر يعبرهما ، كما في قوله تعالى :
« أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مِّمَّا مَّا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »^(١) .

ويسأل بها أيضا عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد ، وكذا عن
تمييز العاقل وغير العاقل ، فهمي تكتسب معنى ما تضاف إليه ، فتقول في السؤال
بها عن تمييز الزمان : في أى يوم عاد البطل ؟ وعن المكان : في أى مكان
تلتقى ؟ وعن الحال : على أى حال تركت أهلك ؟ وعن العدد : إلى أى عدد
بلغت دراهمك ؟ وعن العاقل : أى الرجلين أكبر سنا ؟ وعن غير العاقل : أى
جواد امتطيت ؟ . .

تلك هى معاني أدوات الاستفهام وهى وإن كانت لا تخلو من فوائد
ودقائق واعتبارات بلاغية ، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة وهل ، إلا أن
جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعاني البلاغية التى يفيدها أساليب الاستفهام ،
فتعالوا ننظر فى هذه المعاني البلاغية .

المعاني البلاغية للاستفهام : يفيد الاستفهام كثيرا من المعاني البلاغية ،
كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتهكم والتحقيق ونحو ذلك ، وكثير
من البلاغيين وبخاصة المتأخرون منهم يطلقون على هذه المعاني : « المعاني
المجازية للاستفهام » ، ونحن لانوافقهم على هذه التسمية ولا نرتضى هذا
الإطلاق ولا نقر أن تلك المعاني معاني مجازية ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام
على تلك المعاني ، وإنما يبنوا أنها معان تستنبط من سياق الكلام والوقوف
على قرائن أحواله ، أما وجه الدلالة ، فقد شاع الحديث عنها بين المتأخرين
الذين تسكفوا وأمرقوا فى التقاط العلاقات بين المعنى الأصلى للاستفهام
والمعاني البلاغية التى يفيدها ، وقد اتعبوا أنفسهم وأنعبوا الدارسين معهم فى

محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعاني دون أن يصلوا إلى شيء مقنع... (١)

٢ - أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقيا عند إفادة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية ، ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أدائها بطريقة المعمودة ، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات ، ولذا يذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» عند حديثه عن الآية الكريمة : « كَيْفُ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتْرَابًا فَأَحْيَاكُمْ » أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التمعجب فلم يعد استفهاما محضاً ، بل صار استفهاماً غير محض (٢) ... وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقيا عند إفادة الأسلوب لمعنى التمعجب .

ويقول عبد القاهر بعد ذكره الجملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام : « واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإينكار ، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيتمخبل ويرتدع ويعي بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، وإذا ثبت على دعواه قبل له : « فافعل » فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جور وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبنخ على تمنته وقيل له : فأرنا في موضع وفي حال وأقم شاهدا على أنه كان في وقت ، ولو كان يكون للإينكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر ، لكان ينبغي ألا يحى فيها لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه . كقولهم : أنصعد إلى السماء ؟ أنستطيع أن تنقل الجبال ؟ إلى رد ماضى سبيل ؟ ، ولذا قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له

(١) إرجع إلى البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ص ٣٠٢ .

(٢) إرجع إلى معاني القرآن ١/ ٢٣ .

إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعى هذا الحال ، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع . . . (١)

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يقال باقيا فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير ، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه . . . كما في الأمثلة التي ضربها عبد القاهر . .

٣ - عندما ننظر بإمعان إلى تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام لا نستطيع أن نقول: إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحدا كالتعجب مثلا ، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي . . تأمل الآية السابقة « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتْمُونَ أَوْ إِنَّا فَاحِشًا لَّكُمْ » (٢) تجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد ، وغير ذلك من المعاني التي تنبعث من الأسلوب وتشع منه . . . فلو قلنا إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب ، فكيف أو فاذا نقول في إفادته لبقية المعاني التي أفادها . . ؟

٤ - أن المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعاني وجدوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز ، تراهم مترددين ، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون ، فهم يذكرون وجوها من الاحتمالات ، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابا منه ، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلا في قوله تعالى : « مَتَى تَعْبُرُ اللَّهُ » (٣) هي الزرومية ، فهو مجاز مرسل علاقته الزوم من استعمال المألوف في اللازم ، لأن السؤال عن الشيء يستلزم الجهل به ،

(٢) سورة البقرة آية ٢٨ .

(١) دلائل الإعجاز ١٥١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ .

والجهل به يستلزم كثرته عادة أو ادعاء ، وكثرته تستلزم بعدد من الإجابة عن
 زمن السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء . . . هكذا يبحرون في النقاط والناس
 تلك العلاقات . . . وليت وراء هذا الإبحار صيدا يشجع النفس ويمتصها ويربي
 فيها ملكة التدقيق ، إنه ليس وراءه إلا التعب وكرد الذهن بلا فائدة مرجوة ولا
 ثمرة مدققة . ثم تراهم إذا نجحوا عن الوصول إلى علاقة بين طالب الفهم
 والمعنى الذي هم بصدد الحديث عنه ، تراهم يقولون : إن المعنى هنا يفاد عن
 طريق البكناية أو عن طريق مستتبعات التراكم (١) .

فما كان أخرى هؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التي أشرفنا
 لإيها عند البقاء ، وعد القاهر ، وأن يدعوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه
 المعاني وشأته وصار بإفادته لها استفهاما غير محض ، إذ اتبنيه وإيقاظ
 المخاطب وحشه على التأمل الذي هو لب الاستفهام ، لا يفارقه عند إفادة تلك
 المعاني . . . وهذا هو الذي نراه وتدعو إليه . . . ندعو إلى تأمل هذه المعاني
 في سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة ، والوصول إليها عن طريق تأمل السياق
 وبإمعان النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله وإيماءات تراكيبه . فهذا هو الذي
 يربي وينمي ملكة التدقيق لدى الدارس . . . فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية
 التي يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندركها وتدركها من خلال السياق وما ينوب به .

١ - معنى الاستبطاء : تأمل قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ
 وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَنْثَبَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ
 وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : «تَقَىٰ تَعْمُرُ اللَّهُ؟» (٢)
 الخطاب في الآية الكريمة للصحابه رضوان الله عليهم . والمعنى : أحسبتم أن
 تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص ، وقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢/٢١١ والمطول من ٢٢٥ .

(٢) - سورة البقرة آية ٢١٤ .

فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديدا ومستمهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه - لشدة ما حل بهم ونزل - متى نصر الله؟ فقد استطلوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر وسر التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء. هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فبما نزل وحل .. ولا يخفى عليك ما للسياق في الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القتاتلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جماتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذي طال انتظارهم له .. ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحرج وأنت صائم . متى يؤذن لصلاة المغرب ؟ . أنت لا تجهل موعد الأذان والإفطار ولكم تصور حالتكم وطول انتظاركم وترقبكم لهذا الوقت وتدعو المظلم ليشارك ما تعاني منه وتطلع إلى تفرجه ومثله قولك وقد طال انتظارك لقطار: متى يصل القطار؟ وقولك لصاحبك دعوه كثير الحضور وهو يماطل ويتأخر ولا يحجب دعوتك : كم دعوتك ؟ فأنت تستبطن إجابته وتحثه على مراجعة نفسه ومعرفة قصيره وخطئه ومنه قول المتنبى :

حتام نحن نسارى النجم في الظلم وما سراه على خف ولا قدم

نسارى : من السرى وهو السير السري . لا ، يقول : إلى متى نسرى مع النجم في الليل ، وهو لا يسرى على خف كالإبل ولا على قدم كالناس فهو لا يتمتع مثلنا ومثل مطايانا ، فالمتنبى لا يسأل من الزمان ، ولكنه يستبطن مجيء هذا اليوم الذي ينزل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته ومثله قول البهاء زهير :

أمر لاى إنى فى هـواك عذب وحاتم أبقى فى العذاب وأمك
فم يستبطنه ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص بما يمانيه . .

٢ - الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى الاستبعاد وهو وعد الشيء بعيدا ، . الفرق بينه وبين الاستبطاء : أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع ،

أما الاستبطاء فتمتدحه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه وبجيبته ومن الاستفهام الذي جاء مفيداً الاستبعاد قوله تعالى : « فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »^(١) فالكفرة يستبعدون البعث وبذكرون وقوعه ، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التي طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير : أنه متى إذا كنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد ، وكانهم يريدون أن يظل البعث هكذا سواء أثاروا تعجباً مقاماً يسأله كل كافٍ ويتعجب من وقوعه كل جاحد عنيد . . . ومنه قوله تعالى : « أَأَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا مَحْجُونٌ »^(٢) والمعنى : من أين لهم الذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق وقد جاءهم رسول بين الحق فأعرضوا عنه وانهموه بالجنون ، يريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب . . . هيئات هيئات لقد مضى وقت الذكر والاعتبار . . . وفي ذلك إثارة لخولاء الكفرة وتلميح إلى ما هم فيه من غلبة وعناد ومكابرة وحث لهم على قبول الهدى والانصياع للحق . . . ومن ذلك قول أبي تمام :

من لوى بإنسان إذا أغضبتْ وجهتْ كان الحلم ردة جوابه

فهو يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة الاحتمال . . . وتقول : لقد صرنا في زمن أغبر ، أكثر فيه الظلم واعتداء القوى على الضعيف ، صار الناس يظلم بعضهم بعضاً ويا كلون أموالهم بينهم بالباطل . . . فمن يتقى الله اليوم في اليتيم ؟ ومن يساعد المسكين ؟ ومن يعيد الناس للانصياع إلى الحق المبين ؟ فأنت تستبعد أن يوجد في هذا الزمان الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامى والمساكين . . .

٣ - التحسر : ويرد الاستفهام مراداً به معنى التحسر والتألم وذلك

(٢) - سورة الدخان آية ١٣، ١٤ .

(١) - سورة ق آية ٢، ٣ .

في مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاتته . .
تأمل قول حافظ إبراهيم في وصف حريق :

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

فهو يتحسر ويتفجع هؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأنى
الحريق على ما يمكن من متاع وماوى فباتوا هم وأهلهم في العراء ، وقد لجأ
الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلمب الناس ويشير حميتهم لمساعدته المصاب
لتبديد ما ألم به وأصابه . . وانظر إلى قول البارودي في رثاء زوجته :

يادهر فيم فجعتني بحليلة كات خلاصة عدتي وعنادي
إن كنت لم ترحم ضغاي لبعها إلا رحمت من الأمى أولادي

نراه حزينا متألما لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره في أسلوب استفهامي
ليلمب الناس ويشيرهم إلى مشاركة حزنه وألمه .

ومن ذلك قوله تعالى : « فَأَذَا بَرَقَ الظَّهَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمُوعُ
الشُّعْبِ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْفِرَّةُ » ^(١) فلاستفهام في الآية
يفيد تحضر الإنسان وندمه على ما فاتته في الدنيا واستعباده للفرار في ذلك اليوم .
« كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » ^(٢) .

٤ - المعجب : تأمل قوله تعالى : « وَتَنَقَّدَ الطَّيْرُ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى
الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ » ^(٣) فسلجان - عليه السلام - لما تنقذ الطير
ولم يجد الهدى تعجب : كيف لا يراه وهو لا يغيب إلا بإذنه ولذا توعدده
بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا اسباب قوى يدعو إليه : « لَأَعَذَّبَنَّ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ^(٤) ، ومثله

(٢) سورة القيامة آية ١١ ، ١٢

(٤) سورة النمل الآية ٢١

(١) سورة القيامة آية ٧ - ١٠

(٣) سورة النمل الآية ٢٠

قوله عز وجل : « قَالَتْ : يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟
إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .. » (١)

فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق ،
ومن وراء إسحاق يعقوب ، كيف ولد وهى عجوز وقد عاشت حياتها عقيماً ،
وهذا بعلمها قد صار شيخاً ، إنه لامر عجيب ولذا تساءلت الملائكة متعجبة
من تعجبها : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ .. »

ومنه قول المتنبي فى وصف الحى :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام ؟
فمؤ يتعجب من الحى ، كيف وصلت إليه ، إلى الرغم من نزاحم الشدائد
حوله وتسكالها عليه ..

٥ - التنبيه إلى ضلال : كما فى قوله تعالى : « فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » (١) ، فهو تنبيه لسكرانة إلى خطأ ما يقولون وضلال
ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله ، ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل
سياق الآيات السكرية : « فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِي الْكُنُوسِ وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي
الْعَرْشِ مَسْكِينٍ مُّطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ
بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ » فقد أقسم سبحانه وتعالى بالجوامع الدالة على قدرته
فى أحوال ظهروها واختفائها ، الخنوس . الجوارى . الكنوس ، ثم أقسم
بالليل يقبل بظلامه ، والصبح الذى يبدد ذاك الظلام ، إن القرآن لمن هدى الله
نزل به رسول أمين على صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وآثر التعبير

بالصاحب ليلفتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو جادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالافق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يرضى بها عليكم، .. لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأير تذهبون بعد ذلك عنه إلا إلى ضلالات وعتاهات؟ فجاء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التعليلية ينبه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقتل على الحق ويتخلى عن الضلال والعتاد.

٦ - التهويل : كما في قوله تعالى : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ »^(١) ، « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ »^(٢) ، « كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ .. »^(٣) فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة ، ويصور ويبرر فظاعة العذاب وشدة ..

٧ - الوعيد والتهديد : كقوله لمن يسئ إليك : ألم أؤدب فلاناً ؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته ... ومنه قوله عز وجل : « قِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَقُصُّ بِالْمُجْرِمِينَ .. »^(٤) ولا يخفى عليك ما يفيد الاستفهام من توعده للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب ..

٨ - الأمر والحث على الفعل : كما في قوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ »

(١) سورة الحاقة آية ١ - ٣ . (٢) سورة القارعة آية ١ - ٣ .

(٣) سورة المدثر آية ٥ . (٤) سورة المرسلات آية ١٥ - ١٧ .

مُسْلِمُونَ»^(١) ، وقوله تعالى : «وَأَقْدَرُ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ قَمَلٍ مِنْ مُدَّ كَرٍ؟»^(٢) ، وقوله عز وجل «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ؟»^(٣) ، وقوله تعالى : «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَالتَّيْبِيرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ قَمَلٍ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟»^(٤) وقوله : «مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ؟»^(٥) . . فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر ، وقد جاء في صيغة الاستفهام ، لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثا له على الاستجابة وقبول الأمر . .

٩ - التقرير : وقد باتى الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو بمعنى التحقيق والإثبات ، فمن الأول قوله تعالى : «فَالْوَا : أَنْتَ قَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْفَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟»^(٦) فهم يريدون حمله على الإقرار ، الاعتراف بالفعل ، وعندما يكون التقرير بالهمزة ينشئ ان يابها ما محل المخاطب على الإقرار ، فهم هنا يقررونه بالفاعل ولذا أجابهم : «بَلْ قَعَلْتُ كَيْبَرُكُمْ هَذَا» ، ومثله قوله تعالى : «أَأَنْتَ قَعَلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟»^(٧) فهو تقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام من هذا الحكم ، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول ، وفيه توبيخ وتنبهت لمن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله . . . ومثله قوله تعالى : «أَلَمْ رُبَّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟»^(٨) فالمراد بالاستفهام : تذكر موسى - عليه السلام - بنشأته وتربته فيهم وحمله على الإقرار بذلك ، أملا من فرعون في أن يقلع

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) سورة هود آية ١٤ . | (٢) سورة القمر آية ١٥ . |
| (٣) سورة آل عمران آية ١٩ . | (٤) سورة المائدة آية ٩١ . |
| (٥) سورة الحاد آية ١١ . | (٦) سورة الأنبياء آية ٥٢ . |
| (٧) سورة المائدة آية ١١٦ . | (٨) سورة الشعراء آية ١٨ . |

ويكف عما جاء به من قبل الله، ولكن أنى له ذلك، وموسى رسول رب العالمين.
ومن الثاني: «ألم يجدك يتيماً فآوىٰٓ» وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . . .^(١)
«ألم نشرح لك صدركَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ . . .»^(٢) «ألم يجعل
كبدَهم في تضليلٍ . . .»^(٣) «هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم
يكن شيئاً مذكوراً؟»^(٤) ، فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى
التحقيق والإثبات، وبحسب التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه المخاطب
وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله . . . ومنه قول جرير في مدح بني أمية :

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام
يلير شد وينبه إلى فضلهم وسبقهم إلى العلاء .

١ - الإنكار : والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى
الإنكار، ويلها دائماً المستفهم عنه سواء كان الاستفهام مجرد طلب الفهم
أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام مع
الهمزة . . . والاستفهام الإنكاري، يرد على نوعين : إنكاري توبيخي
وإنكاري تكذيبى . . .

فالأول : إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي بمعنى ما كان ينبغي
أن يقع ، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل بمعنى ينبغي ألا يكون ،
فالإنكار أو النفي في التوبيخ موجه إلى الابهاء والمعنى : ما كان ينبغي في
الماضى ، وينبغي ألا يكون في المستقبل . . . تأمل قوله تعالى : « أَكْفَرْتُمْ
بِاللّٰهِ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا »^(٥) ، فالمعنى :

-
- | | |
|-----------------------|--------------------------|
| (١) سورة الضحى آية ٥ | (٢) سورة الفرج آية ١ - ٢ |
| (٣) سورة الليل آية ٢ | (٤) سورة الإنسان آية ١ |
| (٥) سورة الكهف آية ٣٧ | |

ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله وسواك وأنعم عليك بالنعم التي
تباهى بها وتفخر .. ومثله قوله تعالى : « هَلْ عَمِلْتُمْ مَا كُنتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ »^(١) وقوله تعالى : « أَتَدْعُونَ بَشَلًّا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ »^(٢) فالاستفهام في الآيتين للقوي يخ على أمر واقع
والمراد : ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع .. ومنه قول امرئ القيس :
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهمما تأمرى القلب يفعل

والمعنى : ما كان ينبغي أن يفرك حيي لك ، وتنتقدى أنى أصبحت متبها
في هالك ، أفعل ما تأمرين به .. وتقول : أصبحت ربك .. الذبت
جارك .. أهملت في راجباك ؟ أى : ما كان ينبغي أن يقع هذا منك ..
ولذلك نشعر بما في بيت امرئ القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في
التعبير من إبحاز وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام ، فهو يستفهم عنه
ولا يفصح بإظهاره ووقوعه .. ونأمل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا الْكَافِرِينَ وَلَا لِيَائِيْنَ دُونِ اللَّهِ مَن يَتَّبِعِهِمْ يَنصُرُوا أَنْ تَتَّبِعُوا لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ؟ »^(٣) نجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي
غير واقعة ، بل يحتمل وقوعها في المستقبل والمراد : لا ينبغي أن تكون
هذه الإرادة .. وتقول : انتهى ، بل .. أنؤذي أباك .. أنسى إحسان
فلان .. أخرج في هذا الوقت ؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل
عليه حتى يرتدع عنه ، فالمعنى : لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال ..

والثاني : وهو الإنكار التكذيبي ، ويسمى أيضا بالإنكار الإبطالي ،
إذا كان التكذيب في الماضي ، كان الاستفهام بمعنى : لم يكن ، وإذا كان في
المستقبل كان بمعنى إن يكون .. نأمل قوله تعالى : « أَفَأَصْنَأُكُمْ رَبُّكُمْ

(٢) - سورة الصافات آية ١٢٥ .

(١) سورة يوسف آية ٨٩ .

(٣) سورة النساء آية ١٤٤ .

بِالْبَيِّنَاتِ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ لَبِيبًا إِنَّا أَنَا بِكُمُ اتَّخَذُونَ قَوْلًا عَجَيبًا . (١)
تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم ، وإبطال ما قالوه ، والمعنى : لم يكن
من الله تعالى اصطفاء ولا اتخاذ . ومنه قول امرئ القيس
أبقتلني والمشرقي مضاجعهم مسنونة زرقى كأنباب أغوال

فهو يكذب لإنسانا نوعده بالقتل وينسب أن يقع منه ذلك والمعنى : إن
يكون هذا القتل . وقرأ قوله تعالى : « قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ
عَلَىٰ يَمِينِهِ مِن رَّبِّي وَأَنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ سَيِّدِهِ فَمُتَّيْتُ عَلَيْكُمْ أُنْذِرُ مَسَكُوتُهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ » (٢) ، فالمراد : أنجبركم ونسركم هم على الاعتداء بها ،
والمعنى : لن يكون ذلك الإجمار إذ لا إكراه في الدين . . . وتقول : أيرسى
عذك ربك وانت مقبم على عصيانه ؟ أى : لن يكون هذا
ومنه قول الشاعر :

أترك إن قلت دراهم خالدا زارنه ؟ إن إذا للهم
أى : لن يكون ذلك منى . .

هذا وموضع الإنكار - كما مر بك - هو ما بلى الهمزة ، تقول في إنكار
الفاعل : أأنت تقدر على هذا ؟ أأنت تسمى حتى ؟ تريد : لن يكون هذا منك ،
ولن تستطيعه فاست له أهلا . . وتقول في إنكار المفعول : أعمرا أعمت ؟
بمعنى لم يكن ذلك . وتأمل قوله تعالى : « قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَابِعًا » (٣) . .
« قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » (٤) فالمعنى على إنكار أن
يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا أو يغى ربا . . وتقول في إنكار الفعل :
أؤذى أباك . . ؟ ومنه قوله تعالى : « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . » (٥)

(١) سورة الإسراء الآية ٤٠ (٢) سورة هود الآية ٢٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤ (٤) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

وقوله عز وجل : « أَنْتَبِهُ لَوْنِ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ... »^(١)
 والمعنى : ينبغي ألا يقع هذا .. ونقول : انفتاني ؟ والمعنى ان يكون ذلك
 منك ، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل لإنكار آتسكانه بيباً ...
 وقد يكون الإنكار للفعل ويل الهمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل
 عدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه فبلى الهمزة أو بهطاف على ما وثقها
 بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل : أنى ليل وقع هذا أم فنهلوا ؟
 منكر الوقوع ، لأن الفعل إذا نفي فاعله أو مفعوله أو محله كما في انشقه
 الذى ليس له غيره ، لزم من ذلك انتفاء الفعل ، وهذا أبلغ في إنكار الفعل
 وانتفائه ، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية والاروم ، فهو بمنزلة دعوى
 بدليها . . . وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع
 الهمزة فعند إليها هناك ..

١١ - النفي : وقد يأتى الاستفهام بمعنى النفي ، كما في قوله تعالى :
 « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »^(٢) والمعنى : ما جزاء الإحسان إلا
 الإحسان ، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل ، ولكن فرق بين الدلالة
 عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي الممهور ، إن في الاستفهام تحريكا
 للفكر ، وتنبيها للعقل وحثا على التنبه والتأمل .. وهذا هو الفرق بين
 النفي الصريح وبين النفي بن طريق الاستفهام ... انظر إلى قوله تعالى :
 « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا
 يَقُولُونَ بِآلِيتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَمْلِكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
 إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ؟ »^(٣) ، فالمعنى لا محالة :
 لا أحد يملك لكم من الله شيئا ، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها

(٢) - سورة الرحمن آية ٦٠

(١) سورة البقرة آية ٦١ .

(٣) سورة النج آية ١١

تذنيه لخلوة المخلدين وحث لهم على تدبر أحـ والهم ومراجعة أنفسهم
والانقياد للحق واتباع سبيل الرشاد .. وكذا القول في الآيات الكريمة :
« وَمَنْ أَظْلَمُ يَمُنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَمَى فِي
خَوَاطِئِهَا ۚ » (١) . . . « وَمَنْ أَظْلَمُ يَمُنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » (٢)
« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَكَاةً مِنْ شَرَارٍ بَلَغَ قَوْلُ بِهَلكُ إِلَّا النَّوْمُ
الْفَاسِقُونَ » (٣) . . . فالدلالة على النفي بالاستفهام في الآيات الكريمة
تتمايز عن الدلالة عليه بطريقة المعمود ؛ إذ النفي الصريح خال من التحريك
والتذنية وإثارة المشاعر ، أما الاستفهام ففيه بحث على الدار والتأمل وحث
على التفكير والتدبر حتى يتبين المخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد ..
وعد لإدالة الاستفهام على الإنكار ونأمل فرق ما بين قولك : أتؤذي
أباك ؟ تنسى إحسان فلان ؟ وبين قولك : لا ينبغي أن تؤذي أباك ..
لا ينبغي لك أن تنسى معروف فلان ، فتحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا
المعنى إلا أن هناك فرقا جوهريا يمتاز به الاستفهام الإنكارى عن النفي
الصريح وهو أن في الاستفهام إغراء لمن تخاطبه كي يقلع عما فعل أو سيفعل
وعما اعتقد أو يعتقد ، حيث لم تواجهه صراحة بالنفي أو التكذيب ، كما أن
في الاستفهام تحريك التفكير المخاطب وتذنيه له ودعوى كى يتأمل ويتدبر
ويعيد النظر فيما فعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقطع عن
الباطل و"ضلال ..

ومن الاستفهام الدال على النفي قول البحترى :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها

(٢) - سورة العنكبوت آية ٦٨

(١) - سورة البقرة آية ١١٤

(٣) - سورة الأحقاف آية ٢٥

فالشاعر أراد بالاستفهام أن يبحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه الحقيقة الواقعة ويعبها فذكره ، وهي أن الدهر ليس إلا شدة سرعان مائهجلى ، وضيقا يعقبه فرج ..

ومثله قول الآخر :

هل الدهر إلا ساعة ثم تنقضى بما كان فيها من بلاء ومن خفض ؟
١٢ . التشويق : وقد يأتي الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته كما فى الآيات الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُخْرِجُونَ مِنْ ذُنُوبِكُمْ فَأَلْبِسُوا^(١) »
« قُلْ أُو۟سِّبُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ^(٢) » .. « قُلْ إِنَّا كَـٰذِبُونَ^(٣) »
« قُلْ إِنَّا نَدَّأُهُ رَبَّنَا بِالْوَإِدِ الْمُتَّقِينَ^(٤) » .. « قُلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ وَأَهْلِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَعْلَمُونَ^(٥) » ، ولا ينبغي عليك ما فى الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب ، فهو يفكر فيه وينشغل به وينتظره فى ترقب وتطلع وعندئذ يأتي الجواب فيقع فى نفس المخاطب موقعا حسنا ، لأنه نجاة والنفس مهابة له فتملأه إلى معرفته ... إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التي يفيد بها الاستفهام ، فهى أكثر من أن يحاط بها ، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أجواله ، والمعول عليه فى ذلك هو سلامة الذوق وتبع التراكم الجيدة ، ولا ينبغي أن تقتصر فى ذلك على معنى سمته أو مقال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية واقفه المادى^(٥) ..

(٢) سورة آل عمران آية ١٥

(١) سورة الفاتحة آية ١٠

(٤) سورة النازعات آية ٢٨

(٣) سورة النازعات آية ١٥ ، ١٦

(٥) انظر المطول من ٢٣٩

ومنها بالإضافة لما سبق، دلالة على التعظيم . . كما في قول المتنبي :
 من للمحافل والجحافل والسرى فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
 فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله وأن المحافل وهي المجامع
 والجحافل وهي الجيوش والسرى أى السير ليلاً والزحف إلى الأعداء ، هذه
 الأمور قد فقدت بفقدته نيراً لا يطلع . . ومثله قول الآخر :

أضاعوني رأى فى أضاعوا ليوم كربهة وسداد ثدى

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته ، ولا يخفى
 عليك ما فى البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقدته المحافل والجحافل ،
 وإضاعة القوم لغتهم المغوار . . . ومنها التحقير ، كما فى الآيات الكريمة :
 « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ؟ ^(١) »
 « وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا : أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ^(٢) »
 « أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ ^(٣) » . . . وكما فى قول الشاعر :

تقول وقد دنت نحرها بيمينها أبعل هذا بالرحا المتقاعس

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضارى أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

ومنها التهمك ، كما فى قوله تعالى : « قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتَكَ تَأْمُرُكَ
 أَنْ تَنْتَهِكَ مَا يَنْهَى آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَنْتَهِلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ^(١) » فهم
 يستخرون منه ويتهمون بما جاء به ، وقد عبروا عن ذلك بصيغة الاستفهام
 ليدلوا على ثباتهم فى الكسر ووقوفهم الصامد فى الضلال والمكابرة . . ومنها

(٢) سورة الفرقان آية ١٤

(٤) سورة هود آية ٨٧

(١) سورة الشعراء آية ٧٠

(٣) سورة الانبياء آية ٣٦

الغنى ، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول ، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار : « قَهْلَ لَمَّا مِنْ شَرْمَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . » (١) « حَلَّ إِلَى مَرَدَّةٍ مِنْ سَبِيلِ ۝ ٥٠ » (٢) . « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْفُونَ عَنَّا تَصِيبًا مِنَ النَّارِ ؟ » (٣) ، وكما هم لفرط ما هم فيه من هول العذاب صاروا يسألون غير الممكن كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعاني يستنبطها الدارس من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله ، وكثيرا ما نجد أسلوب الاستفهام يفهم بأكثر من معنى بلاغى ، تأمل قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُفُّنْ أُمُوتَانَا فَاحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّنَّ كُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٤) نجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخي ، أى : لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم . . كما يفيد التعجب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان ، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبد والعذبات والأدلة على قدرة الله ما لو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله ، فوجود الكفر منه بعد أن يدعو إلى التعجب والإنكار . . ومثله قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » (٥) فالاستفهام في الآية لإنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث الإقلاع عنه . . وخذ قوله تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ الْمَقَرُّ ؟ » (٦) نجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط والتحسر والندم ، وتتمنى الفرار من العذاب الذي ينتظره . وأنى له ذلك :

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| • (١) سورة الأعراف آية ٥٣ | • (٢) سورة الشورى آية ٤٤ |
| • (٣) سورة طه آية ١٧ | • (٤) سورة البقرة آية ١٨ |
| • (٥) سورة البقرة آية ٤٤ | • (٦) سورة لقمان آية ٧-١٠ |

« كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يُؤْتِيهِ الْمُسْتَقَرُّ » ^(١) ، وتأمل قوله تعالى :
 « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ : هَلْ مِن مَّزِيدٍ ؟ » ^(٢) فالسؤال
 الأول يفيد التقرير ، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود ونحوه
 وينبغي بمدي عظيم جهنم وشدة غضبها لكثرة هؤلاء الكفرة وتطلعها وتشوقها
 إلى المزيد منهم . . . وخذ هذه الآية . . . وقلة سرت بك . . . « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن
 تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا بَأْيَكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْجِبَّاتِ
 وَالْعُرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَحْنُ نَصْرُ اللَّهِ ؟
 أَلَا إِنَّا نَحْنُ نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ » ^(٣) فأنتم فهم الرسول ومن معه وهم صفوة الناس ،
 وقولهم وقد زلزلوا ومستهم الجبَّاتِ والضراء متى نصر الله ؟ ، يفيد تطلعهم
 للنصر وتشوقهم وتنبههم وقوعه وحلوله ، كما يفيد استبطامهم لحجته ، وهذا
 ما يصور شدة ابتلاهم وبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد أن
 يمشوا أنفسهم بمثل هذا الابتلاء ، فإن بدخلوا الجنة إلا إذا عحصوا كما عصى
 من قبلهم واختبروا كما اختبروا . . . وهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي
 يفيد الكثير من المعاني التي يستطيع أن يفهم عليها الدارس بتأمل سياقه
 وتذكر قرآن الأحوال . . .

استفهام النداء : - النداء : هو طاب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة :
 « أَدْعُو » ، والغاية منه أن يصغى من تباديه إلى أمر ذي بال ، ولذا غلب أن
 يبنى النداء امر أو نهى أو استفهام أو إختيار بحكم شرعي كما في قوله تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ . وَثِيَّاكَ فَعَطِّرْ » ^(٤) . وقوله
 تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ
 وَلَا تَمْتَدُّوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ^(٥) ، وقوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| (١) - سورة القيامة آية ١١ - ١٢ | (٢) - سورة ق آية ٣٠ |
| (٣) - سورة البقرة آية ٢١٤ | (٤) - سورة المدثر آية ١ - ٤ |
| (٥) - سورة المائدة آية ٨٧ | |

النَّحْيُ لِمَ تَحَرَّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ..»^(١) ، وقوله جل وعلا : « يَا أَيُّهَا النَّحْيُ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِمَدَنِيَّيْنِ .. »^(٢)

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة على أرجح الأقوال ، لأنه طلب الإقبال ، فهو بمعنى : « أقبل ، الأمر ، وقيل : إن دلالة على الطلب التزامية ، لأنه بمقتضى تعريفه : « طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة : « أدعو ، ليصغى إلى ما يريد المتكلم . » ، « أدعو ، فعل مضارع لا أمر ، ويمكن الدماء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب ، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية .. ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه .. والراجح هو الرأي الأول .. كما ذكرت .. لأنك عندما تقول : « يا محمد ، فإنك تطلب منه الإقبال عليك ، وكأنك تقول له : « أقبل ، بصيغة الأمر ، وليس « أدعو ، بصيغة المضارع ..

وحروف النداء هي : الحمزة رأى ويا وآى وآيا وهيا ودوا ، وأكثرها استعمالا فى نداءات القرآن الكريم هو ديا ، ..
وهذه الأدوات نوعان : ما ينادى به القريب وهو الحمزة وأى ، وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات ..

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال ، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذى لا يجاوز امتداد صوت المنادى ، ولكنهم توسعوا فيه فنادوا البعيد الذى لا يمكن أن يسمع صوت المنادى ، أو بمعنى آخر الذى لا يمكن أن يصل إليه صوته ، وجعلوا لندائه أدوات ونداء القريب أدوات - كما رأيت - . ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذى لا يصله صوت المنادى ، بل اتسع تفرقهم فى النداء فنادوا غير الحى العاقل ، كالناقة والطير والوحش ، ومشاهد الطبيعة

(٢) - سورة الطلاق آية ١ .

(١) - سورة التحريم آية ١ .

من برق وسحاب وأقار وشموس وأشجار وأرض وسما وجبال ، وفيافي وقبور وأطلال وديار ، كما نادوا أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة وويل ولذة ... ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال ، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يتصد إليها المتكلم .

قلب : إن النداء يكون بحروف نائمة ثواب كلمة : أدعو ، ، وهذه الحروف قد تذكر ، كما في الآيات التي هرت بك ، كما في قوله أحمد . . يا خالد . هيا سلمي . . وقد تحذف فتقول : محمد ، خالد . . سلمي تريد ندامهم . . وما ورد فيه حذف أداة النداء ، قوله تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . . »^(١) . . « يُوسُفُ أَيُّهَا الْعَدِيقُ أَنتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ »^(٢) . . « قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ »^(٣) فقد حذفوا أداة النداء في الآيات الكريمة وتقديرها : أيسف . . يا أيها العديق . . يا أيها المرسلون . . ومن ذلك نداء الرب في أساليب القرآن الكريم ، فلا يسكاد يستخدم حرف النداء مع الرب بل ينادى مجرداً من حرف النداء ، وأهل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه عز وجل ، كقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى . . »^(٤) وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن الكريم ، لم يعثر عليه مسبقاً بحرف النداء إلا في الآية الكريمة : « وَيَقِيلُ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَسْتَلُونَ »^(٥) . وأهل في بحىء حرف النداء مع الرب في هذه الآية بصفة خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرسول عليه السلام . وقد أفرغ نهمه في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزد ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق الهم على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلي الرب عن

(١) - سورة يوسف الآية ٢٩ (٢) - سورة يوسف الآية ٤٦

(٣) - سورة الداريات آية ٣١ (٤) - سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٥) - سورة الزخرف آية ٨٨ - ٨٩ .

نصرته بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه، كما أن في امتداد الصلة بهذا الحرف « يا » ما يذني بحالة الرسول النفسية، وكأنه وجد فيها متنفساً لإلامه وأحزانه ..

وفي نداء لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة في آخره بحرف النداء فيقال : اللهم ، بدلا من : يا الله ، ومن ذلك قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. » (١)

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادي بالهجرة رأى، لغرض بلاغى وهو الإشعار بأنه حاضر في القلب لا يغيب عن الخاطر ، حتى صار كأنه حاضر مشاهد .. ومن ذلك قول أبي فراس وهو أسير في بلاد الروم ينادى سيف الدولة :

أسميف الحدى وقريش العرب لإلام الجفاء وفيم الغضب ؟
وما بال كتبك قد أصبحت تنسكبنى مع هذى النكيب (٢)

فعلى الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهجرة ليعبر عما يضمرة له من حب ، فهو حاضر في قلبه لا يغيب عن خاطره، وكأنه مشاهد أمامه .. ومثله قول الآخر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربيع قلبي سكان (٣)
فهو ينادى سكان هذا المكان وقد عبر بالهجرة الموضوعة لنداء القريب لينبى بأنهم قريبون منه ، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله .. ومنه قول الآخر :

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٢) قريش العرب : سيدهم . تنسكبنى : تحببني والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسرته .. وكتبك بسكون التاء ضرورة : رسائله ، مردها : كتاب ..

(٣) نعمان الأراك : اسم موضع .. والربيع : المنزل ..

أبي لا تبعد وليس بخالد حتى ومن تصب المنون بعيد

فهو ينادى أيا الذي أصابته المنون فصار بعيدا عنه يناديه بالهمزة ليبر
عن حضوره في قلبه واستقراره في فؤاده . . وتقرأ مرسالة والد إلى
ولده أرسلها له من مكان بعيد فقرأه يقول : د أي بني عليك بالاستقامة
وترك المعاصي فإن العلم نور ونور الله لا يهتدى لمعاصي ، فقد عبر بأبي في
ندائه ابنه وهو بعيد عنه ليدل على أنه حاضر في قلبه لا يبرح خياله ولا يغيب
من فكره ووجدانه . .

كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بنسب الهمزة وأي لأغراض
بلاغية أهمها :

١ - الإشعار ببعد منزله وعلو مكانته ، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة
منزله البعد المسكاني ، كما في قوله تعالى : « يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنَّهُ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ يَدُ
الْرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَابِعًا » (١) فإبراهيم - عليه السلام - ينادى
أباه وهو قريب منه ، وقد استخدم د يا « الموضوع لنداء البعيد لينفي ببعد
مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه . .
وهن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول : د يا الله ، مع أنه أقرب إليك من
حبيل الوريد . .

٢ - الإشعار بأن النادى وضيع المنزلة منخط المسكانة وكأنه بعيد عن
القباب ، فينزل هذا البعد النفس منزله البعد المسكاني . . كما في قول جرير يهجو
ابن أبي خليل :

نفل الفخر يا ابن أبي خليل وأد خراج رأسك كل عام

ومثله قول الفرزدق في هجاء جرير :

أولئك آباءى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٣- التنبيه على عظام الأمر المدعوله وعلو شأنه ، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، كما فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ لَكُم مِّن رَّبِّكُمْ » (١) . ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى إلى عباده : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. يَا أَيُّهَا النَّاسُ .. يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ .. يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا .. » فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وقد جاء النداء ديباً ، الموضوعة لنداء البعيد للتنبيه على عظم الأمر الذى نودى من أجله وعلو شأنه ، وليبادر المنادى بالامتثال والاستجابة .. ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصى ابنه : « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ » (٢)

٤- أن يكون المنادى قائماً أو ساعياً ، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذى يقتضى علو الصوت ، كقولك : هيا عمرو استيقظ ، أيا خالد تنبه ولا تنسه ...

٥- الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذى يقتضى اليقظة والانتباه ، كقولك : هيا فلان تهيأ للحرب .. ومنه قول الشاعر :

يا أيها السادر المزور من صلاف مهلا فإنك بالأيام متخدع

وكان غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه نداه .. ومنه قول مرة بن بحبان السعدي مخاطب ربة بيته وينادىها :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء : - ريتي أسلوب النداء مفيداً لمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله ، فعندما تنادى القبور أو النوق أو البرق أو التعجب أو الويل ، فإنه يراد بهذا النداء ، مقاصد وأغراض يرمى إليها المنادى ، كما قد ينادى الحى العاقل لغرض آخر ، بالإضافة إلى طلب الإقبال ... وإليك أم هذه المقاصد :

١ - الإغراء : وهو الخلق على طلب الأمر الذى ينادى له ، كقولك لمن يتظلم : يا مظلوم تسلم ، فأت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار التظلم .. وكقولك لمن يتردد فى الإقدام : يا شجاع تقدم ، تریده حثه على المضى والتقدم ...

٢ - الاختصاص : وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادى أو المعرف بال أو بالإضافة أو بالعلمية ، فمثال كونه الدال على التخصيص صورته صورة المنادى قوالك أنا أفعل كذا أيها الرجل .. ونحن نقول كذا أيها القوم .. واغفر انهم لنا أيها العصابة ، فالمراد بالمنادى هو المتكلم نفسه والمعنى : أنا أفعل كذا متخصيصاً من بين الرجال .. ونحن نقول متخصيصين من بين الأنعام .. واغفر لنا متخصيصين من بين المصائب .. ولا مانع من نداء الإنسان نفسه كما فى قول عمر رضى الله عنه : وكل الناس أفة منك يا عمر ، ومثال الاختصاص المعرف بال : نحن العرب أسخى من بئذ ، وبالإضافة قوله - صلى الله عليه وسلم - : نحن معاشر الأنبياء - لا نورث ، وبالعلمية : دينا تيميا يكشف العناب ..

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير .. كما فى قوالك : أنا أفعل كذا أيها الرجل .. وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك : أنا أيها المسكين أطلب المعروف ، وإما الافتخار كقولك : نحن العرب أقرى للضيف

٣ - الاستغاثه : كقولك : يا الله . أى : اقبل علينا لإغاثتنا ..
ومنه قول الشاعر :

يا لقوى وبالأمثال قدى لئاس عسوم فى ازدياد

٤ - الندبة وهى بدء المذوجع منه أو المتفجع عليه ، كقولك يا رأساه ..
واعيناه .. واحمداه .. ومنه قول المتنبي :

واحر قلباه من قلبه شيم ومن جسمى وحالى عنده سقم

٥ - التعجب : كقولك وقد شربت ماء باردا حلوا : يا لالماء ، تريد
التعجب من برودته وحلاوته .. ومنه قول امرئ القيس :

فيالك من ليل كان نحره بكل مغار الفتل شدت يئذيل
وقول الفرزدق يهجو جريرا :

فوا عجباً حتى كليب نسبى كان أباهما نهل أو يجاشع
وقول الآخر :

فوا عجباً كيف اتفقنا فنامح وفى ومطوى على الغما ، خادر
٦ - الزجر : كما فى قول الشاعر :

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح أما ارعويت ولا اتقيت كلاماً
فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيه لعدم استجابته للنصائح وارهواته
عن هواه وصباه .. ومثله قول الآخر .

أفزادى متى الملتصاب الماء تصح والشيب فوق رأسه ، أبا

٧ - الوعيد : كما فى قول المهمل متوعدا آل بكر :

يا لبكر أنشروا لى كليب بالبكر أن أن الفرار

٨ - التنبية : وقد يأتي حرف النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف ، كما في قوله تعالى « يَا كَيْتَنِي كُفْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » (١) ، وكما في قوله صلى الله عليه وسلم : « بَارِكْ كَاسَةً فِي الدُّنْيَا عَارِيَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

٩ - التحسر والتحزن : وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك ، كما في قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا كَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى كَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلُّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » (٢) وقوله تعالى : « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ » (٣) ، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم ، وكأنه يقول : يا ويلتي . يا حَسْرَتِي أَقْبَلَا ، فهذا هو أراؤكما . وكأنه أي الكافر له ط ما هو فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويحييان فناداهما .. وهذا يفيد عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم ..

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير :
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان يوم السيل بجراه مرتعا
أيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خطت السماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف وارت جوده ولو كان حبا ضقت حتى تصدعا
ونداء الميت في قول العتيبي بن مالك :
أعداء ما للعيش بعدك لذة ولا للخليل بهجته بخليل

(١) سورة النساء آية ٧٣ .

(٢) سورة المزمل آية ٥٦ .

(٣) سورة الفرقان آية ٢٧-٢٩

أعداء ما وجدى عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بحميل

وفي قول الآخر :

دعوتك يا بنى فلم تجبني فردت دعوتي بأسا عليا

وقوله :

يادرة نزعت من تاج والدها فأصبحت حلية في تاج رضوان

ونداء المنازل والديار كما في قول الشاعر :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقول الآخر :

أما منازل مسلمي أن سلبك من أجل هذا بكيناها بكيناك

ونداء الناقة في قول حنص بن الأحنف السكاني :

نفرت قلوبهم من حجارة حرة بنيت على طاق الديدن وهرب

لا تنفري يا ناقة مني فإنه شراب خمر مسهر لحروب

ونداء البرق في قول أبي العلاء المعري :

فيا برق ليس السكر خدارى وإنما رماي إليه الدهر منذ أبال

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيثها ظمآن أيس سال

فهو راء تلك النداءات تمكن آلام الشعراء وأحزانهم وتصبرهم وكانهم
لفرط ما يجدون من الوجد والاسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر ،
أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتحيى ، وعليها أن
تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم ، فالقبر في خيال الشاعر حي يعقل
وعليه أن يجيب نداءه ، والناقة تشعر بالآلام وتفرح لفرحها ونأس لتلك
الحجارة كما أنس .. والميت في قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع نوحاته ...

والمنازل .. والبرق .. وغيرها .. تستجيب انداء المكروب وتشعر بالم
المتالم .. ووراء ذلك تمكن آلامهم وأحزاهم -م- التي تنبعث من تلك
النداءات .. وهذا هو السر البلاغى وراء نداء تلك الأشياء ...

هذا النداء يصحب - غالباً - الأمر والنهى والاستفهام ، وكأنه يعسد
النفس ويميزها لتلقى تلك الأساليب ، ولذا فهي تتقوى به ، لأن النداء يوقظ
النفس ويكلف الذهن وينبه المشاعر ، وإذا ما جاء بعد الأمر أو النهى
أو الاستفهام صادف نفساً مهيأة يقظة ، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه
بحس واع وذهن متنبه .. ولذا أكثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في
النظم الكرم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمْ .. (١) .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..) (٢) ..
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْرُجُوا طَيِّبَاتِ مَا أُخْلَ اللَّهُ لَكُمْ ..) (٣) ..
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ
أَلِيمٍ ..) (٤) ، وقد تجتمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ تَعْضِ الظَّنِّ إِنَّكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ
وَلَا يَمْتَسِبَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ أَنُحِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْمَنًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ..) (٥)

وبجد النداء في الآيات المذكورة - تقدم - تلك الأساليب وقد يتأخر
عنها ، كما في قوله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ) (٦) .

وقد تتقوى هذه الأساليب بغير النداء ، وذلك بأن يقع بعدها ما يحث

-
- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الحج آية ١ . | (٢) سورة المائدة آية ١ . |
| (٣) سورة المائدة آية ٨٧ . | (٤) سورة الصف آية ١٠ . |
| (٥) سورة الحجرات آية ١٢ . | (٦) سورة الزور آية ٣١ . |

عليها ، كما في قوله تعالى (وَصَلُّوا عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِنَّ صَلَاتَكُمْ سَكَنٌ لَهُمْ)^(١) ، فقوله :
(إن صلاتك سكن لهم) حث على الصلاة وترغيب فيها .. ومنه قوله تعالى :
(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)^(٢) فقوله : (إنهم كفروا) حث على
النهي وتنفير من الصلاة عليهم . ومن ذلك قول بشار :

بكرنا صاحبي قبل الهجر

إن ذاك النجاح في التبر

فقوله : . إن ذاك النجاح في التبر كبير ، حث على الأمر وترغيب فيه . . .

أسلوب النفي : قالوا في تعريفه هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب
فيه ، ر.ل. كنهه لا يرجى حصوله إما لسكونه مستحيلاً ، أو لسكونه بعيداً لا يطمع
في نيله . . والآداة الموضوعة له هي : أيت ، تقول في تمنى الأمر المحبوب
الذي لا طمع فيه لسكونه مستحيلاً ، لا يمكن حصوله : أيت الشباب يعوديو ما . .
ليت السكوا كب تدنوا . . ومن ذلك قوله تعالى : (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى
جِذْعِ النَّخْلَةِ قَائِلَةٌ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ تُنْبَأُ مَانِيًا)^(٣) ،
وقوله عز وجل : (يَا لَيْتَنَّا كُنَّا نَدْرِي وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ)^(٤) ، وقوله تعالى (وَرَبِّ يَوْمَ يَعْنِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ :
يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)^(٥) . . فريم تسمى أن تكون

(٢) - سورة التوبة آية ٨٤ .

(٤) - سورة الأنعام آية ٢٧ .

(١) - سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) - سورة مريم آية ٢٣ .

(٥) - سورة الفرقان آية ٢٧ .

قد ماتت قبل ذلك .. والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا يكذبوا ... والظالم يعض على يديه ندما ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سييلا ، وتلك الآفور الممتنة لا يرجى حصولها أبدا .
لكونها مستحيلة الوقوع . ومنه قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

وقول الآخر :

ليت السكراكب تدنو لي فأناظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلنى
فالأمر المتمنى في البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع .
ومنه قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمنا بعد فرقة وأدنى فؤادا من فؤاد معذب
فيا ليت أن الليل أطبق مظلما وأن نجوم الشرق لم تغرب

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه ، ولم يدع فيها مجالاً لوعى أو فكر ،
فأخذ يدعو بالسقيا ليل الذى ضمهما بهد فرقة ، ولا معنى لسقيا الليل
إلا فقدان الشاعر لوعيه وفكره . ثم أخذ يتمنى أمراً محالاً لا يرجى حصوله
وهو أن يظل الليل مطبقاً عليهما بظلامه ، وأن تبقى النجوم فلا تغرب ..
وتقول في تمنى الشئ المحبوب الذى يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه
بعد مثاله : ليت لي مالا فأحج منه ، ليتني ألقى فلانا فانتزع بعله ، والبعد
هنا بعد نفسى ، مردد إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشئ ، وقد لا يكون
بعيداً بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل ، ومن ذلك قوله تعالى :
(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)^(١) فقد تمنوا أن يكون لهم

مثل تلك السكروز التي تنزه مفاتيحها بالعصاة أولى القوة وهي أمنية محيية
لنفوسهم ، وليست مستحيلة ، بل هي ممكنة الوقوع ، ولكنهم لا يطعمون
فيها لبعده منالما .. ومنه قول مالك بن الريب :

اللايت شعري — أبيتن ليلة

بجنب الغضا أزجي الفلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد تمى الشاعر في البيت الأول أن يبيت ليلة بجنب الغضا ، ذلك الودى
الحبيب إلى قلبه ، وهذا غير محال ، ولكنه بعد المنال في نفس الشاعر الذى
أحس بدنو أجله فخاطب صاحبيه :

فيا صاحبي رحلى دنا الموت فاحضرا

برابية لذي مقيم لياليا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى وردا على عيني نضل ردائيا

ولا تحسدانى بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليأ

تذكرت من يبكى على فلم أجد

سوى السيف والرمح الردينى يا كيا

أما تنبه في البيت الثانى ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يماشى الغضا
الركاب ، فهو تمن للآمر المحال وقوعه وهذا ينبنى على مدى حب الشاعر وتعلقه
بهذا الودى .. فإذا كان الممكن يطعم في حصوله ، صار طلبه ترجيا
وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجى كامل وعسى .. ومن ذلك
قوله تعالى : (وَمَا يَذُرِيكَ أَلَهُ يَزْكِيْهِ أَوْ يَذْكُرْ فَعَفَافَةٌ الذِّكْرَى) (١) ،

وقوله عز وجل: (فَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ كَادِمِينَ) ^(١) وكون الممكن مرجوا حصوله، مطروحا فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده - كما أشرت - إلى نفس المتسكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصول مال وتوقعه وتطمع في وجوده ونبله قلت متوجها : لعل لي مالا فأحج به ، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك في نبله ، قلت متمننا : لبت لي مالا فأحج به ..

عرفت أن الأداة الموضوعة للتمنى هي دأيت ، ، وقد يتمنى بألفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية .. ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل هل وأين ومتى ، كما في قوله تعالى (قَالُوا : رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَبْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟) ^(٢) ، وقوله تعالى : (فَإِذَا بَرِقَ الْبَعَثُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ؟ . هـ ^(٣) . ويقول من وقع في شدة يستبعد زوالها : متى الخلاص ؟ ، والسر البلاغي وراء التمنى بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكنا ، فاستفهموا عنه ، ولذا فإن الدلالة على التمنى بطريق الاستفهام تبرق المستحيل - كما في الآيتين - أو البعيد الحصول - كما في المثال - في صهرة المستفهم عنه الممكن الوقوع ، وهذا ينسب بكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه ..

وقد يتمنى بلو كما في قوله تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ

(١) سورة المائدة آية ٥٣ .

(٢) سورة غافر آية ١٩ ،

(٣) سورة القامة آية ٧ - ١١

اتَّبِعُوا وَرَآءَ الْعَذَابِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا :
لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبِعُ لِمَنْهُمْ كَمَا تَبَيَّرْنَا بِمَا (١) ، وقوله تعالى : (أَوْ تَقُولُ
حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (٢) ، وقوله
عز وجل : (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٣) . فلو في هذه الآيات السكرية نفيد الثنى بدليل
نصب المضارع بأن مضمره بعد الفاء المسبوقة بها ، والذوق بين الثنى بلو
والتمنى بليت هو أن الثنى بلو يزداد المتعنى فيه بعدا واستحالة وسباق الآيات
السكرية يلبي هذا ، فقد وقع هذا الثنى بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعها ،
وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا ، ويرجع ازدياد
التمنى بلو ، بعدا أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هي حرف امتناع
لامتناع .. ومن الثنى بلو شعرا قول القائل :

ولي الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشتري أو يرجع

ولعلك تشعر بشدة استحالة الثنى في البيت وهو رجوع الشباب ،
وازدیاد بعده عن قولك : أيت الشباب يعود ، ومرد ذلك كما قلت - إلى كون
دلو ، حرف امتناع لامتناع .. (٤)

وقد يقمى بلعل كما في قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ابْنِ لِي
صَرْحًا لَأَتِلَّ بِأَبْلَغِ الْأَسْجَابِ . أَسْجَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعْ إِلَى آلِهِ مَوْسَى
وَأَنَا لَأُظَنُّهُ كَاذِبًا) (٥) ، فهلوع أسهاب السموات من الأمور المستحيلة التي

(١) - سورة البقرة آية ١٦٧ . (٢) سورة الزمر آية ٥٨ .

(٣) سورة الشعراء آية ١١٠ - ١٠٢ .

(٤) انظر دلالات التراكيب ٢١١ وبشبه الإيضاح ٣٣/٢ .

(٥) سورة غافر آية ٣٦ .

لا يمكن وفوعها وهذا يقتضى استعمال أذا: التمنى الأصابية : . ليت ، ولكنه
عدل عنها إلى د لعل ، التى تفيد الترجى لفرض الاغى وهو إبراز المتمنى المحال
فى صورة الممكن القريب الحصول وذلك ل كمال العناية به وشدة الرغبة فى
وقوعه . . ومنه قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه
لعلى إلى من قد هويت أطير

وكما تستعمل لعل فى مقام : التمنى ، فقد تستعمل ليت فى مقام الترجى ،
كما فى قول جرير :

أقول لها من ليلة ليس طارها كطول الليالى ليت صبحك نورا
فانبلج الصبح وهو أمر مترقب الحصول أبرزه جرير فى صورة البعيد
الحصول فعبر عنه بليت ، وذلك لإبراز الشئ المرجو القريب الوقوع فى
صورة الشئ البعيد إشعارا بعزته وامتناعه ، وهذا ينبىء بمهانة الشاعر
وشعوره بامتداد الليل وطوله . . .

حروف التنديم والتحضيض : وهى : هلا وألا ولولا ولوما . . .

يرى السكاكى أن هذه الأحرف ، كأنها مأخوذة من هل ، ولو ، بقلب الهاء
همزة فى ، ألا مركبتين مع د لا وما ، الزائدين ، لإفادتهما معنى التمنى ، وذلك
ليتولد من التمنى الذى أفادته ، معنى التنديم فى الماضى ، كقولك : هلا أكرمت
صاحبك . . لولا قاتلت الأعداء ، ومعنى التحضيض فى المضارع ، كقولك :
ألا تكرم صاحبك ، لوما نجتهد فى عملك ، لأن تمنى ما فات يتولد منه التنديم
وتمنى ما هو آت يتولد منه التحضيض ، وهذا الوجه فى تحليل دلالة تلك
الأحرف على معنى التنديم والتحضيض مبنى على افتراض أن استعمال :
هل ولو ، فى التمنى سابق لاستعمال : هلا وألا ولولا ولوما ، فى التنديم
والتحضيض ، لأنه يفترض أن المعنى الثانى مما تولد عن هذا الاستعمال ،

ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض ، وبخاصة إذا لاحظنا أن « هل ولو » لم
توضعا للتمنى ، فاستعمالها فيه لأبد أن يكون قد جاء في مرحلة متأخرة من
استعمالها فيما وضعت له ، ويترتب على هذا أن يكون التنديم والتحضيس قد
جاء في الطور الثالث من استعمال المعكمتين ، على الرغم من أن التنديم
والتحضيس من المعاني التي يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها في نفس
المرحلة التي يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتي منها التنى والاستفهام
وامتناع الشيء لامتناع غيره ، فإذا أضفنا إلى هذا أن « هل » كانت في
الأصل بمعنى « قد » ، ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملازمتها الهمزة ، ازداد
هذا الوجه بعداً (١) ...

ولم يكن هذا البعد في وجه الدلالة خافياً على السكاكي ، ولذا تراه لم يقطع
به ، بل بناه على الاحتمال حيث قال : « وكان حروف التنديم والتحضيس ،
هلا والأ بقلب الهاء حمزة . ولو لا ولو ما ، مأخوذة منهما - أى من هل ولو -
مركبتين مع لا وما المزيدتين ، لتضمينهما معنى التنى ، ليرتد منه في الماضي
التنديم نحو : هلا أكرمت زيدا ، وفي المضارع التحضيس نحو : هلا
تقوم ... » (٢) ... ولذا فإني أرجح ما قاله النحاة في وجه دلالة هذه الأحرف ،
حيث ذكروا أنها موضوعة للتنديم والتحضيس من أول الأمر ..

التعبير بالخبر في موضع الإنشاء : يقع الخبر في موقع الإنشاء وذلك
لأغراض بلاغية يقصد إليها البلاغي .. وأهمها ما يلي :

١ - التفاضل وإظهار الخرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحقيقه
إدخالاً للسرور على المخاطب ، ويكون ذلك في « الداء » ، بأن يقصد المتكلم

(١) انظر دلالات التراكيب ٢١٣ .

(٢) انظر منتخب المعلوم ص ١٤٧ والإيضاح ج ٢ ص ٣٣ .

(١١) - (المعاني ج ٢)

طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه ، أو طلب المكف وتكون صيغة النهى هي الدالة عليه ، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضي الدالة على تحقق الوقوع ، وفيه إشعار بأن الدعاء المخاطب قد حصل وتحقق ... من ذلك قولك لصاحبك : وفقك الله للتقوى والعمل الصالح وسدد خطبك ورحمك وغفر لك . والمعنى : اللهم وفقه وسدد خطاه وارضه ، وقولك : لاسمعت مكررها ولا رأيت شراً ، والمراد : اللهم لا تسمح مكررها ، ولا تره شراً ، فعدل عن الأمر والنهى الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضي الدال على تحقق الوقوع تفاؤلاً وإظهاراً لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب ، وإدخالاً للسرور عليه ... ومن ذلك قول الشاعر :

إني التمتين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ف قوله : وبلغتها ، دعاء للسامع ، إد المراد : اللهم أطل عمره ، وبلغه هذه السن ، وقد عبر عن ذلك بالماضي إظهاراً لرغبته وحرصه على تحققه ووقوعه ..

ومثله قول الآخر :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلت

بنا نعلنا في الواحشين فزلت

وقول الشاعر في رثاء عمر رضى الله عنه :

جزى الله خيراً من إمام وبارك

يد الله في ذاك الأديم الممزق

٢ - الاحتراز عن صورة الأمر أو النهى المشعرة بالاستعلاء تأدياً مع المخاطب حيث يقتضى المقام ذلك التأديب ، كقولك لمالك : بنظر إلى أستاذي لحظة ... لا يعاقبني أستاذي ... ولو قلت : انظر بالأمر ، أو لا تعاقب بالهوى ، لكان قولك بخلاً بما يقتضيه المقام من تأديب التلميذ عند مخاطبة أستاذه ..

٣ حمل المخاطب على تحقيق المطلب ونحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه : « تزورني غدا ، وقول الأستاذ لتلاميذه : تأتوني كل صباح .. بدلا من زرتني ، ائتوني بصيغة الأمر ، وذلك لأن التعبير بصيغة الخبر يحتمل الصدق والكذب - كما عرفت - فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه ، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم ، نسبوه إلى الكذب والصدوق به ، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب ، والتلاميذ يحرم صرون على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزها عنه ، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملا للخاطب على تحقيق المطلوب ونحصيله ... ومن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يجتمع دينان في جزيرة العرب ، فالمراد : لا يجتمعوا في جزيرة العرب ، بالنهي وقد جاء بصيغة الخبر حملا للمسلمين على تحقيق ذلك ونحصيله ، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حجة ، لانعلوها راية .. ومنه قوله تعالى « الزَّانِبِ لَا يَتُوبُ إِلَهُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » ^(١) ، فتأوله : « لا ينكح . لا ينكحها » خبر أريد به النهي ، وفي بعض القراءات بالجزم على النهي ، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وأكد ؛ لأنه يبرز المنهى عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوثه وحرصا على تحقيقه وحشا على الامتنال وسرعة الإجابة ..

ومثله قوله تعالى : « وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » ^(٢) ، وقوله عز وجل : « وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ » ^(٣) ، فالإف

(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(١) سورة النور آية ٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٨٤ .

على النهى أي : لا تعبدوا إلا الله ، لا تسفكوا دماءكم ولا تفسدوا أنفسكم ، وقد عدل عنه إلى الخبر حملاً للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثاً لهم على سرعة الإجابة والامتثال ..

التعبير بالإشياء في موضع الخبر : وقد يقع الإشياء في موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرمى إليها البلاغي .. أهمها :

١ - الاهتمام بالشيء ، كقوله تعالى : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ »^(١) . والمعنى : د وإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر ، تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بالأمور به والحرص على تحقيقه ..

٢ - الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، فالمعنى : د تبدأ مقعده من النار ، وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب ، وأنه واقع يؤمر به ، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفي هذا ما فيه من الوعيد والتحذير والزجر .

٣ - الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق ، كما في قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ بِمَا تُشْرِكُونَ »^(٢) . والمعنى : إني أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر : دواشهدوا ، احترازاً عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل ، وفيه أيضاً تعظيم لهود - عليه السلام - وإعلاء لشأنه وتحقير لهُولاء الكفرة المشركين ، حيث أبرزه الأمر في صورة الأمر الذي يوجه إليهم الأمر ، وعليهم أن يخفضوا ويدعوا وأن يستجيبوا لما يأمر به ..

تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء : وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية ، وما بينهما من فروق دقيقة ، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر ، وعن الخبر إلى الإنشاء ... ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقتدر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كل موطن منها ، فيورد كلامه ، ويضوخ عباراته ملائمة للمقام ... وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه ، فعلى البليغ مراعاة ذلك ، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهى واستفهام وتعجب وترجى وتمن ونداء ، وأن يعرف المواطن التي تقتضى السرد والحكاية ، فيورد بها الجمل الخبرية ، وأمام البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي ... انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف ناقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد ، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبنية على التنويع الذي يجذب السامع ويستقر على انتباهه .

الفصل الثالث

الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجزى لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار ... وقد تنبه العلماء قديما لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأمرها حيث مثل أحدهم عن البلاغة فقال : البلاغة معرفة الفصل من الوصل^(١) ... وقال عبد القاهر : ، واهلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : إنه خفي غامض ودقيق صعب إلا واهلم هذا الباب أغصن وأخفى وأدق وأصعب ... ،^(٢)

والوصل معناه العطف ؛ عطف الكلام بعضها على بعض ، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل ، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وشم ودأو... والفصل هو ترك العطف ، هذا ما ذكره السكاكي .. ولكن البلاغيين جرت عادتهم في حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التي لها محل من الإعراب ، معنيين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التي لها محل من الإعراب ، أمره دين ويسير ، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك في الحكم الإعرابي ، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر في الجمل التي لا محل لها من الإعراب ... كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائمين : إن الواو من بين حروف العطف هي التي لا تفيد سوى مجرد الإشتراك في الحكم ومطلق الجمع ، فالعطف بها دقيق مشكل ، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك في الحكم معاني أخرى ، فالفاء تفيد :

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٨ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧ .

الترتيب والتمقيب ، وشم تفيد الترتيب والتراخي و ، أو ، تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة ، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف . (١) . وهذا الذي ذكره وإن كان لا يخلو من الصحة ، إلا أننا لا نعدم وجوها دقيقة وأسراراً خفية نجدها كاملة وراء العطف بغير الواو ، كما أننا لا نعدم وجوها أدق وأسراراً أخفى تكون وراء عطف المفردات والجل التي لها محل من الإعراب . . . ولذا فإننا سنبدأ دراستنا للفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار . . .

العطف بغير الواو : انظر إلى قول الله عز وجل : « وَأَنْتَ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (٢) ، نجد أن الجمل قد وصلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف ، ثم ، و ، والفاء ، و وراء الوصل بهذين الحرفين تكون الدقائق والطاقف ، فقد بدأت بالخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام من طين ، ولما أريد وصلة بالخلق الثاني ، خلق التناسل ، عطف عليه بـ ثم لما بينهما من التراخي ، ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق ، فوصلت خلق العلقة بالنطفة ، بـ ثم ، لما بينهما من التراخي ثم توالى الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحماً ، موصولة بالفاء ، حيث لم يكن هناك تراخي بينها ثم وصل ثمويته لإنساناً بكساء العظام لحماً بحذف العطف ، ثم ، إشارة إلى التراخي بينهما (٣) . . هذا وعندما تتأمل ما عطف بهم تجده أدق وأبعد ، عطف بالفاء ، فقد نزل الاستبعاد عقلاً أو رتبة منزلة التراخي والبعد

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ والإيضاح ٦٢/٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٤ .

(٣) ارجع إلى الطراز ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .

الحسى ، فعطف بهم ونزل القرب عقلا أو رتبة منزلة القرب الحسى ، فعطف بالفاء .. (١) ثم جاء قوله تعالى : « فَبَارِكْ أَكْثَرَ أَحْسَنِ الْخَالِقِينَ » معطوفاً بالفاء على تلك الجملة ، جلّت أطوار الخلق في هذا النظم المبدع لتنبيه الإنسان إلى ما يجنب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعته ، ولهذا نطق أكثر من صحابي بختام الآيات الكريمة : « تبارك الله أحسن الخالقين » قبل أن يلميها النبي - صلى الله عليه وسلم - لسكانب الوحى ، ويبتسم النقى عليه الصلاة والسلام قائلاً : « هكذا نزلت » ،

وتأمل قوله تعالى : « قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْهُ أَمَى شَيْءٌ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » (٢) ، ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولاً بخلقته وإيجاده بالفاء : دخلقه فقدره ، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخي بينهما . وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضاً : « أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » ، إذ لا مهلة بين الموت والإقبار ، ولما كان الزمان ممتداً بين تيسير السبيل وتقدير خلقته ، وبين التيسير والإماتة ، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجملة موصولة بهم التي تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة : « ... فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » . وخذ قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُعِجِنِي ثُمَّ يُمَجِّينِ » (٣) وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء « خلقه ، فهو يهدين » ، بينهما عطفت على الخلق ، والتقدير في سورة هبس بهم : « من نطفه خلقه فقدره ثم السبيل يسره » . ويرجع هذا الاختلاف إلى السياق والمقام ، فالآيات في سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم - عليه السلام - والعطف بالفاء ينفي بقوة يقينه وكأل

(١) انظر روح المعاني ج ١٨ ص ١٥ .

(٢) سورة هبس آية ١٧ - ٢٢ . (٣) سورة الشعراء آية ٧٨ - ٨١ .

لإيمانه بربه ، فقد بلغ إيمانه مبلغا جعله لا يعتمد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة ، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء : « خلقني فهو يهدين » ، أما في سورة عبس فالحديث عن الكافر قتل الإنسان ما أكفره . . . ولهذا جاء العطف بضم . . . وانظر في بنية الآيات نجد عطف السقي على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما دون مراعاة لترتيب ، وقدم الإطعام على السقي مراعاة لحسن النظم ونماسق الآيات . ثم جاء عطف الشفاء على المرض بالفاء ، إشارة إلى حدوث ومجيء الشفاء عقب المرض وربيه عليه ، وتنبها إلى عظام المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض ومرضت . . . يشفيني . . . ثم عطف الإحياء على الإمامة بضم لما بينهما من التراخي وامتداد الزمن .

وهذا السياق هو الذي يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذي يتحتم استعماله دون غيره ، انظر في قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَعْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » (١) . ثم تأمل قوله عز وجل : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » (٢) نجد أن سياق الآية الأولى يتخذ عن الكفرة الذين مازالوا يحIRON . . . يعاندون ويكابرون ، ويرفضون قبول الهداية . . . « وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْمُدْحَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » فمؤلاء يمرضون عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا فاسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب : « ذكر بآيات ربه فأعرض عنها » ، أما سياق الآية الثانية فتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر . . . « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ »

الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنِ دُونَ
الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ^(١) . فَمَوْلَاهُ قد استمر تذكيرهم في الدنيا بالآيات وامتد زمانا
بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضا نهائيا بالموت وهذا بلائهم العطف بشم
التي تفيد الامتداد والترسخ . . . ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها لما من
الجرمين منتهمون . . .

وبهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكن وراءه من الدقائق والأسرار
واللطائف ما ينبغي إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضي عنه . . .

عطف المفردات : يذكر بعض البلاغيين أن المفردات بعطف بعضها
على بعض بالواو إذا كانت متناسبة متجانسة ، كما في قوله تعالى :
« قُلْ إِنْ صَلَّيْتُمْ وَسَلَّيْتُمْ وَنُسَّيْتُمْ وَنَحْيَيْتُمْ وَتَمَّيْتُمْ ، اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ^(٢) فالصلاة
والسك والحياء والملمات أسماء متناسبة ، وكذا قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
رَفِيَّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » ^(٣)
فالفواحش والإثم والبغى والشرك والقول على الله مالا يعلمون ، ألفاظ
متجانسة متناسبة . ومثله قوله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » ^(٤)
فالله والملائكة والكتب والرسل أسماء بينها تناسب وبناف . وهذا الذي
ذكره البلاغيون غير سديد ولم يعلم لهم ، لأن التناسب بين الألفاظ والتلازم
والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم تعطف ،
وقد ذكرنا ذلك في علم البديع ونسوه : مراعاة النظير ، فالمتكلم ينبغي له

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢

(١) سورة السجدة آية ٢٠ ، ٢١

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٣) سورة الأعراف آية ٣٣

أن يراعى التناظر والتجانس والتآلف بين ألفاظه وألا يباعد في القول ..
ولذا عاب نصيب على السكيت قوله :

أم هل ظمائن بالمايا يافعة

وإن تكامل فيها الأنس والشنب

فقد عديم قدرة عند سماءه ، ولما سأله السكيت : ماذا نحصى ؟ أجاب : خطأك ،
باعدت في القول ، أين الأنس ، من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :
لمياء في شفتيها حرة لمس وفي اللثات وفي أسنانها شنب

وعاب النقاد قول أبي تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم :

زعمت هوأك عفا الغداة كما عفا عنها دلول بالوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كرم
مازلت عن سنن الرداد ولاغت

نفسى على إلف سواك تحوم

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين وهما متباعدان لا يتجانس
بينهما ، والذي أوقع أبا تمام في هذا العيب هو محاولته التخلص من القول
والانتقال إلى المديح ، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع فيه من عدم
التجانس بين مرارة القران وكرم الممدوح ... وقد انتهر البهس لأبي تمام
فقالوا : الجامع خيالي لتفاوتهما في خيال الشاعر ، أو وهمى وهو ما بينهما من
من شبه التضاد ؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم ، أو التناوب ،
لأن كلا منهما دواء فالصبر دواء للأمل ، والكرم دواء للفقير ، وكل هذه
تكلفات باردة ، لا تبرير خطأ أبي تمام ، إذ المتمد به هو التناوب الظاهر بين
الكلمات والألفاظ ... وخلاصة القول أن التناوب والتجانس والتآلف
بين الألفاظ ليس مقصوراً على كونها معطوفة ، بل لابد من مراعاة النظير بين
الفردات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة ..

كما يذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بمضما على بهض إلا إذا كانت متضادة كما في قوله تعالى : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »^(١) أما إذا كانت غير متضادة فإسما تذكر بلا عطف كما في قوله عز وجل : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُخَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى »^(٢) وانظر إلى قوله تعالى : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَفَ لَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا »^(٣) نجد أن الصفات قد توالى بلا عطف إلا « ثيبات وأبكارا » فقد عطفنا لما بينهما من التضاد .

ومن ذلك قوله تعالى : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ »^(٤) توالى الصفات بلا عطف ماعدا صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادان ... وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهاً من التضاد بينهما ، كما في قوله تعالى : « حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ »^(٥) حيث عطف في الآية : « قابل التوب » على « غافر الذنب » وهما غير متضادين ولا يمكن البلاغيين يتسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين في الآية الكريمة ... فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى الساب ، لأن معنى

(١) - سورة الحديد الآية ٣ . (٢) سورة الحشر الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة النحر الآية ٥ . (٤) سورة للتوبة الآية ١١٢ .

(٥) سورة غافر الآية ١ ، ٣ .

« غافر » الذي لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق ، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات ، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد ... وقالوا أيضاً : إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن تقبل توبته فتكتب له صاعاً ، وبين أن تمحى ذنوبه ، كأنه لم يذنب ... وقالوا : إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بآله تعالى ، فآله عز وجل يغفر حمناً من تلقاء نفسه بفضل ، وحينما يغفر عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته^(١) ...

وما من ريب في أن هذا تعسف ظاهر ، ونحن في غنى عنه خاصة وأن ما قالوه من أن الصفات المتضادة يجب فيها العطف بالواو قول غير سديد ، فقد نرد الصفات متضادة وبدون عطف كما في قوله تعالى : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةً وَارِفَةً »^(٢)

وكما في قول امرئ القيس :

مكرر مقرر مقبل مدر مسا كجلمورد صمخر حطه السيل من عل

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة ، مثل الآية المذكورة : « غافر الذنب وقابل التوب .. » ومثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْرُفْنَا ذُنُوبَنَا وَفِدَا عَذَابِ النَّارِ الْعَابِرِينَ وَالْعَادِيْنَ وَالْقَانِعِينَ وَالْمُفْتِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ »^(٣) ، وقوله عز وجل : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِعِينَ »^(٤) ؛ فالأولى والأجدر أن نهتم الدراسة البلاغية بالمبحث عن الأسرار السكاملة وراء الواو وأن تكشف وتجلي سر مجيئها حين تأتي وسر تركها حين تترك ، فمذهبه أو تفيد

(١) انظر الطراز ٣٦/٢ . (٢) سورة الواقعة آية ١ ، ٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦ ، ١٧ (٤) سورة الأحزاب الآية ٢٥

التغاير وعندما تأتي بين الصفات فإنها تفيد كمال انصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة ، انظر إلى قوله تعالى : ، الصابرين والصادقين والقائمين ،... تجد أن الواو دلت على كمالهم في كل واحدة منها . (١) .. وعندما تترك الواو وتأتي الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها في الموصوف ، خذ قوله تعالى : ، الثائمون العابدون الحامدون السائحون ... الآية .. وقوله : د .. مسلسلات مؤمنات قانتات ... ، وتأمل ، فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة في الموصوفين ، وكأنها صفة واحدة ، فقد كرر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون في كل صفة على حدة ، وتركها يفيد أنها مجتمعة فيهم .. (٢)

وعلى هذا فقول امرئ القيس .

مكر مفر مقبل مدر معا كجلود صخر حطه السيل من عل

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت في الجواد في وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة ، ولو أنه قال : مكر ومفر ومقبل ومدر ، لما صح أن يقول معا .. وكذا القول في الآية السكرة ، ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة .. أي : منخفضة وترفع في زمن واحد ، ويقع منها الفعلان معا ، ولو قيل في غير القرآن خافضة ورافعة ، لم يند ذلك .. وكذا قولنا : فلان كاتب شاعر يخالف : فلان شاعر وكاتب ، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر ، والثاني أفاد كمال انصافه بكل صفة على حدة ..

وكما تفيد الواو بين الصفات . فقد تأتي بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكان الحال مفرداً أم جملة . انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ

(١) انظر الكشف ١/ ٢١٣ .

(٢) انظر الكشف ٢/ ٢٤٦ .

كَلَّاسِكُمْ تَهْتَدُونَ»^(١) فالفرقان صفة للكتاب ، وقد عطف عليه بالواو ،
وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتاباً موزلاً ، وفرقانا يفرق بين الحق
والباطل ، وخذ قوله تعالى : « وَاتَّخَذَ آتَيْنَا مُوسَىٰ زَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءُ
وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »^(٢) ، فضياء وذكراً : حال ممتدة للفرقان ، وقد جاءت
بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقانا وضياء وذكراً ..^(٣) .

واقروا قوله عز وجل : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ
خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ
قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ بِدِينِهِمْ . . »^(٤) فقد عطف الواو جملة الصفة « ثامنهم كلبهم »
على الموصوف « سبعة » ، وهذا العطف أفاد - كما ذكر الزمخشري - شدة لصوق
الصفة بالموصوف ، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها ، ولذا قال بعد
القرابين الأولين : رجماً بالغيب ، وجاء عقب هذا القول : « ما يعلمهم
إلا قليل »^(٥) .

ولإفادة الوارد لشدة لصوق الصفة بالموصوف ، يمكن وراء ما نفيد من
معنى التناير ، فكان القائلين قد قالوا قولين ، قالوا : سبعة وقالوا : ثامنهم
كلبهم ، ويتضح هذا في قولنا : جاء محمد غلامه يسمى بين يديه ، وجاء محمد
وغلامه يسمى بين يديه ، فالأول إخبار عن مجيء هذا حاله ، والثاني إخبار
عن المجيء وعن حاله وكذلك بعد الإخبار بالمجيء استأنفت إخباراً آخر عن
حال المجيء^(٦) ..

وتأمل الآيتين : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا بُدْءٌ زُرُونَ . . »^(٧)

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) سورة البقرة الآية ٥٢ . | (٢) سورة الانبياء الآية ٤٨ . |
| (٣) انظر الدلائل ص ١٣٣ والكشاف ١/١٠٤ . | |
| (٤) سورة الكهف الآية ٢٢ . | (٥) انظر للكشاف ٢/٥٥٧ . |
| (٦) انظر الدلائل ص ١٤١ | (٧) سورة الشعراء الآية ٢٠٨ |

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مِّنْ لَّدُنَّا .. »^(١) نجد أن الكتاب بما يمكن إخفاؤه وإنكاره ، أما المندرون فلا يتأتى إنكارهم ، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة في الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها ، دفعاً لما قد يقع من إنكار ، وجاءت الآية الأولى بدون الواو ، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، وجاء التأكيد - كما قلنا - من لفظة الواو بمعنى التغاير ، وكانك تبتدىء بها إخباراً آخر ، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها ، وأن تذكر قرية ثم تبتدىء وصفاً لها .^(٢)

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول : جاء زيد والكريم ، على أن الكريم هو زيد ، لأنه يستحيل عطف الشيء على نفسه ..^(٣) ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم ، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف ، ليس عطفاً للشيء على نفسه ، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيد الواو من معنى التغاير ...

هذا وعندما ننظر في المفردات المعطوفة ، وترتيبها في الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر ، نجد كثيراً من الدقائق وال لطائف والاعتبارات البلاغية .. تأمل قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ .. »^(٤) وقوله عز وجل : « وَقَعَىٰ رُبُّكَ إِلَّا تَهْجُودُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »^(٥) ، نجد أن عطف الوالدين والأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ، ويلفت وينبه إلى ما ينبغي لهم من حسن الرعاية ، وجميل المعاملة ، فلا يخفى عليك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين وفي اقترانه به تشریف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف ...

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .

(٤) سورة النساء آية ١ .

(١) سورة الحجر آية ٤ .

(٣) انظر الطراز ٢/٣٤ .

(٥) سورة الإسراء آية ٢٣ .

ونرى في قوله تبارك وتعالى :

«وَنَسِيتُهُ يَمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا ..»^(١) ، تقديمًا للأنعام على
الأناسي ؛ لأن في حياة الأنعام حياة للأناسي .. وقد يكون في التقديم تعظيم
وتشريف المقدم كما في قوله تعالى : « فَأَرْسَلْنَاكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ..»^(٢)
وقوله عز وجل : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي إِحْسَانٍ ..»^(٣) .

وقد يكون التقديم لالتقى من العدد القليل إلى العدد الكثير كما في قوله
تعالى : « فَأَنْسِكُوا مَا طَافَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ..»^(٤)
وقوله : « .. جَاءَ إِلَيْنَا إِلَهِكُمْ رَسُولًا أُولَىٰ أَجْبَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ..»^(٥)
أو لالتقى من الكثير إلى القليل كما في قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ
يَوْمَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ..»^(٦) ، أو مراعاة للتقدم الزمى
كقوله عز وجل : « وَعَدْنَا دَلِيلًا لَّكُم فِي الْقُرْآنِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنَ ..»^(٧)
إلى غير ذلك مما يمكن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار ...

...

الوصل والمصل بين الجمل : - عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان : جمل لها
محل من الإعراب ، وجمل لا محل لها من الإعراب ، كما عرفنا أن الجمل التي لها
محل من الإعراب حكمها حكم المفرد ، لأنها تقع مرة واحدة وتأخذ حكم الإعرابي ،
فالعطف عليها يكون بمثابة العطف على المفرد ..

- | | |
|---------------------------|--------------------------|
| (١) - سورة الفرقان آية ٤٩ | (٢) - سورة النساء آية ٦٩ |
| (٣) - سورة التوبة آية ١٠٠ | (٤) - سورة النساء آية ٣ |
| (٥) - سورة فاطر آية ١ | (٦) - سورة سبأ آية ٤٦ |
| (٧) - سورة التوبة آية ١١١ | |

يقول عبد القاهر : د الجمل المعطوف بعضها على بعض ضارين ، أحدهما : أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب ، وإذا كانت كذلك ، كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد ، كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرا ، والإشراك بها في الحكم موجوداً . (١) ... وهذا لا يعنى أن الجمل التى لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التى ليس لها محل من الإعراب بل هى خاضعة لما تخضع له وما يجرى على هذه من أحكام الفصل والوصل يجرى على تلك ، بالإضافة إلى أن الجمل التى لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد ، فإذا أردنا لإشراك الجملة الثانية للأولى في حكمها الإعرابي عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التى تسوغ العطف ، وإذا لم نرد التشريك في الحكم الإعرابي يمتنع العطف ... فتعالوا ننظر في هذا الحكم الذى تختص به الجمل التى لها محل من الإعراب ، ثم نمضى بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التى تخضع لها جميع الجمل ...

متى توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ؟ ومتى يتعين فصلها ؟ : -
توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ، إذا قصد تشريك الثانية للأولى في حكمها الإعرابي ، وكان بينهما مناسبة ، أى : جهة جامعة تسوغ العطف ، كما في قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا فَتُضَاعَفْ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. » (٢) بجملة « يقبض » وقد تمت خبراً للفظ الجلالة ، وجملة « يبسط » عطفت عليها بالواو ، لأن المقصد لإشراك الثانية للأولى في الحكم الإعرابي وهو وقوعها خبراً للمبتدأ ، وبين الجملتين تناسب ، إذ المسند إليه في كل منهما واحد وهو الله عز وجل ، وبين

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦ . (٢) سورة البقرة آية ٢٤٥ .

المُسندين "يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ"، أضاد قهراً متاسبان، وأضر بلاغة الوصل في هذا
الموطن أن الآية السكريمة تصور عظمة القادر، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع،
فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك. ولو ترك العطف فقبل في غير القرآن:
وا لله يقبض يبسط بدون الواو، لكان ذلك موهماً أن قولنا: "يبسط"،
رجوع عن قولنا: "يقبض وإبطال له، وما يبرز تلك العظمة أيضاً: عطف
جمله وإليه ترجعون"، على جملة: "وا لله يقبض ويبسط"، لما بينهما من التوسط
بين السكاليين وعدم المانع من العطف الآتي بيانه. وانظر إلى ما أفادته الفاء،
في قوله "فيضاعفه له"، من الترتيب والتعقيب... نظم بديع ودقائق عجيبة،
المتصدق المنفق في سبيل الله كأنه يقرض الله قرصاً حسناً، والله عز وجل
يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضعافاً كثيرة، والذي يمارى بمضاعفاته الثواب
هو الله القادر.. الذي يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل... حدث على
البذل والعطاء وتأكيده للإثابة ما بعده تأكيده..

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك في الحكم الإعرابي قولنا: "فلان يعطى
ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهى ويحسن ويسوء ويحل ويعقد...، تجد أن
الوار قد أضفت على المعنى قوة وظهوراً حيث أوجبت المسند إليه الفعلين
مما جعلته يفعلهما جميعاً، ولو قلت: يعطى يمنع.. يضر ينفع، من غير
واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون رجوعاً عن الأول وإبطالاً له..
وغالباً ما تستعمل مثل هذه الأساليب في مقام المدح الذي يحتاج إلى المبالغة
وإظهار قوة الفعل (١)...

تأمل قول أبي تمام مادحا:

لها ن علينا أن نقول وتفعل

. وقد كن بعض الفضل منك وتفعل

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٤٨.

تجد أن جملة : « أن نقول » قد وقعت فاعلا للفعل « هان » ثم اشتركت معها
بقية الجمل في هذا الحكم فعطفت بالواو ، ولو أردت إسقاط هذه الواوات
ما استطعت إلى ذلك سبيلا ؛ لأنك تجد المعنى يمتنع عليك ، حيث أراد أبو تمام
أن يجمع بين مدحه وكرم الممدوح وبين ذكره لبعض فضائل الممدوح
وزيادة الممدوح في العطاء ... فأنى واو تطارعه في الذهاب دون أن يضمع
المعنى الذى قصد إليه الشاعر . ؟

وتأمل قول الآخر :

لا تطعموا أن نمينونا ونكرمكم
وأن تكف الأذى عنكم وتؤذونا

تجده قد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى
والإيذاء ، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل ، وأنت لو حاولت
نزع جملة منها لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر ..

ومن ذلك قول المتنبي :

وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب
فقد اشتركت الجملتان : « لا يناله نديم » و « لا يفضى إليه شراب » في
وتوعهما صفة لموضع ، ومقام المبالغة في كتمان السر يقتضى هذه المشاركة ...
ومثله قول المعري :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغبا أكل المرار

اشتركت الجملتان : « دأب كل حر » و « علم ساغبا أكل المرار » في
وتوعهما خبرا المبتدأ « حب العيش » ، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض
المعري ، حيث أراد : أن حب الحياة حبا شديدا والجري وراء متاع الدنيا
قد جعل الحر عبدا واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى ، وهذا المعنى
لا يتحقق إلا بالجملتين معا ...

وخذ قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَعْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْضُرُونَ .. »^(١) تجميد الجملتين : « لا يسمعون نعركم » و « لا أنفسهم يهضرون » ، قد وقعتا خبراً للمبتدأ ، والجمع بينهما يحقق مانعاً إليه الآية السكينة من تحقيق هذه المعبودات ، وهذا لا يتم إلا بالجملتين معاً كما لا يخفى ... إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التي يكون هدف المتكلم من ورائها اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي .. كقولك : على يقول ويكتب ... ألم تعلم أني أحترمك وأقدرك ... لأن أحسن وأسات ... يكفيك ما قلت وسمعت ... أحسن أن تنهى عن شيء وتأتى مثله ... ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين في كل مامر من شواهد وأمثلة ، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقترانهما ، فلا تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك ... ولهذا عيب قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

سواء أجهل من عطف المفرد على المفرد أي : عطف كرم أبي الحسين على مرارة النوى أم من عطف الجمل أي : عطف جملة : « أن أبا الحسين كريم » على جملة : « أن النوى صبر » ، ووقعهما مفعولاً به لقوله « عالم » .. وقد مر بنا البيت في عطف المفردات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبي تمام وأن يلتزم وجهاً للمناسبة بين كرم الممدوح ومرارة الفراق ...

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتلازم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف ، فمكما لا يجوز أن تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، فإنه يمتنع أيضاً قولك :

هو يكتب الشعر يأكل السمك ، بدون وار وكذا يمتنع الجمع بيزمرارة
الفرار وكرم المدوح بلا عطف ... فلا وجه إذا لما صنعه البلاغيون من
تصرم المناسبة على المفردات، والجمل المعطوفة ، لأن المناسبة بين المفردات
أو الجمل المطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف . .

هذا وقول البلاغيين : إن قصد التشريك في الحكم الإعرابي عطف ، (١)
معناه : جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف ،
لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك في الإعراب يمتنع العطف حتى
لا يتوهم خلاف المراد ، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ
الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . . » (٢) حيث اشتركت الجمل الثلاث في
وقوعها خبرا للمبتدأ ، وقد جاءت مفصلة كما ترى . . . ومن ذلك قولنا :
فلان أعناك بعد فقر . أهرك بعد ذل . كثرك بعد قلة . فعل بك ما لم يفعله
أحد بأحد ، فإذا تذكر من إحسانه . . ؟

ومنه قول أبي هلال :

وجه تشرب ماء النعيم فلو عصر الحسن منه انعصر
يمر فأمنحه ناظري فينشر وردا عليه الخضر

وبجىء هذه الجمل المشتركة في الحكم الإعرابي منقطعة يشعر بأن كل
واحدة منها تنهض بالفرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها (٣) . . .

— وكما قلت — فإن الغالب والأكثر أن تجيء الجمل التي قصد تشريكها
في الحكم الإعرابي معطوفة ، على نحو ما مر بنا من شواهد ، بل أحيانا نجد
أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يؤم خلاف المراد كما رأينا في قوله
تعالى : « والله يقبض ويبسط ، وقولهم : فلان يعطى ويمنع ويحل ويعقد . .

(١) انظر الإيضاح ٦٣/٢ . (٢) سورة الرحمن آية ١ - ٤ .

(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤ .

وقول الشاعر :

لا تطمعوا أن نهينونا ونكرمكم وأن نكف الاذى عنكم وتؤذونا

فترك العطف في مثل هذه الشواهد يوم لإبطال الجملة الاولى والرجوع عنها ، ومن ثم وجب وصلها حتى لا يتوهم خلاف المراد ..

فاذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى في الحكم الإعرابي تعين فصلهما . لأن الوصل عندئذ يوم خلاف المراد ، تأمل قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْتَهُونَ . » (١) ، نجد أن جملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، قد فصلت عن جملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، حيث لم يقصد التشريك بينهما في الحكم الإعرابي ، الجملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، بقول القول ، وجملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، لإخبار من الله عز وجل ، ولو وصلت بالأولى لأدى هذا الوصل إلى توهم أنها من «قول المنافقين» . فدفعاً لهذا التوهم تعين الفصل بينهما ... أما فصل : « إِنَّا مَعَكُمْ » عن ، « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ » ، فالكمال الاتصال الآتي بيانه ، وكذا لا يجوز عطف : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » على جواب الشرط : « قَالُوا » ، لأن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت خلوعهم إلى شياطينهم ... ولاحظ الوصل بين جملة : « يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » و«يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ » ، لوقوعهما خبراً للفظ الجلالة ، فالعطف لقصد التشريك في الحكم ...

ومن ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَا يَكُونُونَ ... » (٢) ، الجملة : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » ، لم يقصد تشريكها في الحكم الإعرابي بجملة : « إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » ، لأنها ليست من مقولهم بل هي مرسلة كلام

(٢) سورة البقرة آية ١١١ ، ١٢٠

(١) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥

رب الغوة ، إخبار منه تعالى ، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لا يتوهم غير المراد . .

ومثله قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا لَهُمْ الْاِسْمَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (١)
 فقد فصل : « ألا إنهم هم السفهاء » عن : « أتؤمن كما آمن السفهاء » حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين : إذ هي من كلام رب العزة ، إخبار منه تعالى ، والوصل بهم أنها من مقول المنافقين ، وهو مالا يخفى فساد . . . ولاحظ في الآيتين الوصل بين جملتي : « إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » وبين جملتي : « إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » ، والوصل بينهما للتوسط بين السكاملين مع عدم المانع من العطف - كما سنرى في مواضع الوصل

هذا وقصد التشريك في الحكم الإعرابي أو عدم قصده وإن كان ظاهرا بينا في كثير من التراكيب ، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر . . انظر في قوله تعالى : « فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَبْتُهَا مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . . » (٢) فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل : « رب إنى وضعتها أنثى . . » ليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها ، من مقول مريم ، أما جملة : « والله أعلم بما وضعت » ، فمن كلام الله تعالى وقد جاءت موصولة بمقولات مريم ، ولكن عندما يتأني هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هذه الجملة : « والله أعلم بما وضعت » جملة اعتراضية وليست مبطونة على مقولات مريم ، وهنالك قراءة بضم تاء : « وضعت » وعلى هذه القراءة تكون الجملة من

مقولات مريم ، ويكون في التركيب التفات من الخطاب في درب ، إلى الغيبة في : ، والله ، ثم التفات ثان إلى الخطاب في : ، وإني أعينها بك . . . ، ووراء هذا الالتفات سر بلاغي دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المسكنة وكال علمه تعالى ثم إلى قربه من عباده فهو أقرب إليهم من جبل الوريد ، ولذا عندما دعت مريم خاطبت : ، رب إني . . . وإني أعينها بك وذريتها . . . وعندما أخبرت عن علمه ، التفت إلى الغيبة : ، والله أعلم بما وضعت ، ففي هذا الالتفات إنباء ببعد المنزلة وعلو المسكنة وكال علم الله تبارك وتعالى . . .

وبخلاصة القول أن الجمل التي لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها في الحكم الإعرابي وصلت ، وقد ترد نادرا بلا وصلا . . . وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها ، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد . . . وهذا الحكم يختص بما هو واضح بالجمل التي لها محل من الإعراب ، ثم هي تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التي ليس لها محل من الإعراب ، والتي سنتحدث عنها الآن . . .

مواضع الفصل : ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر في خمسة مواضع هي :

١ - كمال الاتصال : وهو أن تتفق الجملتان في الإنشائية أو الخبرية لفظا ومعنى أو معنى فقط ، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو ، لأن العطف وصل خارجي ، وهذه الجمل قد صار ما بينهما من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجي ، ولذلك ينبغى أن نقول : ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها ، ولا يقال : فصل بينها ، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة : ..

الأول : أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً أو معنوياً

انظر إلى قوله تعالى : « قَمِيلَ الْكَافِرِينَ أَهْمَلُهُمْ رُؤَيْدًا » ^(١) ، تجد أن الجملة الثانية : « أَهْمَلُهُمْ رُؤَيْدًا » ، توافق الجملة الأولى في اللفظ والمعنى وأنها تؤكد لفظي لها ، ولذا صارت الجملة قرينة بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو ؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد ، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشيء على نفسه ..

وتأمل قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » ^(٢) تجد أن الجملة الأولى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ » ، أفادت : أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذي بلغ الغاية القصوى في كمال الهداية وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين : تعريف المسند إليه ، باسم الإشارة الدال على التأكيد ، ذلك ، إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة ، وتعريف المسند بالالف واللام « الْكِتَابُ » ، .. . وجملة « لَا رَيْبَ فِيهِ » ، تفيد في الرب غنه وأنه لا يتطرق إليه شك ، وهذا تقرير وثاق أكد لمعنى الجملة الأولى ، إذ لزوم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلا للريب والشك ، بخواتم جملة « لَا رَيْبَ فِيهِ » ، مقرر لهذا المعنى ، ومؤكدة له .. وجملة « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » ، تفيد بلوغ القرآن في الهداية مباحث لا يدرك كمه ، حتى كأنه هداية شخصه ، وهذا مأخوذ من تشكيك « هُدًى » ، الذي يدل على التعميم ، ومن أنه لم يقل « هاد » ، بل « هدى » ، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى ، فهو الهداية نفسها ، ولا يخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ » ، .. . ولما ترك العطف بين هـ الجملة لأن بينهما اتصال قوى فهو لا يحتاج إلى ربط بالواو ..

وخذ قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ نَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ لَبِئْسَ مَا

تَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»^(١) ، جملة « إنما نحن مستهزئون » مؤكدة بجملة « إنما » معكم ، : لأنهم ماداهوا مستهزئين بالإسلام وأهله ، فهم مستهزون في معية شياطينهم ... ولاحظ أن الجملتين قد وقعا مقولا للقول وهذا يؤكد ما قلناه لك من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التي تخضع لها الجمل التي ليس لها محل ... وتأمل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . »^(٢) ، تجد أن جملة : « لا يؤمنون » مؤكدة بجملة : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، لأن معنى الثانية : يستوى عندهم الإنذار وعدمه ، وجملة : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... ، تأكيدي ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كان حاله إذا أنذره بل حاله إذا لم ينذر ، كان في غاية الجمل وكان مطبوعا على قلبه لا محالة ، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الاتصال . . كما تجد أن جملة : « يخادعون الله والذين آمنوا » مؤكدة بجملة « آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » . لأن من يضم خلاف ما يظهر فإنه يخادع . وانظر في قوله تعالى : « وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْكُمْ آيَاتُنَا وَنُفِئَ مِنْ شِسْتِكُمْ كَذَانٌ لَّمْ يَسْمَعُهَا كَذَانٌ فِي أَذُنَيْهِ وَقَرَأَ »^(٣) تجد أن جملة « كان في أذنيه وقرا » مؤكدة بجملة : « كان لم يسمعها » ، لأن معنى « كان لم يسمعها » : أنه لم يسمعها مصادفة أو قصدا لعدم سماعها ، ومعنى الثانية : أنه لم يسمعها لفساد سمعه ، فلما كانت الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ترك العطف لما بينهما من كمال الاتصال ...

(١) سورة البقرة آية ١٤ . (٢) سورة البقرة الآيات ٦ - ٩ .

(٣) سورة لقمان آية ٧ .

هذا - وكما ذكرت لك - أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى ، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظي ، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكداً لمضمون الجملة الأولى لاتفاق مفهوميهما كما رأينا في الآية الكريمة : « فقل الكافرين أمهلهم رويداً » ، وكما في الآية الكريمة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، الجملة « هدى للمتقين » ، يتفق مفهومها مع جملة : « ذلك الكتاب » ، لأن السكال فيهما كمال في الهداية - كما رأينا - ، وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي وهو أن يختلف مفهوم الجملتين ، ويكون معنى الثانية مقرراً للمعنى الأولى على نحو ما رأينا في الشواهد المذكورة ، وهذا يعني أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديداً ، ولكنه يؤكد معنى الأولى ... تأمل الآية : « كان لم يسمعها كان في أذنيه وقرا » ، نجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديداً يخالف معنى الأولى ، ولكنه يؤكد ويقرره ... وتأمل الآية : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » ، نجد أن جملة : « لا ريب فيه » ، تحمل معنى جديداً وهو نفي الريب عن القرآن ، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » ، وانظر في قوله تعالى : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. » (١) وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل في هذا القول الكريم ، ثم لاحظ أن كل جملة تحمل معنى جديداً بغير معنى الأخرى ، ولكنها تصب جميعاً في جهة واحدة ، وتختلف إلى غاية واحدة ، ألا وهي توكيد الوحدةانية ... (٢)

ومن أفوالهم في هذا الصدد قول المتنبي :

وما الدهر إلا من رواق قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فالشرط الثاني لم يعطف على الشرط الأول ، لأنهما قد اتحدا في المعنى واللفظ ، فلا حاجة إلى وصلهما بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينهما ..
وقول الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها في مضمرة القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

الجملة : « ستبقى لها .. » مؤكدة ومقررة للجملة : « ميعاد السلو المقابر »
ولذا ترك العاطف ، لأن شدة الترابط وكال الاتصال بينهما لا يحوجان إليه ..

الثاني : أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل السكل أو البعض
أو بدل الاشتمال ، من ذلك قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ .
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وَجَنَّتٍ وَعُيُونٍ »^(١) فصات الجملة الثانية : « أمدكم
بأنعام .. » عن الأولى : « أمدكم بما تعملون » ، لأن الثانية بمثابة بدل البعض
من الأولى ، حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التي يعلمونها ،
فبين الجملتين ترابط قوي ، وكال اتصال ، لا يحتاج معه إلى ربط بالواو .. ومثله
قوله تعالى : « يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »^(٢) .
فقوله : « يفصل الآيات » بدل بعض من قوله : « يدبر الأمر » ، لأن
تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيره .. وخذ قوله تعالى :
« بَلِّغُوا مِثْلَ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَعْمُورُونَ »^(٣) ، تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل السكل من الجملة الأولى .. وقوله

(١) - سورة الشعراء آية ١٣٢ - ١٣٤ . (٢) - سورة الرعد آية ٢ .

(٣) - سورة المؤمنون آية ٨٢ ، ٨١ .

١٩٠

عز وجل : « قَالَ تَأْتِيهِمْ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْرًا
وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (١) ، فصلت الآية الثانية « اتبعوا من لا يسألكم أجرا »
عن الأولى : « اتبعوا المرسلين » لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتغال من الأولى ،
إذ المزايا من الأولى حمل مخاطبين على اتباع الرسل ، والجملة الثانية أرفى
بهذا ، لأن معناها : لا تخسروا شيئا من دنياكم وتركوا وجه دينكم ، فيكون
لكم خيل الدنيا وجزاء الآخرة نعيم .

ولا ينبغي عليك أن الجملة الثانية التي هي بمثابة البدل أوفى بتأدية المعنى
منها الأولى بقوله : « أمدكم بأمرهم وبنين وجنات وعيون ، أوفى بتأدية المعنى
المراد من قوله : « أمدكم بما تعلمون » حيث دلت على المعنى بالتفصيل من
غير إحصاء إلى علمهم وهم المعاندون . . . وانظر في قول القائل :

أقول له أرحل لا تقم عن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما
تجد أن قوله : « لا تقيم » بدل اشتغال من قوله « أرحل » ، وقوله
« لا تقيم » أوفى بتأدية المراد ، إذ المقصود : إظهار شدة الكراهة لإقامته
بسبب خلاف سره العلن ، وقوله : « لا تقيم » يحقق ذلك ، لأنك إذا قلت :
لا تقيم عندي ، لم تقصد كفه عن الإقامة لحسب ، وإنما تقصد إظهار الكراهة
لإقامته .

الأمثلة : أن تكون الآية الثانية بيانا للجملة الأولى ، كما في قوله تبارك
وتعالى : « فَوَسَّوْا لِلَّذِي الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةٍ
الْخَلْدِ وَمَلَائِكَةٍ لَا يَسْبِي » (٢) في الآية الأولى : خفاء وإبهام ، وفي الثانية بيان
وإيضاح له ، والبيان والمبين كالشيء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر
لما بينهما من قوة الترابط وكال الاتصال . . . وتكون بلاغة هذه السورة في

أن للبيان بعد الإيهام وقعا في النفس وأثرا حسنا ، فالشىء إذا أبهم تطلعت
إليه النفس واشتاتت لبيانه ، فإذا ما جاء البيان صادف نفسا بقطة متطلعة ،
فيتمكن فيها فضل تمكن ...

ومن شواهد كذلك قوله تعالى : « مَا أَيْهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ » ^(١)
بجمله الاستفهام بيان لقوله : « اذكروا نعمه الله عليكم » ... وقوله عز وجل :
« وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَاهُمْ قَالُوا : مَا أَغْنَى
عَنْكُمْ تَجْمُؤُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » ^(٢) بجملة : « قَالُوا : مَا أَغْنَى
عَنْكُمْ » ، بيان لجمله . « نادى أصحاب الأعراف » ، وانظر في قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
يتآكلون مغالة وخيانة وبعاب قائلهم وإن لم يشعب
تجد أن قوله : « يتآكلون مغالة وخيانة » ، بيان لقوله : « بقيت في خلف
كجلد الأجر » ، ...

وخذ قوله تعالى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. » ^(٣) ، تجد أن جملة :
« يدبحون أبناءكم » ، والجملة المعطوفة عليها : « ويستحيون نساءكم » ، بيان
ولإيضاح الجملة : « يسومونكم سوء العذاب » ، ولذا لم يعطها عليها بالواو
لما بينها من شدة ترابط وقوة تلاحم وكال اتصال ...

ثم انظر في قوله عز وجل : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

١ - سورة الفجر آية ٤٨ .

٢ - سورة فاطر آية ٣ .

٣ - سورة البقرة آية ٤٩ .

عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعِجُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥
تجد أن الواو في هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصات جملة : : يسومونكم
سوء العذاب ، : : ويذبحون أبناءكم ، وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم الله
تعالى ... : اذكروا نعمة الله عليكم ... ، وهذا يقتضى تعداد النعم ، فجعل
الإنجاء من سوء العذاب نعمة ، وإنجاء الأبناء من التضيق نعمة أخرى ،
وكان التضيق جنس آخر لأنه أرفى على جنس العذاب وزاد عليه ، ثم جاء
إنجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة ، أما في سورة البقرة فلبس المقام مقام
تذكير بالنعم ، بل هو سرده لقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون
الجملة الثانية وما عطف عليها : : يذبحون أبناءكم ويستعجلون نساءكم ، بيانا
وتفسير للجملة الأولى : : يسومونكم سوء العذاب ، وليست جنسين آخرين
مغايرين لسوء العذاب ...

يقول المفسر : « فإني قلت : في سورة البقرة يذبحون ، وفي الأعراف : ذابحون ، وهما : ذابحون ، مع الواو ، فإني قلت : الفرق أن الذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وحيث أثبت جعل الذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر . . . » (٢) .

وهذا هو شأن الرار عندما تأتي بين الجمل التي بينهما كمال اتصال وقوة
ترابط ، لأن ما فيها من معنى التباين الذي لا يرحا ينعكس على هذه الجمل
فيوم أنها معان متباينة وبخلفة ، ورا ذلك يمكن الأسرار والدقائق اللطيفة .
انظر إلى قوله تعالى : « قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » (٢) ، ثم إلى قوله عز وجل

(۱) سورة إبراهيم آية ۶ • (۲) الکشاف ۳۶۸/۲ •

(۳) سورة الشعراء آية ۱۵۲، ۱۵۳.

في نفس السورة من قوم شعيب : « قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَنقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »^(١) ، نجد أن الواو قد ذكرت بين جملتي : « إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » ، « مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » ، في مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ، وتركت في مقالة هود لصالح ، ويعمل الزمخشري ذلك بقوله : « فَإِنْ قُلْتَ : هَلْ اخْتَلَفَ الْمَعْنَى بِإِدْخَالِ الْوَاوِ هَهُنَا وَتَرْكِهِ فِي قِصَّةِ هُودٍ ؟ » ، قلت : إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما منافي الرسالة عندهم : التسخير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم .. «^(٢) . . . وكان أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا في مقالاتهم الأسباب المنافية للرسالة ، ولذا أضافوا : « إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » ، فصارت الأسباب ثلاثة : كونه مسحراً وكونه بشراً وكونه من الكاذبين ، أما هود فكانهم لم يقصدوا تعداد هذه الأسباب ولذلك ذكروا سبباً واحداً وهو كونه مسحراً ثم قرروه بكونه بشراً . . . وخذ قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ »^(٣) .. وقوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »^(٤) وتأمل تجد أن جملة : « وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابِ غَلِيظٍ » ، مؤكدة ومقرزة للجملة قبلها : « نَجَّيْنَا هُودًا . . . » ، وكذا جملة : « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » ، مؤكدة لقوله : « أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ . . . » ، فبين

(١) سورة الشعراء آية ١٨٥ - ١٨٧ . (٢) الكشاف ١٢٧/٣ .

(٣) سورة هود آية ٥٨ ، (٤) سورة الاحزاب آية ٧ .

(١٩٣ - علم المعاني ج ٢)

الجلتين كال اتصال، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو، بل جىء بها لغرض لطيف وسر دقيق، وهو التنويه بشأن الميثاق، والتعظيم والتهويل من شأن العذاب، ولذا وصف كلا منهما بالغلظ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ يؤم أن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول، وأن العذاب الذى نجى منه هود ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفى هذا ما ينسب بعظم الميثاق ويؤمى إلى هول العذاب وفظاعته .. وانظر فى قول الشاعر :

أبى إن أهلك فإنى قد بنيت لكم بنية
وجعلتكم أبناء سادا . ت زنادكم ورية

تجد أن جملة : « جعلتكم أبناء سادات » ، بيان لجملة : « بنيت لكم بنية » ، وقد وصلها الشاعر بالواو التى تقتضى المغايرة ، وذلك لتمييز المعنى الذى دخلت عليه الواو فى باب الشرف والعبادة ، وكأنه يريد أن يجعله فوق ما ذكره فى البيت الأول ومتميزا عنه ...

ثم تأمل الآيات السكرية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِنْفِئَةٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » (١) .. « إِذَا أَنْصَرْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِقِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ... » (٢) .. « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ... » (٣) .. « أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْقَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٤) .. « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٥) فلا يخفى عليك

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| (١) - سورة الحشر آية ١٨ . | (٢) - سورة البقرة آية ١٩٨ . |
| (٣) - سورة آل عمران آية ١٢٤ . | (٤) - سورة البعد آية ٥ . |
| (٥) - سورة البقرة آية ٥ . | |

يجيء الوار في هذه الآيات بين جمل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكال اتصال ، وأن هذا المجيء ينفي بيمان دقيقة وأسرار لطيفة ، فتكرار الأمر بالتقوى ، وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثاني غير الأول ، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها . وكذا وحمل الأمرين بالذكر ، فاذكروا الله . . . واذكروهم . . . ، إعلاء لشأن الذكر وحض عليه ، وكان الأمر الثاني غير الأول . . . وفي عطف الاصطفاء على الاصطفاء : وإن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك . . . إيهام بأنهما متغايران وكان الله اصطفاهما أولاً ثم رجع فاصطفاهما ثانياً ، وفي هذا مزيد تكريم ، ومثله عطف الفلاح على الهدى . . . ذ أولئك على هدى . . . وأولئك هم المفلحون ، وفي آية الرعد أبرزت الوار ثلاث صور متغايرة للذين كفروا ، في كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئاً قائماً برأسه ، مستقلاً عن غيره (١) . .

وهكذا يتضح لنا أن مجيء الوار بين الجمل التي قد اشتد ترابطها وقوى تلاحمها وكمل اتصالها ووراءه من الأسرار واللطائف مالا يحصى على المتأمل الواعى والناظر البديق . . .

• • •

٢ - كان الانقطاع بلا إيهام : وهو أن يكون بين الجملتين تبين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما الإنشاء وخبراً لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، أو إلى فقدان المناسبة بينهما . . .

ويجب أن نعلم أن البلاغيين لا يجوزون هذا تفكيك الكلام وتناسف جملة وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق ، ولا يجمعه قران ، هم لا يقصدون بكال الانقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشادة ، لأن هذه الجمل لا يضمها سياق واحد ، ولا يجمعهما قران واحد سواء أعطف

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها . .

ألم لم تعطف، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التي تسوغ المعطف، وتجاوز الوصل... وسيتضح لك هذا من: حلال النصوص والشواهد...

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق في ثلاث صور :

الصورة الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً ، لفظاً ومعنى كما في قوله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . »^(١) فالجمله الأولى : « لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ » خبرية لفظاً ومعنى ، والجمله الثانية : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، إنشائية لفظاً ومعنى ، والفصل بينهما لا يوم خلاف المقصود ، ولذا وجب الفصل بينهما . . ونظير ذلك قوله تعالى : « وَأَنصِبُوا إِنَّا اللَّهُ بِحُبِّ الْمُقْسِطِينَ »^(٢) ، وقوله عز وجل : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ سَيِّغُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً »^(٣) ، وقوله جل وعلا : « وَالزُّبُرُونَ وَالزُّمَانُ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذَا أَقْبَرُوا وَيَقْمِرُونَ »^(٤) ، وقد فصل بين الجمل في هذه الآيات الكريمة لاختلافها إنشاءً وخبراً لفظاً ومعنى ، ولأن الفصل بينهما لا يوم خلاف المقصود . . وانظر في قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ يَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِبَاحُكُمْ »^(٥) ، وقوله عز وجل : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّا صَالَتُكَ مَسْكُونٌ لَهُمْ »^(٦) ، وقوله تعالى : « وَلَا تَهْجُلْ قَوْلًا أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَهْمُ عَلَىٰ قَبْرِهِ لَهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... »^(٧) .

(٢) - سورة الحجرات آية ٩ .

(٤) سورة الأنعام آية ٩٩ .

(٦) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٠١ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٧) سورة التوبة آية ٨٤ .

تجد أن الجمل الخيرية : د نحن نريدكم . إن صلاتك سكن . . . لهم
كفروا بالله . . . ، قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها ، وهذا الفصل إما أن
يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ،
ولما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتي بيانه حيث وقعت الجملة الثانية
جوابا لسؤال أثارته الأولى . .

ومن ذلك قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاوها فكل حشف امرئ يجرى بمقدار

فقد فصل جملة : د نزارها ، عن جملة : د أرسوا ، لكمال الانقطاع
أو لشبه كمال الاتصال ، ومثله قولك : لاندن من الأسد يا كلك ، برفع
د يا كل . . .

هذا ونرى كثيرا من الجمل التي اختلفت لإنشاء وخبر لفظا ومعنى قد
جاءت موصولة بالواو ، انظر إلى قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَالَهُمْ يُذَكَّرْ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِشَقٌ »^(١) ، وقوله عز وجل : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى »^(٢) ، وقوله عز قائلًا :
« فَإِنْ لَمْ تَنْفَعُوا وَآلَنْ تَنْفَعُوا فَأَتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . »^(٣) ، وقوله عز من قائل : « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلَ الْخُطَابَ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُلَعَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . . . »^(٤) ،
تجد أن الواو قد جاءت بين الجمل المختلفة لإنشاء وخبر لفظا ومعنى . . . ومن

(٢) - سورة طه آية ٨ ، ٩

(٤) - سورة ص آية ٢٠ ، ٢١ .

(١) - سورة الانعام آية ١٢١ .

(٣) - سورة البقرة آية ٢٤ ، ٢٥ .

ذلك المثال المشهور : لا تأكل السمك وتشرب اللبن برفع « تشرب ، وقولنا : باسم الله وصل اللهم على نبينا محمد ، إلى غير ذلك . . وهذه الواو قد ذهب النحاة في توجيهها إلى أنها « واو الاستثناء » ، وليست عاطفة للخبر على الإنشاء ، حيث يذكر ابن هشام أن الواو في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » (١) ، وفي قولهم : « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » وفي قولك : « دعني ولا أعود » : للاستثناء ، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف لزم عطف الخبر على الأمر أو النهي . . . (٢)

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أي العطف ، مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . . يقول الزمخشري في توجيه العطف في قوله تعالى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا » : « فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف أبواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يماثب بالقييد والإرهاق ، وبشر عمرا بالعمو والإطلاق » (٣) وهذا هو معنى الاستثناء الذي ذكره النحاة ، فهو عطف لقصة على قصة ، أو بمعنى آخر : عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، سواء أ جاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء ، كما في الشواهد المذكورة ، أم بين خبرين ، كقوله تعالى : « . . . ثُمَّ مِنْ مُصْنَعِ خَلْقِهِ وَغَيْرِ خَلْقِهِ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرْ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَيَّ » (٤) ، وقوله عز وجل :

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .
(٢) انظر المنفى ٢/ ٣٣ .
(٣) الكشف ١/ ٢٥٣ .
(٤) سورة الحج آية ٥ .

« مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(١)
وكافي قول الشاعر :

على الحكم الماتى يوما إذا قضى قضيه ألا يجوز ويقصد
أم بين إنشاءين كقوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ
أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ . وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ
مِنْ دُونِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »^(٢) وقوله عز وجل : « فَإِذَا
اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْثُوتًا .
وَلَا تَسْهَوْا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَسْكُوفُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَبَالَغُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ . . . »^(٣)

والفاء في ذلك مثل الواو في إفادة الاستئناف ، والفرق بينهما أن الواو
لمطلق الجمع فهي تفيد جنمق قصة إلى قصة ، أي : تضم جملا مسوقة لفرض
إلى جمل مسوقة لفرض آخر ، أما الفاء فترتب قصة على قصة ، أي ترتب
مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . .^(٤)

وخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهي إما واو
الاستئناف التي تفيد عصف الفصة على الفصة - كما وضعنا - ، وإما أن تكون
عاطفة لجملة على جملة ، ويكون في الكلام حذف ، والذي يحدد نوع الواو
أهي عاطفة أم للاستئناف ، إنما هو السياق ودمقضيات الأحوال .. انظر في

(١) سورة الاعراف آية ١٨٦ .

(٢) سورة الانعام آية ٥١ ، ٥٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) ارجع إلى دلالات انزراكيب ص ٣٤٦ وما بعدها .

قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا النَّبِيَّ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا »^(١)
 تجد أن الأمر ، اتخذوا ، مقول لقول محذوف والتقدير : وقلنا اتخذوا ،
 فالواو عاطفة بجملة خبرية على أخرى مثلها . . . ومثله قوله تعالى :
 « كَلِمًا أَرَادُوا أَن يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
 الْحَرِيقِ »^(٢) ، أى : وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . . . وخذ قوله تعالى :
 « قَالَ : أَرَأَيْبَ أَنتَ دَنَ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُفَنَّكَ
 وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا »^(٣) ؛ فالأمر « اهجرني » معطوف على محذوف والتقدير :
 فاحذرني واهجرني . . أى أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها . .
 الصورة الثانية : أن تختلف الجملتان لإنشاء وخبراً معنى فقط وتتماقنا لفظاً ،
 كقولنا : مات فلان رحمه الله ، وقال عمر رضي الله عنه ، بجملة : « رحمه الله » ،
 « رضي الله عنه » ، كل منهما خبرية لفظاً وإنشائية معنى ، لأنهما دعائيتان ،
 ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء
 معنى فقط ، ومن ذلك قول الشاعر :

ملكته حبلى ولكنه ألقاه من زهد على غار
 وقال : إني في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

بجملة : « انتقم الله » ، جملة دعائية فهي خبرية لفظاً إنشائية معنى ولذا
 فصل بينها وبين جملة : « قال إني في الهوى كاذب » ، ويجوز أن يكون الفصل
 لشبهه كمال الاتصال بتقدير : قلت ، حيث تقع جملة قلت : انتقم الله من
 الكاذب ، جواباً لسؤال أثارته الجملة قبلها . .

هذا ويشترط للفصل ألا يوهم خلاف المراد كما في الأمثلة المذكورة ، فإن
 أوهم خلاف المقصود وجب الوصل كقولك لصديق لك : أشقى أخوك ؛
 فيجيبك : لا وعافاك الله ، وجب الوصل بين جملة الجواب ؛ لأن الفصل

(٢) - سورة الحج آية ٢٢ .

(١) سورة البقرة آية ٢٥٠ .

(٣) سورة مريم آية ٤٦ .

يوهم خلاف المراد ، وهو أن "صديق يدعو عليك لا لك ، وسبأني إيهناج ذلك وببانه . .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى ولكن يفقد الجامع بينهما ، أى لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التى تصحح "عطف ، وذلك نحو قول أبى العتاهية :

الفقر فيها جاوز الكفايا من اتقى الله رجا وخافا

فقد انفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، ولكن لم توجد المناسبة التى تسوغ عطف الثانية على الأولى . ولذا فصل بينهما ، ومثله قول الآخر :

إنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

فلا يوجد الجامع الذى يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى ولذا فصل بينهما فى البيت . . .

ويعنى البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين ، أن يكون المسند إليه فى إحداهما بسبب من المسند إليه فى الأخرى وكذلك المسند ، هذا ما أجمع عليه البلاغيون ، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضا فى المتعلقات ، وسنفصل القول فى هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل ، والذى نريد أن ننبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة ، لايتأنى أن يضمها سياق واحد ، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبررا لوضعها فى قران ، وجمعها فى سياق واحد ، بل إن مرادهم بفقدان الجامع : المناسبة الخاصة التى أشرنا إليها ، لا المناسبة العامة التى ينبغى توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف ، انظر مثلا إلى تلك الجمل : " . . . أن زكريا ربه أن يهبه وليا يرثه واختلاف النقاد فى شعر أنى تمام والضحك يبطل الصلاة ويشهد الحر صبغا واليهود أعداء العرب ، . . . هـ . . . انهما لا تقال فى سياق واحد هكذا فهى فاسدة سواء أفصلت أم وصلت ، ولذا نبه البلاغيون

إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظر ، وتقدم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه ، وذكروا حسن التلخيص من غرض إلى آخر
فالمناسبة إذاً نوعان ، مناسبة خاصة وهذه إذا فقدت صح اقتران الجمل ، ولكنهما تكون مفصلة لكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص ، ومناسبة عامة وهذه لا بد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصلة ، وإلا فسد الكلام وما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا »^(١) ، فقد فصل بين الذين يؤمنون ، و « إن الذين كفروا » لعدم وجود المناسبة التي تسوغ العطف ، أما المناسبة العامة التي تصحح جميع الجملتين في سياق واحد فهي : التضاد بينهما ، وهو رابط حتى ومشير لما يتهمته من التشويق إلى معرفة القصة الثانية ، قصة السلفرة . بعد الوقوف على قصة المؤمنين ونظير الآية قوله تعالى : « طَسَّ . تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زُفْنَا لَهُمْ أَسْكَالَهُمْ فَهُمْ يَنْفَتَهُونَ »^(٢) ، وخذ قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »^(٣) ، نجد أن الترابط قوى بين الشمس والقمر بحسبان ، وبين ما قبله ، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والذي أحكم حركة الشمس والقمر أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي غير موجودة ولذا فصل بين الشمس والقمر بحسبان ، وبين

(٢) سورة النمل آية ١ - ٥٥

(١) سورة البقرة آية ١ - ٦

(٣) سورة الرحمن آية ١ - ٥٥

ما قبلها . . إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة ، والمناسبة العامة واضحة جلية . .

هذا - وكما ذكرت - أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع ، فهي واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة على القصة ، سواء أوقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين ، على نحو ما مر بك من شواهد ، وتسكث هذه الواو الاستئنافية في القصص القرآني ، حيث تعطف بها القصة على القصة ، انظر في قوله تعالى « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَمُوسَى عَلَيْهِ سَلَامٌ . وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْرِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ... وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ »^(١) نجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وعذيقه ، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى ، ثم ثمود وهكذا وتسمى هذه الواو كما قلنا دواو الاستئناف ، ومثلها دفاء الاستئناف ، وقد مر الفرق بينهما فالاستئناف ثلاثة أنواع : استئناف بالواو أو الفاء ، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون في تلك الجمل التي تتفق لإنشاء أو خبر لفظا ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسووغ للعطف فتأتى الجملة الثانية وقد استؤنف أى : ابتدئ بها معنى جديد ، واستئناف بياتى وهو شبه كمال الاتصال الذي ستحدث عنه الآن . .

• • •

٣ - شبه كمال الاتصال : ويسمى أيضا بالاستئناف البياني وهو أن تكون .

(١) سورة الذاريات آية ٣٨ - ٤٦ ، .

الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جواباً له كما في قوله تعالى :
 « قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ »^(١) فالجملة الأولى :
 « إنه ليس من أهلك » ، أثارت سؤالاً خفياً : كيف لا يكون من أهلى وهو
 أبى ؟ وجاءت الجملة الثانية جواباً لهذا السؤال المثار : « إنه عمل غير صالح » ،
 ولا يكون الجملة الثانية جواباً لسؤال تتضمنه الجملة الأولى ، وبما بحث منها ،
 كانت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ومن ثم ترك
 العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، لما بينهما من ارتباط وثيق
 وصلة قوية . . انظر إلى قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الَّذِينَ أُدْرِكُ مَا هُم بَعْدَ نَارٍ حَامِيَةٌ »^(٢) ، وقوله عز وجل : « وَمَا أُدْرِكُ
 مَا الْمُتَعَبَّةُ نَفْسُ رَقَبَةٍ »^(٣) ، وقوله جل وعلا : « قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبَشِّرُونَ
 بِلِقَائِكُمُ النَّارَ وَعِنْدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »^(٤) ، نجد الجواب قد فصل عن
 السؤال المصرح به في هذه الآيات الكريمة ، وفصل الجواب عن السؤال
 المصرح به ، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية ،
 وإما لكمال الانقطاع . لأن جملة السؤال إنشائية ، وجملة الجواب خبرية
 وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به ، فإنه يفصل كذلك عن السؤال
 المقدر الذى اقتضته الجملة الأولى وأثارته في ذهن المخاطب وقد ذكر البلاغون
 أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البياني أى شبه كمال الاتصال ، وليس
 لكمال الاتصال الذى مر ، لأن الجواب ليس بياناً للجملة الأولى ، بل لشيء
 ينبعث منها وهو السؤال الذى أثارته واقتضته ، وقد سمى الاستئناف هنا
 استئنافاً بيانياً وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة ، أى :
 القطع ، لأنه استئناف بوضوح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة

(٢) سورة القارعة آية ٨ - ١١

(١) سورة هود آية ٤٦

(٤) سورة الحج آية ٧٢

(٣) سورة البلد آية ١٢ ، ١٣

الأولى ، فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى في الواقع ، ومنقطعة عنها ، بل مبيّنة وموضحة لشيء فيها ، ولذا سميت الثانية مستأنزة استئنافاً بيانياً .. هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن السبب العام ... كما في قول الشاعر :

قال لي كيف أنت ؟ قلت عليل سر دائم وحزن طويل

الجملة : « قلت عليل » ، أثارت سؤالاً عن سبب العلة ، تقديره : ما سبب علتك ؟ ، وجاءت الثانية : « سر دائم وحزن طويل » ، جواباً له ، أما جملة : « قلت عليل » ، فمفصلة عن السؤال المصرح به قبلها الكمال الاتصال أول كمال الانقطاع ، كما أوضحنا ..

ومن ذلك قول أبي العلاء المبرور :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمني

معهط حياتي لفر بعد ما غرضا

جربت دهرى وأهليه فما تركت

لي التجارب في ود امرئ غرضاً^(١)

فقد أشار البيت الأول تساؤلاً عن سبب سأمه وضجره ، فيكأن قائله قال له : لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذي جعلك تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك ؟ ، فأجاب البيت الثاني هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول : « جربت دهرى وأهليه .. » ، ولذا وصل أو قل : ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق ، وترابط قوى .. وخذ قوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا

(١) غرض : بكسر الراء : مل وسئم ونجس وبلتحم : حاجة . وللغز : الغاف . وما غرضاً : لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت ..

حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»^(١) ، نجد أن جملة : « تراود فتاها عن نفسه » قد أثارَت سُؤالا عن سبب تلك المراودة وهو سؤال عن السبب العام ، وقد جاء جوابه : « قد شغفها حباً » ثم إن هذا الجواب أثار تساؤلاً آخر نحوه : وما رأيك في هذا ؟ ، فأجيب : « إنا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ » وتلاحظ أن هذا التساؤل الثاني ليس عن السبب ، بل هو عن رأيهم فيما صنعتُه امرأة العزيز من المراودة الناجمة عن حبها لَهَا .

وقد يكون السؤال المثار عن السبب الخاص ، أى عن سبب معين محدد ، كما في قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرين
فقل للشامتين بنا أنيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

فقد انبعث من شطر البيت الثاني تساؤل عن سبب معين ، وكان سائلاً : لم نقول لهم أفقر ؟ هل سيلقوا كما لقيتم ؟ ، فأجيب سيلقى الشامتون كما لقينا . . . ومن هذا قوله تعالى : « وَمَا أُرْسِي عَنْفِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ »^(٢) ، حيث فصلت جملة : « إن النفس لأماراة بالسوء » ، عما قبلها ، لأنها وقعت جواباً لسؤال تضمنته وهذا السؤال عن السبب الخاص ، إذ نحوه : لم نفيت التبرئة عن النفس ، هل النفس أماراة بالسوء ؟ ، فجاء الجواب : « إن النفس لأماراة بالسوء . . . » ومنه أيضاً قوله عز وجل : « وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهُمْ إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ لَهُمْ رُحَاهُ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتَاءً عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُ ذِيقَةٌ فَمِنْهُمْ يَسْرِقُونَ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(١) ، فقد فصلت الجملتان : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » ، ، ، ، سيجزيهم وصفهم ، ، ، عما قبلهما أشبه كمال الاتصال ، حيث وقعت كل منهما جوابا لسؤال اقتضته الجمل قبلها ، وكانت سائلا سأل : لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة ؟ هل سيجزون على ذلك ؟

الجاءت الإجابة : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » سيجزيهم وصفهم ، ، ، وواضح أن السؤال المثار في الآيتين عن السبب الخاص ، ، ، وقد يكون السؤال المتبعث من الجملة الأولى عن غير السبب ، ، ، كما في قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَافِرِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْيَمَنِيِّ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمَجْلٍ تَمِيمٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِبَلَاءٍ عَلَيْهِ^(٢) » ، فقد فصلت الجمل : « قال : سلام » « قل : ألا تأكلون » ، ، قالوا : لا نخف ، عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثبتت في ذهن السامع ، وكأنه سأل فإذا قال إبراهيم ؟ فأجيب : « قال : سلام . . . قال : ألا تأكلون » ، وماذا قالت الملائكة ؟ قالوا لا نخف وبشروه . . . وبمثل هذا كل ما تراه في التنزيل من لفظ ، قال ، مقصولا عما قبله ، غير معطوف عليه بماطف . . . ومن أنوالهم في هذا الصدد ، قول الشاعر :

زعم العواذل أننى في غمرة صدقوا ولـكن غمرة لا تنجلي^(٣)
فالجمل الأولى : « زعم العواذل أننى في غمرة » ، حركت السامع وأثارت في ذهنه سؤالا : صدقوا في ذلك الزعم أم كذبوا ؟ ، فأخرج الكلام مخرجه

(١) سورة الأنعام آية ١٣٨ ، ١٣٩ (٢) سورة الذاريات آية ٢٤-٢٨

(٣) الغمرة : الشدة . وتنجلي : تنكشف وتزول . . .

لو كان ذلك قد قيل له ، ففصل جملة : صدقوا ، ، ومثله قول جندب
ابن عمار :

رغم العواذل أن نأق جندب
بجنوب خبت عريت واجمت
كذب العواذل لو رأين مناخنا
بالقادية قلن : لج وذات (١)

فقد فصل البيت الثاني عن الأول لوقوعه جوابا لسؤال فحواه أصدق
أم كذبن في زعمهم ؟ ، وتلاحظ أن واو الجماعة في البيت الأول في قوله
صدقوا ، ، قد عادت إلى لفظ العواذل ، ، إما على أنه جمع عاذل جمع
سماعياء مثل فارس : فوارس . أو على أنه جمع عاذلة بمعنى جماعة عاذلة من
الذكور . . أما في بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة : رأين وقلن ، على
أنه جمع عاذلة أى جمع مؤنث . . كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أى : جملة
الجواب في بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمر ، فزاد بهذا
أمر الاستئناف تأكيداً ، من حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ما قبله ،
وأتى به مأنى ما ليس قبله كلام . . ومثله - وقد مر بك - قول الشاعر :

فقل للشامتين بنا أقبوا . سيلقى الشامتون كما لقينا

فلم يقل : سيلقوا ، بل وضع الظاهر موضع المضمر ليزداد الاستئناف
تأكيداً . . ومن الشواهد أيضا قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحجب

(١) عريت واجمت : أهملت وأزيت عنها رحلها واستراحت . لج وذات : اشتد في
السير فأصب نازلة . .

فكأن سائلا سألته : كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك
ومآربك ؟ فأجاب : إن السماء ترجى حين تحتجب ..

وقول الآخر :

يرى البخیل سبیل المال واحدة إن الکريم یرى فی ماله سبلا

و كأن المخاطب عندما سمع ناشطراً الأول سأل ، وما رأى الکريم فی ماله ؟
فأجاب : إن الکريم یرى فی ماله سبلا .. وقول الآخر :
فغناها وهی لک الفداء إن غناء الإبل الحداء

فعندما قال الشاعر : غناها وهی لک الفداء ، توهم أن سائلاً سألته : وما غناء
الإبل ؟ أغناؤها الحداء ؟ أم أنك تقصد شيئاً آخر غير الحداء ؟ ، فأجاب : إن
غناء الإبل الحداء .

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى ما يفيد من إثارة المخاطب وتحريك
ذهنه ، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى ، قد انبعث في ذهن المخاطب
أو في ذهن المثكلم الذي أدرك أن الجملة ينبعث منها هذا السؤال ، وأن
المخاطب ينتظر جواباً له وبیاناً فعندما يأتي البیان ويرد الجواب يقع في النفس
أحسن موقع وأفضل . ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرئ القيس :
كان قلوب الطير رطيا وباهسا لدى ركرها العناب والحشف البالي
فهذا مفهوم المعنى ، فإن اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال : كأنه
رطيا العناب وكأنه باهسا الحشف البالي ؟ قبل له : العربي الفصيح الفطن يرى
بالقول مفهوم ما ، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا . (١) ...
ولما قال خاف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته :

(١) انظر الا-كامل ج ٢ ص ٣٦ .

بكرًا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التيسير
 ولو قلت يا أبا معاذ : بكرًا فالنجاح ، كان أحسن ، ، فقال بهمار : إنما
 بذيتها أعرابية وحشية .. ولو قلت : بكرًا فالنجاح ، كان من كلام المولدين ..
 ومراده أن التكرار ، أى تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لادقة
 فيه ، أما ما تضمنه فقد أفاد التركيز بوجه خفي دقيق ، مرجعه إلى انبعاث
 السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه ... وقد أجمل القزويني
 سر بلاغة هذا الأسلوب في قوله : د وتزِيل السؤال بالفجوى منزلة الواقع
 لا يصر إليه إلا لجهات لطيفة : إما لتنبيه السامع على موقعه ، أو لإغناؤه أن
 يسأل ، أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو لقصده
 إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف ، أو لغير
 ذلك بما ينخرط في هذا السلك . (١)

هذا ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استأنف عنه كقولك :
 أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، ومنه ما يبني على صفته . كقولك :
 أحسنت إلى زيد ، صديقك القديم أهل لذلك ، وهذا أبغ لانعوائه على بيان
 سبب الإحسان ..
 وقد تأتي الجملة المستأنفة أى جملة الجواب بلا حذف شيء منها ، كما في
 قول المتنبي :

وما عفت الرياح له عفا من حدا بهم وساقا
 وكأني قول الوليد بن يزيد الأرمي :

عرفت الميزل الخالي عفا من بعد أحوال
 عفا كل حنان عسوف الوبل هطال (٢)

(١) الإيضاح ٧٩/٢ .

(٢) عفا : درس والمراد بالأحوال : الأحوال التي سمع فيها بأحبابه وسكانه .
 والحنان : الحبيب وعسوف الوبل : هديد المطر .

لما نفى المتنبي العفاء عن الرياح ، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو ؟ أو ما هو ؟ فأجابا عن ذلك : عفاء من حمدا بهم وساقا . . عفاء كل حنان ، ولم يحذف شيء من جملة الجواب ، إذ لو حذف الفعل فقبل : من حمدا بهم . . كل حنان ، لما دل دلالة عليه . و ذكر جملة الاستئناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انفصالا وانتم استقلالاً عن الجملة الأولى التي انبعث منها السؤال . .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة عليه ، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للذباب والاطلال ، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء ، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد . .
من ذلك قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلي عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خصل^(١)

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة ، اشتات النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته ، وكأنها سألت : ما خبر هذا الطلل ؟ وما صفته ؟ ، فاستأنف الشاعر حديثاً عنه ، وبني الكلام على حذف صدر الاستئناف المستأنف إليه ، فقال : ربع قواء أذاع المعصرات به . .

ومثله قول ذى الرمة :

إلى لوائح من اطلال أخوية كأنها خلل موشية قشب
دار لمة إذى ناعنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب^(٢)

(١) المعصرات : السحاب وكذا الحيران والسارى . أذاع به : ذهب . والخصل :

الكثير . والقواء : الموحش . .

(٢) اللوائح : ما تبين ولاح . . وأخوية : بيوت مجتمعة واحدتها حواء . .

والخلل : بطائن أجفان السيف واحدتها : خلة . وموشية : منقرشة . وقشب : جدد

استأنف مدينا شأن الأطلال ، وحذف صدر الاستئناف ، إذ المراد :
تلك دار لمعة .. ومنه في المديح قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف الملى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بغاة مكارم وأساة كغم دماؤهم من الكلب الشفاء^(١)

وقول الآخر :

سأشكر عمرا إن تراخت مني ، أيادي لم تمنن وإن هي جلت
قبي غير محجوب الغنى عن صدقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
وقوله :

أضأت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ناقبه
نجوم سما كلبا انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكب^(٢)

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معاذ أخرى
في حذفون عندئذ صدر الاستئناف للدلالة الدليل عليه .. فإن قلت : ألا يؤدي
حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها ، وعندئذ
لا يكون انضمامها تاما واستقلالها كاملا ؟ .. قلت : ليس كل حذف يؤدي
إلى الاحتياج وعدم الاستقلال ، بل إن الحذف ، في الشيء أحد المذكورة قد
ساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك
هذا عندما تقدر المحذوف فتقول : ذلك ربع فواء .. تلك دار باروة ...
.. ناة مكارم هو قبي غير محجوب الغنى .. هم نجوم سما .. إذ تجد أن
اسم الإشارة والغنمير قد جعل تلك الجمل مرتبطة بما قبلها محتاجة إليه ،
أما الحذف فيجعلها مستقلة عنه .. ولاحظ أن هناك فرقا بين هذه الأهد

(١) السكام : الجرح . والكلب : داء يصيب الإنسان إذا عضه كلبه ..

(٢) الجزع : خرز فيه بباض وسواد ..

وبين يتي المتبني والوليد، إذ الحذف بقي يتي المتبني والوليد يؤدي إلى الغرض واللبس لعدم وجود دليل يدل على المحذوف، وانرا: وما عفت الرياح له محلا من حداثهم... عفا من بعد أخوال كل حنان عنون الويل... نجد المعنى لا يستقيم عند الحذف، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستثناء محتاجة إلى ما قبلها... أما حذف صدر الاستثناء في المواضع المذكورة، فقد ساعد على استقلالها وعدم احتياجها إلى ما قبلها، كما وضع لك... ومما حذف فيه صدر الاستثناء من أي الذكر الحكيم قوله تعالى: وَيَسْمَعُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ... (١) بقراءة يُسْمَعُ مبنيا للمفعول، وكان سائلا سأل: من يسمع؟ فأجيب: رجال يحذف صدر الاستثناء وهو هنا المستند... ومن ذلك أسلوب نعم وبئس مثل نعم الرجل خالد، وبئس رجلا عمرو، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو المذموم خبر مبتدأ محذوف، وكان سائلا سأل: من الممدوح ومن المذموم؟ فأجيب: الممدوح خالد والمذموم عمرو.

وقد يحذف الاستثناء كله ويقوم ما يدل عليه مقامه، كقول الجاهلي:

زعمتم أن إخوتكم قریش لهم إلف رايں لكم إلف

فقد أثار صدر البيت سؤالاً تقديره: أكدبنا أم صدقنا؟ فأجيب: كذبتم في زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله: لهم إلف وليس لكم إلف مقامه لدلالته عليه، ويجوز اعتبار قوله: لهم إلف وليس لكم إلف،، جوابا لسؤال انتباهه الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل: كذبتم، قالوا: لم كذبنا؟ قال: لهم إلف. رايں لكم إلف، فيكون في البيت على هذا استثنافان. ويجوز أن يكون الفصل في البيت أشبه بكل الانقطاع الآتي بيانه...

وقد يحذف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى :
 « وَاللَّسَّمَاءَ هَٰئِنَّا بِآيَاتِنَا تُنصِفُ الْجَحِيمَ . وَالْأَرْضَ نَنْقَسِبُهَا فَتَتَبَرَأُ مِنَّا »^(١) .
 « وَالْأَرْضَ نَنْقَسِبُهَا فَتَتَبَرَأُ مِنَّا »^(٢) . أي : نعم الماهدون نحن ، وقوله عز وجل : « وَالْأَرْضَ نَنْقَسِبُهَا »
 صائر رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ إِذَا أُوْتِيَ »^(٣) ، أي : نعم العبد أيوب ..

هذا وقد تأتي الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو الواو ، وتسمى
 الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف ، ولكن الاستئناف
 بهما يختلف عن الاستئناف البياني ؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال
 الكلام وانفصاله ، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة أو عطف جمل
 مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، كما مر بك .. ومن ذلك
 قوله تعالى : « يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْتُمْ صَدَقْنَاكُمْ عَنْ
الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ » بل كنتم مجرمين . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ سَكْرُ الْأَيْلِ وَالْذَّمَارِ .. »^(٤) .

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو ، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية
 الأولى ، إذ وقعت جواباً لسؤال تضمنته ، وجاءت الآية الثالثة بالواو فأذنت
 بالاستقلال ، وصار الكلام معاً من قبيل عطف القصة على القصة ..
 ومن ذلك قول الشاعر :

أرى بصرى عن كل يوم وإيلة
 بكل وخطوى عن مدى الخطو يقصر
 ومن يصحب الأيام تسعين حجة
 يغير نه والدمر لا يتغير

(٢) سورة ص الآية ٤٤

(١) سورة الداريات الآية ٤٧ ، ٤٨

(٣) سورة سبأ آية ٢١ ، ٣٣

حيث جاء البيت الثاني مستأنفا بالوار التي تؤذن بالاستقلال .
 • الاستئناف بالفاء يجعل الكلام مرتباً بمضه على بعض ، وليس متولداً
 بمضه من بعض . انظر إلى قول أبي تمام:
 لانه كرى عطل الكريم من الخفى فالسبل حرب للسكان العالى

نجد أن الفاء قد جمعت الكلام مرتباً بمضه على بعض ... وخـذ
 قوله تعالى : « قَالَتَا : لَا نَسْبِقُ حَتَّى يُصْدِرَ الرَّعْدَ وَابْرَأَنَا شَيْخًا كَبِيرًا فَسَقَى
 لَهُمَا شَمًّا تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي إِنَّمَا أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَتَقَدَّرَ
 فَبَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِغْنَاءٍ ... » (١) ، نجد أن هذه الفاءات :
 ، فسقى لهما .. فقال رب .. بجاءته إحداهما .. ، قد جمعت الكلام مرتباً
 بمضه على بعض ..

أما الاستئناف البياني فالكلام فيه يتولد بمضه من بعض ، إذ ينبعث من
 الجملة الأولى سؤال وتقع الثانية جواباً له ، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط
 الجواب بالسؤال وهو ارتباط داخلي وثيق ، وليس ارتباطاً لفظياً ظاهراً ،
 كما في الاستئناف بالفاء ، ولا استقلالاً وتبايناً كما في الاستئناف بالوار ..

٤ - شبه كال الانقطاع : وقد عرفوه بقولهم : أن تكون الجملة مسبوقة
 بجملةتين يصح وصلها بالأولى منهما لوجود المناسبة التي تسوغ الوصول ،
 ولا يصح عطفها على الثانية ، فيترك العطف دفعا لتوهم العطف على الثانية ،
 وتصيح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى ، بهذا الحال ...
 من ذلك قول الشاعر :

وتأتان سلمى أنى أبغوا بها بدلا أراها في الضلال نهم
 فقد فصل جملة : « أراها في الضلال ... » عن الجملة الأولى : « تظن

سلى . . . ، لأن عطفها عليها يؤهم أنها معطوفة على جملة : . . . أبغى بها
يدلا ، فتكون به — ذا من مظهرات سلى ، وهى من كلام الشاعر ، لا من
مظهراتها ، فدفعنا لهذا التوهم وجب الفصل . . ومثله قول الآخر :

يقولون : لاني أحمل الضيم عندهم
أعوذ بربي أن يضاه نظيري

فصل جملة : « أعوذ بربي » عن جملة : « يقولون » مع جـواز عطفها
عليها ، حتى لا يتوهم عطفها على جملة : « أحمل الضيم . . » ، فتكون من
مقولههم وهى ليست منه ، بل هى من كلام الشاعر .

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الجاسى :

زعمتم أن إخوانكم قرش لهم ألف وليس لكم إلف

فيهكون فصل جملة : « لهم ألف . . » عن جملة : « زعمتم » ، دفعا لتوهم
عطفها على جملة : « أن إخوانكم قرش » ، إذ هى ليست من زعمهم بل من
كلام الجاسى . . وانظر فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَا إِلَى شَاطِئِهِمْ قَالُوا :
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »^(١) ، فقد مر بك
امتناع عطف جملة : « الله يستهزئ بهم » على جملة : « إنا معكم » ، أو على
جملة : « قالوا » ، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه : « إذا خلوا إلى
شواطئهم قالوا » ، فجائز ، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين
المدكورتين . . وكذا القول فى الآيات الكريمة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا لَهُمْ أَعْيُنٌ يَلْمِزُونَ وَلَكِنْ
لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا
آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا لَهُمْ أَعْيُنٌ يَلْمِزُونَ وَلَكِنْ لَا يَحْقِرُونَ عَلَيْكَ أَنَّهُ عَمَكَرُوا »^(٢) ؛ ولا يخفى عليك أنه يمكن رد

سبب الفصل في هذه الشواهد إلى شبه كمال الانصال كما نبه كثير من البلاغيين وبذا يلغى هذا الموضع من موضع الفصل .

هـ - الفصل لعدم الاشتراك في القيد : أو كما عرفت به بعض البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العظام وهو عدم الاشتراك في الحكم . . وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ . » ^(١) ، فقد فصل جملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » عن جملة : « قَالُوا » ، لأن قولهم مقيد بوقت خلوعهم إلى شياطينهم أما استهزاء الله بهم فدائم في كل آن ، وليس مقيد بهذا الوقت ، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك في القيد وأما فصل هذه الجملة : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » عن جملة : « إِنَّا مَعَكُمْ » ، فلعدم قصد التشريك في الحكم الإعرابي . كما مر بك في الجمل التي لها محل من الإعراب بقوله أن ذكر كذا بما نيتك إليه من أن الجمل التي لها محل من الإعراب توضع لما تخضع له الجمل التي لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة ، وانظر مثلاً في قوله تبارك وتعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدْيَنَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا نَنظُرُهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » ^(٢) ، نجد أن الجمل الثلاث : « امرأه العزيز تراد قد شغفها حباً » ، « إنا ننظرها في ضلال قد وقعت مقولا لقول النسوة فلما من الإعراب محل ، وقد فصل بينها لشبه كمال الانصال ، إذ أثارت الجملة الأولى سهواً فحواله ما سبب تلك المرادة ؟ ، فجاء التعليل : « قد شغفها حباً » ، وكذا تضمنت الثانية سؤالاً تقديرية : « وما رأيكن ؟ » ، فأجيب بالجملة الثالثة : « إنا ننظرها في ضلال مبين » وارجع إلى ما سبقناه من شواهد في مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء في تلك المواضع ، وأنت لا تستطيع تهمر هذه المواضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب . .

(٢) - سورة يوسف آية ٣٠ .

(١) - سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ .

وهذا نكون قد فرغنا من مواضع انفصل بين الجمل وننتقل الآن إلى
مواضع الوصل ...

• • •

مواضع الوصل بين الجمل : - وقفنا - فيما سبق - على أن الجمل التي لها محل
من الإعراب ، يوصل بينها إذا قصد التثنية بك في الحكم الإعرابي ، ووجدت
المناسبة المسوغة للعطف ، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل .
وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين الموصول بين الجمل وهما :

١ - التوسط بين الكلمتين ، والمراد بالكلمات : كمال الاتصال وكمال
الانقطاع ، وقد عرفوه بقولهم : أن تنفق الجملتان خبراً أو إنشأً لفظاً
ومعنى ، أو معنى فقط ، فمثال انفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى قوله تعالى :
« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » ^(١) ،
وقوله عز وجل : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُخَوِّذُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُبْذِلُ مِمَّنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْآخِرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . توليح الأصيل في النهار وتوليح النهار في الليل
وتنزع الخي من التمثيل وتخرج الخي من الخي وترزق من
تشاء بغير حساب » ^(٢) ، فقد انفقت الجملتان : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ »
« إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » في الخبرية لفظاً ومعنى ، ووجدت المناسبة
المسوغة للعطف ، ولم يمنع من العطف مانع ، ولذا واصل بينهما كما نرى .
وكذا القول في الآيتين : « قُلِ اللَّهُمَّ » ، ولا ينبغي عليك ما يفعله الجمع بين
الجمل في الآيتين ، من إبراز قدرة الله عز وجل في أسى معانيها ، وتأمل :
تَوْكِّلْ الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ وَتُخَوِّذُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُبْذِلُ ... تولج الليل في النهار

وتولج النهار في الليل . . . وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . . . لا يقدر على تلك الأعداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك . . . ومثال ما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية لفظاً ومعنى قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »^(١)، فقد اتفقت الجملتان : خذوا زينتكم . . . كلوا . . . اشربوا . لا تسرفوا ، في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ومن ثم وصل بينهما . . . وما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية معنى ، قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْأَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا . . . »^(٢) ففي الآية ثلاث جمل ، الأولى : لا تعبدون إلا الله ، والثانية حذف فيها فعل الأمر وتقديرها : واحسنوا بالوالدين إحساناً ، والثالثة : وقولوا للناس حسناً . والجملتان الثانية والثالثة لإنشائيتان لفظاً ومعنى كما ترى ، أما الأولى خبرية لفظاً ، لإنشائية معنى ، لأنها تعنى النهى أى : لا تعبدوا إلا الله ، وهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث في الإنشائية في المعنى فقط دون اللفظ . . . وما اتفقت فيه الجملتان في الخبرية معنى قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أَنشِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ لِّمَا تُشْرِكُونَ »^(٣) بجملة : « واشهدوا . . . » لإنشائية لفظاً خبرية معنى ، إذ المراد : إني أشهد الله وأشهدكم ، وهذا يكون اتفاق الجملتين في الخبرية معنى لا لفظاً . . . وإنما عادت مثل هذه الجمل ، توسطاً بين الكمالين ، لا اتفاقاً في الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصل ، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذى عرفته . كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والو عرفتها في صيور كمال الاتصال ، ولذا سمى البلاغيون هذا الموضع بالتوسط بين الكمالين .

(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(١) سورة الأعراف آية ٣١ .

(٣) سورة هود آية ٥٤ .

٢ - كمال الانقطاع مع الإيهام : كقولك : ألتج : ألتج هذه البذرة ؟
 فيجيبك : لا يوافقك الله ، وقولك : تطدق لك المعنى ، والدك ؟ فيجيب :
 لا يوافقك الله به . وقولك : ألتج العاصي : ألتج جليلك لا وينهيه الله من فليين
 الجملةين كما ترى كمال انقطاع : لأن جملة : لا يوافقك الله من فليين ،
 والجملة : هاك الله . لطف الله به من فليين : الله من فليين : لطف الله به من فليين ،
 وكمال الانقطاع : كما درست به . يوجب الفصل بين الجملةين : لأن
 الفصل هنا يوم خلاف المراد ، إذ يتوهم أن الجواب يدور بعدم العافية وعدم
 اللطف وعدم الهداية ، وأنه قد أجاب بجملة واحدة منفية ، ساطت فيها ، لا ،
 على ما بهذهها وليس بجملةين : قدفما لهذا الإيهام يجب الوصل بين الجملةين ،
 ولذلك إذا اتدفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلا بهذ النطق بالحرف
 لا ، أو يذكر الجملة المنفية كاملة ، فيقول : لا أيهه ، ثم يذكر الجملة
 اللغائية : هاك الله ، عندئذ يجب الفصل ، إذ لا إيهام . . .
الجماع أو التناسب بين الجملةين : عرفت أن اتفاق الجملةين في الخبرية
 أو الإثباتية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع الماسوخ
 للوصل ، وكذا عند قصد التثنية في المسك الإعرابي ، فما مراد البلاغيين
 بهذا الجامع أو بتلك المناسبة ؟ يريد البلاغيون بذلك : أن يكون المسند إليه
 في الجملة الأولى بسبب من المسند إليه في الجملة الثانية ، وكذا المسند
 فيهما : يقول عبد القاهر ، واعلم أنه يجب أن يكون الحدث عنه في إحدى
 الجملةين بسبب من الحدث عنه في الأخرى ، كذلك ينبغي أن يكون
 الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر الأول
 نقلت : زيد طويل القامة وعمره شاعر ، كان خالفا ، لأنه لا مشاكلة
 تولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر ، وإنما الواجب أن يقال : زيد كاتب
 وعمره شاعر ، وزيد طويل القامة وعمره قصير ، وجملة الأمر أنها - يقصد
 الواو - لا تجزئ حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفظا لمعنى في الأخرى ومضاماله ،
 مثل أن زيد ادعرا إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشبكي الأحوال على الجملة ،

كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مصدرة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك ، كذا السبيل الداء والمعاني في ذلك كالأشخاص ، فإنما قلت مثلاً : العلم حسن والجهل قبيح ، لأن كون العلم حسناً مضموم في المقول إلى كون الجهل قبيحاً ، واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا : هو يقول ويفعل ويضرب وينعم ويسى ويحسن ويحل ويعقد وأشباه ذلك ، ازداد معنى الجمل في الواو قوة وظهوراً وكان الأمر حينئذ صريحاً .. (١)

وقد اختلف البلاغيون في المتعلقات ، دل بأنهم ان يمتد فيها تناسب أيضاً ؟ والبصواب أنه لا يعتبر فيه ذلك إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة في الجملتين ، كقوله تعالى : « يَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاتِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ » (٢) . . وكافي قول الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ يحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به . . انظر إلى قوله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » (٣) فيجد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض ، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر ، إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل ، حيث ياتفنون بها في جل معاشهم وانفعاهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر ، فيكثر قلب وجوهم في السماء . ثم لا بد لهم من أروى يتحصنون به ولا شيء لهم في ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها . . وهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في ذهن الهدوى وأخيلة أهل الوبر ..

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢، ٢٣٣ . (٢) سورة غافر آية ٤١ .

(٣) سورة النازية آية ١٧-٢٠ .

نجا أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغاً للوصل على نحو ما ترى في قولك : انظر إلى غزارة علم عمرو ... وانظر إلى هذا القطع في ثوبك، فمثل هاتين الجملتين لا يجمعهما سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه في كل منهما ... وقد يختلف كل منهما في الجملتين وتوجد المناسبة المسوغ للوصل، على نحو ما ترى في قوله عز وجل : « قُلْنَا دَخُلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْقَزِيزُ مَسَّكَ وَأَهْلَفَا الضُّرُّ وَجِئْتَنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ .. »^(١) فالمسند إليه بهما : « الضم . وإخوة يوسف » يختلفان لا تناسب بينهما ، وكذلك المسندان : « المس والجوى » ، وعلى الرغم من هذا وصل بين الجملتين لوجود المسوغ للوصل وهو ان المس سبب في الجوى ...

محسنات الوصل : ومن محسنات الوصل أن تناسب الجملتان في الاسمية والفعلية ، وفي الماضي والمضارعة، وفي الأدر والنهى، وفي الإطلاق والتقييد... انظر إلى قوله تعالى : « إِنَّ الْأُبْرَارَ إِنِّي نَعِيمٌ وَإِنَّ الْفَجَّارَ إِنِّي جَحِيمٌ »^(٢) تجد تناسب الجملتين في الاسمية ... ومنه قول الشاعر :

أسود إذا ما أبدت الحرب ناهيا وفي سائر الدهر الغيوث المواهر

ومن تناسبهما في المضى قوله تعالى : « ... فَأَوَّاكُمُ وَأَيْدِكُمُ يَنْهَرُهُ دَوْرَ فَكُمُ مِنَ الطَّغْيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .. »^(٣) . وقول الشاعر :

أعطيت حتى تركت الريح حاصرة وجدت حتى كان الغيث لم يحا

ومن تناسبهما في المضارعة قوله تعالى : « قُلِ الْآهَمُّ مَالِكَ لِلَّكَ تُؤْتِي

(٢) سورة الانقطار آية ١٣ ، ١٤ .

(١) سورة يوسف آية ٨٨ .

(٣) سورة الأنفال آية ٢٦ .

لِللَّكِّ مَنْ تَشَاكَ وَتَنْزِعُ اللُّكَّ يَمْنُ تَشَاكَ .. (١) . . . وقول الشاعر :

روح ونغدو لحاجتنا وحاجة من عاش لانهضى

ومن تناسبهما في الأمر والنهى قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » (٢) ، وقوله عز وجل : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضِرْ مِنْ صَوْتِكَ أَنْ تُنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ .. » (٣) .

ومن تناسبهما في التقييد قول الشاعر :

دنوت تراضعها وعلوت بجدا فشاناك انحدار وارتفاع

ولما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل ما لم يدع داع إلى المخالفة ، فلو دعا داع إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي واقتضاها المقام ، انظر في قوله عز وجل : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. » (٤) .

فقد آثر التعبير بالمضارع ، يخادعون ، ليفيد أن خداع المنافقين حادث متجدد ، وبالأسم ، خادعهم ، ليفيد أن فعل الله ثابت ودائم في جميع الأحوال ، وفي هذا زيادة في التتمكيل والتعذيب . . . ومن ذلك قوله تعالى : « فَفَرِّقَا كَمَا كَذَّبْتُمْ وَقَرِّبَا مَن تَقْتُلُونَ » (٥) . . . يقول الزمخشري في بيان السر

(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٤) سورة النساء آية ١٤٢ .

(٣) سورة لقمان آية ١٧-١٩ .

(٥) سورة البقرة آية ٨٧ .

البلاغى للمخالفة فى الآية : : فإن قلت : هلا قبل وفريقا قتلتم ؟ قلت : هو ، وجهين أن تراد الحال الماضية ، لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره فى النفوس وتصويره فى القلوب ، وأن يراد : وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحرمون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنى أعصمه منكم .. ، (١) ، وبهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضى عدم تناسب الجمليتين فيما ذكر ، وعندئذ يكون الحسن فيما اقتضاه المقام ودعا إليه الحال . .

فروق فى الجملة الحالية : سر بك جواز مجيء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة ، وعرفت ما يمكن وراء مجيء الواو أو تركها من دقائق وأسرار .. ونريد هنا أن نفصل لك القول فى الحال عندما تأتى جملة ، متى تفتقر جملة الحال هذه بالواو ، ومتى تمتنع الواو ، ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها ، وقبل أن نفصل لك القول فى تلك الجملة الحالية فنذكرك إلى ما ذكرناه آنفاً من أن الواو لما فيها من معنى المفارقة فهى تؤذن بالاستقلال ، وكان القائل عندما يقول : جاء زيد وغلّامه يسعى بين يديه ، قد أخبر إخبارين ، أخبر بمجىء زيد ثم بحاله عند المجىء .. وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها .. أما إذا قال القائل : جاء زيد وغلّامه يسعى بين يديه ، فهو بمنزلة خبراً واحداً ، يخبر عن مجىء هذه سالة وتلك هيئته .. تأمل قول عبد القاهر : : وإذا قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقت حالاً ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول فى الإثبات . تفسير هذا أنك إذا قلت جاء زيد يسرع كان بمنزلة قولك : جاءنى زيد مسرعاً فى أنك ثبتت مجيئاً فيه لإسراع

وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خيراً واحداً وتريد أن تقول
جاءني كذلك ، وجاءني هذه الهيئة ، وهكذا قوله :

وقد عاوت قنود الرحل يسعني يوم قديديمة الجوزاء مسموم^(١)

كأنه قال : وقد عاوت قنود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً ، وكذلك
قوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخالبه والليل قد مزقت عنه السراويل

لأنه في معنى : متى أرى الصبح بادياً لانحاً بيناً متجلياً ، وعلى هذا
القياس أبداً ... وإذا قلت : جاءني وغلّامه يسعني بين يديه ورأيت زيداً وسيفه
على كتفه ، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت الجيء والرؤية ، ثم استأنفت
خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه ولسكون السيف على كتفه ،
ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى
بجىء بالواو كما جىء بها في قولك : زيد منطلق وعمر و ذاهب ، والعلم حسن
والجمل قبيح ، وتسميتنا لها واو الحال ، لا يخرجها عن أن تكون بجملة
لضم جملة إلى جملة^(٢) . وإليك أن يلتبس عليك الأمر فنظن أن جملة الحال
قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه ، إن الأمر على عكس هذا ؛
لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جليلة واضحة شديدة
الاتصاق به ، مؤكدة الانسحاب إليه . كما وضحت لك - وإذ قد هرقت ذلك
فاعلم أن الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز ...
وإليك البيان .

(١) القنود بضم القاف جمع قنود وهو خشب الرحل المعمود . ومنه : لعمري بحره
فغير لونه ، وسلمته النار كذلك . ولديديمة : لسفير فدام ظرف مكان . والجوزاء :
من منازل الشمس . ويوم مسموم : هبت فيه ربيع السموم بكثرة وهي ربيع حارة . . .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد امتنع
اقتنائها بالواو كما في قوله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا »^(١). وقوله عز وجل : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ »^(٢). وقوله جل وعلا :
« وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(٣). وقوله عز من قائل : « وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأُنثَى الَّتِي يُؤْتَى مَا لَهَا يَتَزَكَّى »^(٤). ومنه قول الشاعر :

وقد علوت قنود الرحل يسفهمنى يوم قد يديمة الجوزاء مسموم
وقول الآخر :

ولقد أغتدى يداقع ركنى أحوذى ذو ميمة إضربج^(٥)
أما ما جاء من نحو قول العرب : قت وأصك عينه ، وقول عبد الله
ابن همام السلولي :

فلما خشبت أخافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا
وقول هنترة العبسي :

علقتها عرضا وأقتل قومها زعما لعمر إليك ليس بمزعم

ف قيل : إن ما في المثال شاذ وما في البيتين ضرورة ، وقيل إنه على حذف
المبتدأ والتقدير : قت وأنا أصك .. نجوت وأنا أرهنهم .. علقتها عرضا
وأنا أقتل .. وقال عبد الله بن وهب : ليست الواو للحال بل هي للعطف والفعل
المضارع في تأويل الماضي والمعنى : قت ومسكتك .. نجوت ورهننت ..
علقت وقتلت ..

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ . (٢) سورة المدثر الآية ٦ .

(٣) سورة الانعام الآية ١١٠ . (٤) سورة الليل الآية ١٧ ، ١٨ .

(٥) الأحوذى : السريع في السير وفي غيره ، وصف للرس ، والإضربج : يسر : الفرس

الجهود ، الراسع الايان الشديد العدو ، وذو ميمة : ذليونة وسهولة في السير ..

وإن كان المضارع مقرونا بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما قوله تعالى :
« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ نُؤْذَىٰ وَقَدْ تَنَالَوْنَا أَتَمْنَىٰ رَسُولُ
اللَّهِ إِنَّا نَسْأَلُكُمْ . . . » (١) ، وكقولك : لِمَ تَسْتَعِدُّ وَقَدْ تَرَحَّلَ غَدًا ..

وإن كان المضارع منه جاز أمراً : اقتران الجملة بالواو ، وترك الواو ،
والمضارع المنقضي يظل مضارعاً إذا كان النفي بغير لم ولما ، أما المنقضي بلم ولما
فهو ماضٍ معني ؛ لأن لم ولما يقلبان إلى الماضي ، وهو أى المنقضي بلم ولما يجوز
فيه الأمران أيضاً .. فما جاء بالواو قوله تعالى : « نَاسَتْكُمْ ^١ وَلَا تَقْبَحَانِ » (٢) ،
في قراءة من قرأ بتخفيف النون ، وكفوهم : « كنتم ولا أخشوا ، بالذنب » ،
أى : لا أخوف به ... وكفوهم : يصيب ولا يدري ويقول ولا يفعل ..
وكقول مسكين الدارمي :

أكسبته الورق البيض أبا وبعد كان ولا يدعي لأب

و أقول مالك بن ربيع وكان قد جنى جناية فطالبه بمصعب بن الزبير :

بغاني مصعب وبنو آية
أفادوا من دمي وتوعدوني
فأين أحميد عنهم لا أحميد
وكنت وما ينهني الوعيد

فكان في هذه الشواهد تامة بمعنى : وجد وقد اقترنت الجملة الحالية بالوار
كما ترى وفعلها مضارع منفى .. وما جاء بغير الوار قوله تعالى : « وَمَا لَنَا
لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ »^(٢) وقوله عز وجل : « وَمَا لَكُمْ لَا تُنْفَكِلُونَّ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ . . »^(٣) وقول الشاعر :

إن تلقى لائحة غيرى بناية
تلقى السلاح وتعرف جهة الأسد

(۲) - سورة يونس آية ۸۹ •

(١) سورة الممتحنة ٥ .

(٤) سورة الشّام ٧٩ •

(٣) سورة المائدة آية ٨٤ .

وقول الآخر :

لو أنتم قوما لارتفاع قبيلة دخلوا السماء دخلتم لا أحجب

وقوله :

عهدتك ماتصبر وفيك شامية فما بالك بعد الشيب صبا متيا

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماض لفظا أو معنى جاز
الأمران أيضا اقترانها بالواو ، وعدم اقترانها ، والماضي لفظا لا يقع حالا
إلا وهو مقرون بقدر ظاهرة أو مقدرة ، والماضي معنى هو المضارع المنق
بلم أو لما - كما ذكرت - . فما جاء بالواو قوله تعالى : « أَنَّهُ يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ » .^(١) ، وقوله عز وجل :
« أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا » .^(٢) ، وقول امرئ القيس
أيقظني وقد شغفت فزادها كاشفت المشوأة الرجل العال
وقوله أيضا :

فجئت وقد نغمت لنوم ثيابها لدى السّتر إلا لبسة المتفضل
فالجملة الحالية كما ترى فعلها ماض لفظا وقد اقترن بالواو . وما جاء
فعلها ماضيا معنى وقد اقترن بالواو أيضا قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
هَلَىٰ اللَّهُ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ » .^(٣) ، وقوله عز وجل :
« أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَرْيِيًّا » .^(٤)

وقول كمب بن زهير :

لأأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل
وقوله عز من قائل : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ

(٢) سورة مريم آية ٨٠ .

(٤) سورة دريم آية ٢٠ .

(١) سورة ال عمران آية ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٣ .

مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ..»^(١) .. ومما جاء بلا واو قوله تعالى :
« أَوْ جَاءَكُمْ حَصِيرَتٌ مِنْهُ رُءُوسٌ »^(٢) .. وقول الشاعر :

وإني لتعروف إذ ذاك هرة كما انتفض العصفور بلله القطر

وقول الآخر :

متى أرى الصبح قد لاحت بخايله والليل قد مزقت عنه السراويل

وكقوله تعالى : « فَأَتَقَلَّبُوا فِي غَمَمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفُضِّلَ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ »^(٣)

وقوله عز وجل : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا .. »^(٤)

وقول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الغنا لم يحظن^(٥)

ولإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتي بالواو كقولك جاء زيد

وعمر وأمامه ، وأتاني وسيفه في يده وكقول امرئ القيس :

أبتلني والمشرقي مضاجعي ومسفونة زرق كآنياب أغوال

وقوله أيضا :

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه وأعين من أهوى إلى روان^(٦)

وقد يأتي بدون الواو كقولك : كلمته نوره إلى في ، ورجع هوده على يده ..

وقول الشاعر :

رلولا جنان الليل ما آب عامر إلى جعفر سرياله لم يمزق

فإن كان المبتدأ في الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو

(١) سورة البقرة آية ٢١٤ .

(٢) سورة النساء آية ٩٠ .

(٣) آل عمران آية ١٧٤ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

(٥) الفتات : اسم لما انت وقطع من الشيء . والاهن : الصوف المسبوغ .

واللهنا : عنب الشباب .

(٦) روان : جمع رانية أى : مديعات النظر .

ولا تصلح جملة الحال بدونها البتة ، كقولك : جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو على الحديث .. فلا يجوز أن تقول : جاء زيد وهو راكب ، ولا دخلت عليه وهو على الحديث ، ومن ذلك قوله تعالى : « فَلَا تَجْمَعُوا لَهُ أَنَدًا وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ »^(١) ؛ وقوله جل وعلا : « وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .. »^(٢)

ولن كان الخبر في الجملة الحالية ظرفا أو جارا ومجرورا وقدم على المبتدأ كثر فيها أن تجيء بغير الواو كقولك : قدم المقاتل على كتفه سيف وأقبل في يده سوط ، وقول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد^(٣)
وقول الآخر :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس غمدان داراً منك محلاً^(٤)

ويقل مجيئها عندئذ بالواو كقوله : جاء وعليه ثوب ، ومر وفي يده سيف وقد جاءت في النظم الكريم بالواو وبدونها ..

قال تعالى : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَمَّْا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ »^(٥) ، وقال عز قائله : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّْا مُنْذِرُونَ »^(٦) ، وقد مر بك السر البلاغي السكامن وراء ذكر الواو وتركها في الآيتين السريعتين .. وما يجيء بالواو في الأكثر ، ثم يأتي بغير الواو في مواضع فيلطف مكانه ، الجملة قد دخلتها ، ليس ، تقول : أثنائي ولبس عليه ثوب ، ورأيت وليس معه

(١) سورة البقرة آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) البازي ويقال له أيضا الباز : ضرب من الصقور وعلى سواد : أى بقية من الليل .

(٤) غمدان بضم الغين : حصن بسماء . ومحلال : ابنة سهلة يحل الناس بها كثيراً ،

والبيت لاصية بن أبي الصامت في مدح سيف بن ذى القرن .

(٥) سورة الحجر آية ٤ . (٦) سورة الشعراء آية ٢٠٨ .

شئ ... هذا هو الكثير المستعمل ، وقد جاءت بدون الواو لحسن موقعها
ولطف ، كما في قول الاعرابي :

لنا في مـحبذا الإفتاء تعرفه الأرسان والدلاء
إذا جرى في كفه الرشاء خلى القلب ليس فيه ماء^(١)

وقد تجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو لحسنت ، ثم تنظر وتأمل
فتجد أن سبب الحسن دخول حرف عـ في المبتدأ ، كما في قول القرزدي :

فقلت عسى أن تبصرني كأنما بنى حوالى الأسود الحوار^(٢)

فإنه لولا دخول د كان ، عـ في المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال :
عسى أن تبصرني وبنى حوالى الأسود ..

وشبهه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالا عقب مفرد فلطف مكانها
وحسن ، ولو أردت أن تجعلها حالا من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن ،
كما في قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالما برداك تبجيل وتعظيم

فقوله : د برداك تبجيل ، في موضع حال ثانية ، ولو لم أنك أسقطت سالما
من البيت فقلت : والله يبقيك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئا^(٣) ..

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب
الحال وعلى الرغم من هذا نمتنع الواو بلاغة ، كما في قوله تعالى :

(١) الأرسان : جمع رسن وهو الحبل . والرشاء : حبل الدلو . والقلب :
البر .. ولى القلب : تركه .

(٢) الحوارد : الغصاب مفرد حارد .

(٣) انظر دلال الإعجاز ص ٢٢٢ .

- ٢٣٢ -

« وَكَمْ مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا سَيِّئًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ » (١) ،
 الجملة : « هم قائلون » ، حال ثانية وقد صدرت بضمير يعود إلى صاحبها ،
 لفتها أن تكون بالواو ، ولكن الواو امتنعت هنا ، وامتناعها لسر
 بلاغي وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما « او والواو » في اللفظ ،
 فلما استقبح تواليهما امتنعت واو الحال ..

• • •

الفصل الرابع

الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال ، والبلاغة كما عرفها البلاغون ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فالحال قد تقتضى الإيجاز فى القول وطى المشكلات وعندئذ تكون البلاغة فى أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه ، وقد تقتضى الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة فى الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام .. ولذا قال الأعرابي عندما سئل عن البلاغة : « البلاغة : الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل » ، وسأل معارية صحار العبدى ، ما تمدون بالبلاغة فيكم ؟ فقال صحار : الإيجاز . قال معارية : وما الإيجاز ؟ فأجاب : أن تجيب فلا تبطل ، وتقول فلا تخطئ (١) . .

وقال عبد الله بن المقفع : « البلاغة اسم جامع لما أن تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها ما يكون فى الإشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجماً وخطباً ومنها ما يكون رسائل ، فعمامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال ، وليمكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته ، فقبل له : فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقوف ؟ ، قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقت بالذى يجب من سياسته ذلك المقام ، وأرضيت من

يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وأيس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال ، (١) . . . وقد امتدحوا الإيجاز كثيرا فقالوا : البلاغة لإجاعة اللفظ وإشباع المعنى . . البلاغة لمحة دالة . . البلاغة كلمة تكشف عن البقية . . ولعل السبب في هذا يرجع إلى أهمية العرب ، وإلى أنهم أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، فالدربي تمكنه الإشارة وتغنيه الدحة ، وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول ، وبهذا علل الجاحظ لإيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب ، والبسط والإطالة عند خطاب بني إسرئيل . (٢) وهذا ما يفسر لنا أيضا سر السؤال الذي وجه إلى ابن المقدم في قوله المذكور والذي ندرك منه راحة الاعتراض على مدح الإطناب في موضعه وفي مقامه الذي اقتضاه : فإن السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف . . .

وبهذا يتضح لك أن الإيجاز مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائم ، كالحكم والأمثال ، كما أن الإطناب مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائم ، كالممدح والفخر والوعظ ، وما يحسن فيه الإيجاز لا يحسن فيه الإطناب ، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لا يحسن فيه الإيجاز ، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التي عرفتها في باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل ، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التي وقفت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل (٣) . .

• • •

الإيجاز : معناه وأنواعه : وقد عرفوا الإيجاز بأنه : اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل . . أر عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة . . وهو نوعان :

- (١) البيان والتبيين ١/ ١١٥ . (٢) انظر الحيوان ١/ ٩٣ .
(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب .

١ - إيجاز قصر . ٢ - إيجاز حذف .

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة ، أى : تضمين العبارات القليلة القصيرة معاني كثيرة غزيرة ، دون أن يكون في تراكيبها لفظ محذوف . . كما في قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »^(١) ، فقد جمع في هذه الآية السكريمة جميع مكارم الأخلاق ؛ لأن في العفو ، الصفح والإغضاء ومسامحة من أساء والرفق في كل الأمور ، وفي الأمر بالعرف ، صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة ، وغض الطرف عن كل محرم ، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل ، وفي الإعراض عن الجاهل : الصبر والحلم وكظم الغيظ . . فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية ، وزادت عن الحد إلى غير نهاية . . ومن ذلك قوله تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »^(٢) فقد دلت هذه الجملة من الآية السكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون ، حتى روى أن ابن عمر رضي الله عنهما قرأها فقال : « من بقي له شيء فليطلبه » . . ومنه قوله عز وجل : « أُولَئِكَ لَهُمْ لَا مُمْرٌ »^(٣) ، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب وينتفي بها كل صنوف المسكاره . . وقوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا »^(٤) ، فهذه ثلاث كلمات حوت معاني غزيرة ، إذ شملت الأمر بالكثير العام للجهاد ، وقطعت جميع الحجج والذرائع المعوقة عن الجهاد . . وقوله عز وجل : « أَخْرِجْ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »^(٥) ، فقد دلت هذه الآية السكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس وللاب من عشب وشجر وحطب ولباس وغاز وما ، وغير ذلك . . وانظر إلى قوله عز من قائل في وصف

-
- | | |
|----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأعراف آية ١٩٩ . | (٢) سورة الأعراف آية ٥٤ . |
| (٣) سورة الأنعام آية ٨٢ . | (٤) سورة التوبة آية ٤١ . |
| (٥) سورة النازعات آية ٣١ . | |

انتهاء الطومان : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ
الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَمُوتَ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلظَّالِمِينَ » (١)
فقد قصت القصة مستوعبة بحيث لم يحل بشيء منها في أوجز عبارة وأخصر
قول .. ومن المشهور في هذا الباب قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَاةٌ » (٢) ، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك
داعيا قويا له إلى أن يكف عن القتل ولا يتقدم عليه فأوجب ذلك حياة الناس ،
فانظر كيف اندرجت المعاني المتكاثرة تحت هذه الالفاظ القليلة .. وقد كان
أوجز كلام قيل في هذا المعنى ، قول العرب : « القتل أنفى للقتل » ، ولكن
الآية الكريمة بنظمها الدقيق المدهج ، وبلاغتها السامية ، فاقت هذا القول من
وجوه متعددة أهمها :

- ١ - فيما قالوه تكرار ، والنظم الكريم لا يكرر فيه ..
- ٢ - ليس كل قتل نافيا للقتل ، إذ لا ينفى القتل القتل إلا إذا كان على
حكم القصاص ، وهذا ما تفيد به الآية الكريمة دون القول المذكور .
- ٣ - في الآية طباق لطيف بين القصاص والحياة .. والضدي يظهر حسنة الضد ..
- ٤ - الآية جمعت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول الحرف « في »
عليه ، وفي ذلك مالا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب ، إذ جعل
الفناء محلا للحياة ..

- ٥ - الآية الكريمة أوجز من القول المذكور .
- ٦ - في تنكير كلمة « حياة » إفادة للتعظيم والتنويع ، فهي حياة عظيمة
تتميز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة ، إذ إن من هم بالقتل
لأنهم يعلم أنه سيقبض منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه
رئيسهم هو فيحيا ويحيا صاحبه .. تلك حياة عظيمة فريدة ..

٧ - نخلو الآية السكرية من لفظ « القتل » المشعر بالوحشة ، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص ...

ومن شواهد إيجاز القصر أيضا قوله تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسَمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »^(١) ، أى : لا شفاعة ولا طاعة . فليس المراد فني طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد ولكن لا يطاع ، بل المراد أنه لا شفاعة أصلا .. ومنه قول امرئ القيس :

على لاجب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباضى جرجرا^(٢)
أى : لا منارة ولا اهتداء .. وقول أوس بن حجر :

لا يفرع الأرنب أهواها ولا ترى انصب بها بنجر^(٣)

أى : لا أرنب ولا فرع ، ولا نصب ولا انجحار .. ففى هذه الشواهد قد اتفنى القيد والمقيد معا . واتفنى موجه إلى القيد فقط ، ولا يخفى عليك ما فى هذا من إيجاز .. وانظر إلى قول الشريف الرضى :

مالوا إلى شعب الرمال وأمنندوا

أبدى الطعان إلى قلوب تحفق^(٤)

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة فى أثناء وصفهم بالفرام ظهر عن ذلك بقوله : وأسندوا أبدى الطعان إلى قلوب تخفق ..

(١) سورة غافر آية ٢٨ .

(٢) اللاجب : الطريق : والمنار : العلامة نجعل على الطريق . وسافه : شمه ، والعود : الجدل المسون والنباضى : الضخم وجرجر : ضجج ورغا ، وإنما يرغو الجدل لمعرفة يبعد الطريق ومشقة السير فيه ..

(٣) بنجر : يدخل جحره .. يصف منارة بأنما غير مطروقة لانه ..

(٤) شعب الرمال بضم الشين : خشبها ، وميلهم إليها إشارة إلى ركونهم عليها ورحيلهم لاعتقال وتخفق : تضطرب امرأى الآفة ..

وقول أبي تمام :

وظلمت نفسك طالبا لإنصافها فوجبت من مظلومة لم تظلم
أراد : أكرهنا على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك إذ أوجبت لنا
مجدا عريقا وذكرنا حسنا ، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم ..
وقول الآخر :

وإن هو لم يحمل عن النفس ضيما فليس إلى حسن الثناء سبيل
فقد جمع في البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسماحة ومروءة ونجدة
وإغائه ملوف وغير ذلك ؛ لأن هذه الصفات من ضيم النفس ، إذ تجد بحملها
مشقة وعناء ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أوتي جوامع الكلم ، والكلام
الجامع هو الذي تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه ، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة
والسلام : « لا ضرر ولا ضرار » ، « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند
الطمع » ، « إن الله لا يمل حتى تملوا » « المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء
وعردوا كل جسم ما اعتاد » فتلك الألفاظ قليلة حوت معاني كثيرة يطول بك
القول لو وصفها والإحاطة بها .. ومن إيجاز الكتاب ، ما كتبه عمرو بن مسعدة
إلى المأمون بشأن رجل يهمله أمره إذ قال في كتابه : « كتابي إليك كتاب
واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله » ..

وما كتبه إليه أيضا يحثه على تهجيل أرزاق الجند : « كتابي إلى
أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على
أحسن ما يكون جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ،
فاختلت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم » ولا يخفى عليك ما في الكتابين
من معان غزيرة صيغت في عبارات قليلة وألفاظ موجزة ، وهذا هو شأن
إيجاز القصر الذي يجري مجرى الأمثال في الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ..

انظر إلى ، كتبه جعفر بن يحيى البرمكي ووقع به في كتاب رجل شكاً إليه بعض عماله : وقد كثر شاكروك وقال شاكروك فأما اعتدلت وإما اعتزلت ..

• • •

أما إيجاز الحذف ، فقد عرفه البلاغيون بأنه : التمهيد عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة وذلك بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعاني .. ولا بد في كل حذف من وجود أمرين : داع يدعو إليه ، وقربة تدل على المحذوف وترشد إليه وتمينه .. والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة ، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة .. وإليك بيان ذلك :

حذف جزء الكلمة : كما في قوله تعالى : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَرْيَاءً »^(١) ، فالأصل : ولم أكن بربياً وقد حذف النون تخفيفاً .. وقوله عز وجل : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبِّكَ قَالِ : إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ »^(٢) ، في قراءة من قرأ بترخيم المنادي ، والأصل : يا مالك ، فحذفت السكاف إشارة إلى ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن .. ومنه قول لبيد :

• درس المناسبات فإبان •

أراد : درس المنازل .. ومنه قول علقمة بن عبدة :

كان لبريقهم ظلي على شرف مقدم بسيا الكتان ملثوم

أراد : بسيا الكتان .. وقول الحارث الجرمي :

قوى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت بصيبي سهمي

أراد : يا أميمة ، فحذف حرف النداء ، ورخم المنادي فحذف منه

(٢) سورة الزخرف آية ٧٧ •

(١) سورة مريم آية ٢٠ •

الثام . . وارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية السكامة وراء الحذف في هذه الشواهد . .

حذف الكلمة : وله صور كثيرة أهمها :

١ — حذف الحروف ، كحذف همزة الاستفهام في قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ أَذْوَقٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْرِفَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ »^(١) ، إذ المراد : أمثل الجنة التي وعد المتقون كن هو خالد في النار . . فحذفت الهمزة . وفي حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المسكابين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبيئة ومن يتبع هواه . . يقول الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وعد المتقون فيها أنهار . . كمن هو خالد في النار » ؟ قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » ، فكأنه قيل : أمثل الجنة كن هو خالد في النار ؟ ، أى : كمثل جزاء من هو خالد في النار ، فإن قلت : فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعريفة ؟ قلت : تعريفة من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبيئة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . . »^(٢) . ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا كُلٌّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ

سَبِي إِسْرَائِيلَ^(١) ، إِذِ الْمَرَادُ : أَوْ تِلْكَ نِعْمَةٌ . . ؟ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :
 « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
 إِمَامًا قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي »^(٢) ، أَيْ : أَوْ مِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ . . . حُذِفَ الْمَعْرُوفُ
 فِي الْمَوْضِعَيْنِ^(٣) . . . وَكُحِذِفَ « لَا » الْإِذَائِيَّةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « قَالُوا : تَأْتِيهِمْ
 تَنْفَاطُ تَذْكَرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ رِضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ آلِهَا لَيْكِنْ »^(٤) ،
 أَيْ : لَا تَنْفَاطُ . . . وَكُحِذِفَ حَرْفُ الْإِدَاءِ كَمَا فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ : « يُّوسُفُ
 أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . . »^(٥) . . . وَكَافِيَ الْبَيْتُ :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يَصِيبُنِي سَهْمِي

إِذِ الْمَرَادُ : يَا يُّوسُفُ أَعْرِضْ . . يَا أَمِيمَةَ . . فَحُذِفَ حَرْفُ الْإِدَاءِ^(٦) .

٢ - حُذِفَ الْمُسْتَدُّ إِلَيْهِ أَوْ الْمُسْتَدُّ أَوْ أَحَدُ مَتَابَعَاتِ الْفِعْلِ كَالْمَفْعُولِ
 وَالْحَالِ وَالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ ، عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّ بِكَ فِي تِلْكَ الْأَبْوَابِ .

٣ - حُذِفَ الْمُضَافُ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
 وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا »^(٧) ، أَيْ أَمَلِ الْقَرْيَةَ وَأَصْحَابَ الْعِيرِ ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ
 فِي الْمَوْضِعَيْنِ ، وَحُذِفَ يَشِيرُ إِلَى شَهْرَةِ السَّرْقَةِ وَذِيوعِهَا وَكَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ : أَنْ
 أَمْرَ سَرِقَتِهِ قَدْ اشتهر وذاع إلى حَسَدِ أَنْكَ لَوْ سَأَلْتَ الْجَاهِلَاتِ لِأَجَابَتْ ،
 وَلَوْ سَأَلْتَ الْحَيَوَانَاتِ لَنَطَقَتْ وَأَخْبَرَتْ . . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً »^(٨)

(١) سورة الشعراء آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٣) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا المحذوف في ضوء أساليب القرآن .

(٤) سورة يوسف آية ٨٥ . (٥) سورة يوسف آية ٢٩ .

(٦) ارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب

(٧) سورة يوسف آية ٨٢ . (٨) سورة البقرة آية ١٧١ .

إذ المراد . ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي يذوق بما لا يسمع ، فحذف
المضاف وهو داعي ، رفعا لشأنه وتزيها له عن أن يقرن في اللفظ بهذا
الذي يذوق بما لا يسمع وأن يضاف إلى الذين كفروا . . وحذف المضاف
يقع كثيرا في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات السكرية :
« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ، أى : في سبيل الله « خَرُّمُوا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ
يَلَّتْ لَهُمْ » أى : تداول طيبات . « لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » ،
أى : رحمة الله ونعيم اليوم الآخر . « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا » ،
أى : من مذابه وقد ظهرت هذه الإضافات في الآية السكرية « وَبَرُّ جُورٍ رَحْمَةٍ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ يَحْذَرُ » . ومعه قوله عز وجل :
« فَذَلِكَ الَّذِي لَمْتَنُنِي فِيهِ » أى : في مرادته .

٤ - حذف المضاف إليه : كما في قوله تعالى : « وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتَيْنَاهَا بِثَمَرٍ »^(١) ، أى : بعشر ليال ، وقوله تعالى : « إِلَهُ الْأَمْرِ مِنْ
قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ »^(٢) ، أى : من قبل الغاب ومن بعده .
٥ - حذف الموصوف : كما في قوله تعالى . « وَعِندَهُمْ قَادِرَاتُ الْعَارِفِ
أَنْزَابٌ »^(٣) ، أى : حور قادرات الطرف . وقوله عز وجل : « إِلَّا مَنْ
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ »^(٤) ، أى : وعمل عملا صالحا
فأكتفى بالصفة عن الموصوف في الآيتين لتدبوع الصفة وشهرتها .

٦ - حذف الصفة : كما في قوله تعالى : « أُمَّا السَّانِفَةُ فَسَكَّانَتْ لِمَسَاكِينٍ
يَقْتُلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيَبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ هَلِكٌ يَأْخُذُ كُلٌّ

(١) سورة الأنعام آية ١٤٢ . (٢) سورة الروم آية ٤ .

(٣) سورة ص آية ٥٢ . (٤) سورة مريم آية ٦٠ .

سَفِينَةٍ غَصْبًا^(١)، أى : يأخذ كل سفينة صالحة ، بدليل قوله : « فأردت أن أعيها .. » ، والحذف هنا يرحى بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه ، فغصبه ليس قاصراً على المالح من السفن ، بل تجارزه إلى غير الصالح ، فغايتة هي الغصب والاستيلاء ، فالحذف في الآية يصور مدى طغيان الملك وشدة ظلمه ..

٧ — حذف القسم : كقوله تعالى : « كَإِنِّ لَمْ يَنْقُصِ السَّافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » وَالَّذِينَ جَاءُوا فِي التَّيْدَةِ كَأَنَّهُمْ يَنْفَكُ عَنْهُمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا^(٢) ؛ أى : والله لئن لم ينقه .. وقوله عز وجل : « وَآلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لِيُدْخِلَنَّهُ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّافِرِينَ »^(٣) أى : والله لئن لم يفعل ، لحذف القسم في الموضعين.

٨ — حذف جواب القسم : كقوله تعالى : « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفِيعِ وَالْوَزْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ »^(٤) ؛ فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبيانه ، وتقديره : لا يهتن .

٩ — حذف الشرط : كقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ »^(٥) ، وقوله عز وجل : « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا »^(٦) والتقدير : فإن تتبعوني يحبكم الله .. فإن تتبعوني أهدك صراطاً سويًا .

١٠ — حذف جواب الشرط : كما في قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »^(٧) ، أى : أعرضوا ،

-
- | | |
|----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة السجدة آية ٧١ . | (٤) سورة الاحزاب آية ٦٠ . |
| (٣) سورة يوسف آية ٣٢ . | (٥) سورة البقرة آية ١٥١ . |
| (٥) سورة آل عمران آية ٣١ . | (٦) سورة مريم آية ٤٣ . |
| (٧) سورة يس آية ٤٥ . | |

بذليل قوله بعده : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » وهذا الخذف يشير إلى أنه كان ينبغي لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصيح فيحذروا التقوى ، وما كان ينبغي لهم الإعراض والتولى ؛ وكان طيه من اللفظ ينهي بضرورة التخلي عنه وإسقاطه من الأذهان والمصارعة إلى قبول الهداية والحق . . ومنه قوله تعالى : « وَيَذِيقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُرَّارًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ خَابِطُهَا فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ »^(١)؛ والتقدير : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعم المقيم الذي لا يحيط به الوصف . . . وبلاغة حذف الجواب هنا تسكن في أن النفس تذهب في تقدير الجواب المحذوف كل مذهب ، وفي الدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ولا تنسج له العبارة . . . وتأمل ما وراء هذه الرواد وفتحت ، من تكريم ونشريف طؤلاء الذين اتقوا ، فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تكريما لهم وتعظيما لشأنهم ، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا : « وَيَذِيقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »^(٢) نجد أن « فتحت ، قد جاءت بدون واو فهي جواب « إذا » ، ويجبها بدون الواو يشير إلى شدة مراجعتهم بالعذاب ، فأبواب جهنم مخلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها « إذا جاءوها فتحت أبوابها » حتى توأجهم بصنوف العذاب وألوان الآلام . . . أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجيء الذين اتقوا ونجوز قبل وصولهم وعد ، تكريمًا لهم وتعظيمًا » خَبَّاتٍ عَدْنَ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »^(٣) . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِذَةَ رَبِّهِمْ »^(٤) . . . وقوله حال وعلا :

(١) - سورة الزمر آية ٧٣ . : (٢) - سورة الزمر آية ٧٤ . . . (٣) :

(٤) - سورة السجدة آية ١٧ . (٣) - سورة ص آية ٥٠

« وَكَوْنُ تَرَى إِذْ وَفَّوْا عَلَى الْغَارِ »^(١). والتقدير : رأيت أمراً عظيماً وشيئاً فظيماً لا يحيط به الوصف ، فقد حذف الجواب هذا قصداً إلى إزادة التوبيخ والتفطيم . . ومنه قوله تعالى : « وَكَوْنُ أَنْ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً »^(٢) ، والتقدير : لو أن قرآننا أوتي تلك القوة الخارقة لكان هذا القرآن ، لحذف جواب « لو » هنا يشير إلى وضوحه وظهوره وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملة الشرط . .

١١ - حذف جواب الاستفهام : كافي قوله تعالى : « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَنَقَرُوا بِمِصْرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قَوْلَهُمْ »^(٣) ، فحذف جواب الاستفهام وتقديره : « لا يرانا من أحد » بدليل قوله : « ثُمَّ انصرفوا » ، لأنهم لم ينصرفوا إلا بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم ، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكان الجواب كان همساً في الأذان وليس أصواتاً مسموعة .

١٢ - حذف المعلوم : كافي الآية الكريمة : « لَا يَسْتَوْي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا »^(٤) ، أي : لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ، فحذف المعلوم لدلالة ما بعده عليه .

حذف الجملة : والمراد بالجملة ، الجملة التامة التي تفيد معنى مستقلاً ولا تكون جزءاً من كلام آخر ، ولهذا لا يدخل فيها حذف المفعول

(٢) سورة الرعد آية ٣١ .

(٤) سورة الحديد آية ١٠ .

(١) سورة الانعام آية ٢٧

(٣) سورة التوبة آية ١٢٧

وحذف الأجوبة : حواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام ؛ لأنها وإن كانت جميعه فهي لا تستقل بالإفادة ، بل هي . . . من كلام آخر ومن أجل هذا عدناها من قبيل حذف الكلمة . . . ومن حذف الآية قوله تعالى : « وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ نُفُوزًا فَقَالَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا »^(١) ، والتقدير : فغرب فانفجرت ، فحذفت جملة : ضرب ، وحذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى - عليه السلام - وامتناله لأمر ربه . . . ومنه قوله تعالى : « لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْعُجْرَةُ »^(٢) ، والمعنى : فعل بما فعل من كسر قوة أهل الشرك ، ليحق الحق ويبطل الباطل . . . وقوله جل وعلا : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »^(٣) ، فحذفت جملة الحال والتقدير : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان : ربنا تقبل منا . . . وهذا الحذف يصور لنا المشهد حيا بارزا ، مشاهدا وكأنك تراه الآن ، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء ، فيكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز في بارز يكمن وراء طي جملة الحال (٤) . .

ومنه قول أبي الطيب :

أني الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم
أي : وأتيناه على الهرم فساءنا ، والحذف في البيت بنية بما في نفس
الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصبو إليه من
مجد وآمال . .

(١) سورة البقرة آية ٦٠ (٥) سورة الأنفال آية ٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٧ .

(٤) انظر التصوير للمفاتيح في القرآن ص ٥٩ .

هذه أكثر من جملة : كما في قوله تعالى : « وَنَالِ الَّذِينَ نَجَّاهُ مِنْهُمْ زَادَ كَرًّا »
 بعدَ آيةِ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِثَأْنِ دَاوُدَ وَأَرْسَلُون . يُوْسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَنْفَعَا
 فِي سَبْعِ بَنَاتٍ^(١) . والتقدير : فأرسلون إلى يوسف لأخبره الرؤيا فأرسلوه
 إليه فأتاه وقال له : يوسف أيها الصديق أنفعا . . ومثله قوله تعالى : « فَفَلَنَّا
 أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَهَرْنَا لَهُمْ نَادِرًا »^(٢) ، والتقدير :
 فأتياهم فابلغهم الرسالة . كذبوهما فدمرناهم . . ويكثر هذا الحذف في النظم
 القرآني ولا سيما في ميدان القصص حيث يستغنى عن التفصيلات الجوهرية التي
 تعرف من السياق وتهمهم من قرائن الأحوال ، ففي تنظيمها وصول إلى العناصر
 الجوهرية في القصة وإبرازها جمالية واضحة ، وفي نخطها أيضا حيث للخطاب
 وتحريك لمشاعره وإنارة لذهنه ، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها
 من خلال تأمل وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سباقها وقرائن أحوالها . .

قرائن الحذف : ولا بد في الحذف من قرينة تدل على المحذوف ، ترشد
 إليه وتعينه ، وإلا كان الحذف عبثا وضربا من الضربان إذ يؤدي عندئذ إلى
 اللبس والإشكال وعدم فهم المراد . . وقرائن الحذف قد تكون لفظية ،
 كما في قوله تعالى : « وَاللَّاتِي يَلْسَنَ مِنْ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ
 ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّاتِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتُ الْأُنْثَالِ أَجَلُهُنَّ
 أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »^(٣) ، فقد حذف خبر اللاتي لم يحضن ، ؛ لدلالة خبر
 اللاتي يلسن عليه وتعيينه له ، والتقدير : واللاتي لم يحضن فعدهن ثلاثة
 أشهر كذلك . . ومن ذلك قوله جل وعلا : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
 ذُلُومٌ ثُلَاثٌ »^(٤) ، فقد حذف خبر الذلوم ثلثة ، ؛ لدلالة خبر ذلوم ثلثة

(٢) سورة الدخان آية ٣٦ .

(١) سورة يوسف آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة الطلاق آية ٤ .

رُسِّلَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (١) ، فقد حذف جواب الشرط وتقديره : وإن يكذبوك فامض . ودلت عليه القرينة اللفظية وهي : « فقد لذبت رسول من قبلك ، فهذه الجملة ليست هي جواب الشرط وإنما هي صلة لجواب الشرط المحذوف ، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقول لا يحزن لإعراضهم وتمكذيبهم . .

ومما قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَطْعَمُوا دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا » (٢) فقد دل المذکور : « من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، على المحذوف والتقدير : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقابل . ومن أنفق من بعده وقاتل . . . هذا ولا يشترط في المحذوف أن يكون من جنس المذکور ، بل الذي ينبغي مراعاته أن يدل المذکور على المحذوف دلالة واضحة بيّنة ، ولذا لا أرى عيباً في بيت عروة بن الورد :

عجبت هم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى ، كان أعزرا
إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة « عند الوغى » عليه
دلالة بنية ظاهرة ، والتقدير : إذ يقتلون نفوسهم في السلم . . ولا في قول
الحارث بن حلزة :

والعيش خير في خلا ل الذوك من عاش كدا
أراد : والعيش الغاعم في خلا ل الحق خير من العيش الشاق في خلا ل
المقل ، حذف « الغاعم » لدلالة « كدا » عليه ، وحذف المقل لدلالة « دانه ك »
عليه . . ولا في قول الآخر :

أعاذل عاجل ما أشتى أحب من الأكث الريش
أراد : عاجل ما أشتى مع القله أحب من الأكث المبطىء ، فحذف « لفظ

والقلة ، لدلالة قوله : « إلا كثر ، عليه ، .. وبرى كثير من البلاءين أن المحذوف ينبغي أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف ، في الآيات المذكورة ، محذوفاً بالمحذوف ، ومفسد له ، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف ، فهو غير واف في الدلالة عليه ، ولا أرى - كما بينت - إخلالاً في الآيات ، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية . وهذا هو ما ينبغي أن نعتد به وبعمول عليه ، ولا يشترط في القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف ، ..

انظر إلى قول المتنبي السابق :

أنى الزمان بنوه في شبابه فسرهم وأبناه على الحرم

تجد أن قوله : « فسرهم ، فبدل على المحذوف وتقديره : فسادنا ، دلالة واضحة بيّنة وهو ليس من جنسه كما ترى .. وخسب قوله تعالى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا .فساداً^(١) » إذ المعنى : والله أعلم - أمرنا بالطاعة ففسدوا ، فقد حذفنا الطاعة ، لدلالة قوله : « ففسدوا ، علموا وهو ليس من جنسها ..

وهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف ، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة علمه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه^(٢) ..

وقد تكون القرينة معنوية ، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصريح في العبارة بما يدل على المحذوف .. كما في قوله جل وعلا :

(١) سورة الإسراء آية ١٦ .

(٢) ارجع إلى الحذف في ضوء أساليب القرآن .

وَجَاءَ رَبُّكَ وَاللَّكُ صَفًا صَبًا^(١) ، فالله في - والله أعلم - وجاء أمر ربك ، لأن الله عز وجل لا يجوز بحسب الرب ، بل الذي يأتي هو أمره أو عذابه أو بأسه ومحو ذلك ، ومثله قوله تعالى : « حَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنْ الْغَمَامِ^(٢) » ، أى : هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره . ومن ذلك قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيقَةُ وَالْذَّمُّ وَلَحْنٌ مِثْلُ بَرِّ^(٣) » ،

أى : حرم عليكم تناول هذه الأشياء ؛ لأن التحريم يتعلق بالافعال لا بالذرات وكذا القول في الآيات الكريمة : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ^(٤) » ، أى : يحاكمين ، « قَالَتْ فَذَا بَكُنْ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِيهِ^(٥) » ، أى : في حبه أو مرادته ، وسياق الآيات الكريمة ينطق بالمحذوف . « وَكَانَ يَتَوَقَّعُ فِي الْمَدِينَةِ أَنْ يَرَاهُ الْقَبِيْزُ ثُمَّ ارْتَدَّ مُتَمَكِّنًا مِنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا^(٦) » ، ولا يعد هذا من قبله اقرئة للفظامة . لأنه ليس مذكورا في نفس الآية ، والمخاطب يحتاج إلى مراجعة بآية للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف . ومن ذلك قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا^(٧) » ، أى : سل أهل القرية التي كنا فيها وأصحاب العير . . . لأن السؤال لا يوجه إلا إلى ذوى العقول والتمييز . . وقوله عز قائلًا : « قَالُوا : أَوَلَمْ نَقُلْ لَّآ تَبْعُنَا كُمْ^(٨) » ، أى : لو علم أن المسكن مكان قتال ، لأهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفتون القتال فكيف يقولون : إنهم لا يعرفونها ؟ لا بد إذن من حذف قدره المفسرون بقولهم : مكان قتال . . ومنها قولك لمن أعرض : بالرفاء والبين ، ففسدت الحال على المحذوف

- | | |
|------------------------|---------------------------|
| (١) سورة انفجر آية ٢٢ | (٢) سورة البقرة آية ٢١٠ |
| (٣) سورة المائدة آية ٣ | (٤) سورة النساء آية ٣٣ |
| (٥) سورة يوسف آية ٣٢ | (٦) سورة يوسف آية ٣٠ |
| (٧) سورة يوسف آية ٨٢ | (٨) سورة آل عمران آية ١٦٧ |

وتقديره : بالرفاء والبعين أعريت .. إلى غير ذلك من القرآن التي تدل على المحذوف وترشد إليه ...

• • •

الإطناب .. معناه وأفعاله : والإطناب في اللغة : صدر أطنب ، يقال : أطنب في كلامه ، إذا بالغ فيه وطول ذيله . وفي عرف البلاغين : معناه : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، أو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، كما في قوله عز وجل : « رَبُّنَا أَنَّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا »^(١) ، فقد أراد ذكر يا - عليه السلام - أن يخبر بكبره وقدم سنه ، لجعل الالفاظ زائدة على المعاني لفائدة وهي : إظهار ضعفه ، وتأكيد الوهن ، لذلك لو قلت : رب إني قد كبرت ، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط ، دون ظهور الضعف ، إذ قد تكون مع تقدم سنك قويا نشيطا ، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى : تقدم السن ، وهن العظام ، واشتغال الشيب ، لنظام : تناسل بناتب تقدم سنه ، فالزيادة في الالفاظ - كما ترى - إنما هي لفائدة .. ومنه قوله عز وجل : « وَمَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى » قال : « هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا آَرْبٌ أُخْرَى »^(٢) ، فقد كان يكنى في الجواب أن يقول موسى - عليه السلام - : عصا ، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها ففصل : « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي » ، وبعضها مجملا : « لِي فِيهَا آَرْبٌ أُخْرَى » ولعله كان يطمع في أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وهذا يمتد الحديث ويطول ؛ لأنه في مقام رب العزة ، وهو مقام يحلو فيه الإطناب ، لأنه مقام تعظيم وتشريف ، فالزيادة في الجواب - كما ترى - تحقق فائدة ..

(١) سورة مريم آية ٤ :

(٢) سورة طه آية ١٧ ، ١٨ :

فإذا لم تحقق الزيادة قائمة في الكلام كانت تطويلا أو حشوا ، وذلك
أنها إذا كانت غير متعينة ، كالمترادفين مثل : الكذب والمين ، والنأى
والبعد ، وأقوى وأقصر ، وفوم ونعاس ، وحظ ونصيب . . سميت الزيادة
تطويلا . . من ذلك قول عدي بن الرقاع :

وقد دت الأديم لراعشيه وألتي قولها كذبا ومينا (١)

فالكذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما . .
وقول عنقرة :

حييت من ضلل تقصادم عهده أقوى وأقصر بعد أم الهيثم

فأقوى وأقصر بمعنى واحد ، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت . . .
وكقول الخطيئة :

نالت أمانة لا تجزع فقات لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
هلا التست لنا إن كنت صادة مالا نعيش به في الناس أو نشبا (٢)

فالعزاء والصبر بمعنى واحد وكذا المال والنشب . . وكقول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند آتى من دونها النأى والبعد

فالنأى والبعد بمعنى واحد ، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير
المعنى ، أى أنه لم يتعين أى الكلمتين هو الزائد . . .

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال
التي قيلت في جوها الكلمة ، وعندما تتأمل الآيات المذكورة لا تستطيع أن

(١) قد دت : قطعت ، والفاعل المستتر يعود إلى الزباء ملكة تدمر ولا ديم :
الجلد والزاهشان : عرقان في باطن الذراع والضمير المضاف إليه يعود لجذبة بن الأبرش
ملك الحيرة وقصتهما مشهورة . .

(٢) للنشب بفتح النون والشين : المال الأصبل ويطلق أيضا على القمار ، يقال : نشب
ونشبة ومشابة .

تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون؛ لأن المقام في الآيات يقتضى التأكيّد، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحداً، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظة من الألفاظ المترادفة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر . . . ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين في الآيات المذكورة زائد، بل إنه مؤكد الآخر والمقام - كما ذكرت - قد اقتضى هذا التأكيّد . . .

وإذا كانت الزيادة متميزة سميت حشواً، والحشو نوعان :

١ - حشو يفسد به المعنى كقول المتنبي :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر التني لولا إلقاء شهوب (١) .

فيكلمة : والندى، في البيت حشو أفسد المعنى، إذ المراد لا فضل في الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أهم ملاقو الموت، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر؛ فاسد بالنسبة للندى، إذ الشجاع لو علم أنه غلده لن يصيبه الموت، لكان إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه، وكذلك الصابر عندما يعلم أنه لن يموت، يكون صبره لا فضل فيه، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندها يكون الإقدام مزية والصبر فضل . . .

أما الندى فتظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه غلده وإن يموت، لأن عليه بأن الموت لن يلقاه، يدعوه إلى الإمساك وإدخار المال كي ينتفع به إذ هو غلده، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية، أما إذا صم أن الموت أمامه وسيلاقاه لا محالة، فهذا يدعوه إلى البذل والعطاء،

(١) شهوب بفتح الشين : عام جلس للنية وهي الموت وقد جر بالكسرة من أجل الروى لأنه مما لا ينصرف بجره بالفتحة .

ولا فضل للندى عندئذ ، إذ يقول لو عوتب في بذل المال وإففاقه : كيف
لا أبذل مالا أبقي له ولا أنق بأفنى سأتمتع به ؟ ولذا يقول طرفة بن العبد :
ألا أينذا اللأئمي أحضر الوغي ، وأن أشهد الذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منبقي فدعني أبادرها بما ملكك يدي
ويقول مهيार الديلمي :

فكل إن أكلت وأطعم أخاك فلا الزاد بقي ولا الآكل

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يمهدا ، والندى بالضد ، ولذا كانت كلمة
الندى في البيت حشواً مفسداً للمعنى ، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس
لأبذل المال ، على حد قول مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ الندى ، لا يكاد يستعمل في بذل النفس
وإن استعمل فعلى وجه الإضافة ، أما طلقاً فلا ينبغي إلا بذل المال .

٢ - حشو لا يفسد به المعنى ، كما في قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله واستكنى عن علم ما في غد عمي

فكلمة د قبله ، مستغنى عنها فهي حشو ، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى
ومثله قول الآخر في رثاء أخ له :

ذرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فلفظ الرأس في البيت حشو لا فائدة فيه ، لأن الصداع لا يكون إلا في
الرأس ، وليس . يفسد المعنى ، ويؤخذ على الشاعر أيضاً ، أن مقام الرثاء
لا يناسبه ذكر الصداع وألم الرأس ، بل الملائم له ، ألم القلب واحتراقه ..
ومنه قول أنى عدي العبل الأموى :

نحن الروس وما الروس إذا سمع
في المجد الأقوام كالآذنان

فقله : د الأقوام ، حشو لا فائدة فيه وهو خير منفسد للمعنى .
وقل البوصيرى :

أمن تذكر جيران بنى سلم من جت دمعا جرى من مقله بدم^(١)

فقله : د من مقله ، حشو لا فائدة فيه ، لأن الدمع لا يجري إلا من
العين ، وهو حشو غير مفسد للمعنى .. وقول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتى لرأيت فيه جهنم

فقله : د يا جنتى ، حشو غير مفسد للمعنى ، وقد استحسنه البعض لإفادته
معنى لطيفا حيث طابق الشاعر بينه وبين د جهنم ، ..

هذا - وكما ذكرت لك - ينبغي أن تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم
فائدتها ، تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة ، ولا نستطيع أن
تقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله ، وعندما
تأمل الآيات المذكورة والتي استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد
يتضح لك أن تلك الكلمات التي حكموا بزيادتها وحشوها ، قد أفادت معنى
اقتضاه المقام .. تأمل : د دمعا جرى من مقله ، .. د وأعلم علم اليوم والامس
قبله .. ، عارضى صراع الرأس .. د وما الروس إذا سمع في المجد
للأقوام .. ، تجد أن تلك الكلمات : د مقله ، قبله ، الرأس ، الأقوام ، قد
أفادت تأكيداً اقتضاه المقام ، وهذا التأكيد لا يفاد بطيها ، ولذا لا نوافق
البلاغيين في قولهم بأنها حشو ولا فائدة فيها .. ونحن نقول : دقته بمعنى
ورأيت به معنى وسمعت به بأذنى ووطأته بقدمي ، ولا يقول أخذ إن تلك الكلمات :

(١) ذو سلم : مكان على طريق البصرة إلى مكة ..

بمعنى ، بمعنى بأذى ، بدمى ، زائدة ، لأنها أفادت ناكيداً اقتضاه المقام ،
واقراً قوله عز وجل : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ
مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » (١) ، وقوله
تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ
الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ
قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » (٢) ، وقوله
جل وعلا : « فَذَكَّرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
فَنَخَرَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّعْفُ مِنَ فَوْقِهِمْ وَأَنَاهُمْ التَّذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » (٣) .

تجد أن التالي لا يكون إلا باللسنة ، والقول لا يكون إلا من الفم ،
والقلب لا يكون إلا بالخوف ، والسقف لا يكون إلا من فرق ، ولا يقول
قائل : إن هذه الالفاظ زائدة وليس وراءها فائدة ، لأن المقام قد اقتضاها
والمعنى قد تطلبها ، فالآية الأولى مسوقة الرد على أهل الإنكار وإنكار ما قالوه
وخاضوا فيه ، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هي ظاهرة العفاف والستر وهذا
افتراء عظيم وإثم كبير ، فالمقام إذا يقتضى أن يسجل عليهم ما خاضوا فيه ،
وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم ، ليسكون في ذلك مبالغة في
الإنكار والرد .. وقل مثل هذا في الآية الثانية فهي مسوقة لإنكار الظهار
وإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء وإفادة أن من يفعل هذا فيسوى
بين الزوجة والام في التحريم وبين ابنه ومولاه في الحقوق يكون كن يجمع
قلبين في جوف واحد ، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر الجوف ..
وتأمل لإيثار التعبير بلفظ « لرجل » ، وما يمكن وراءه من شدة المبالغة في
الإنكار ، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها ، أما الرجل
فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين في جوفه بخال من الأحوال ..

(٢) سورة الأحزاب آية ٤ :

(١) سورة النور آية ١٥ .

(٣) سورة النحل آية ٢٦ .

والآية الثالثة مسوقة للتخويف والترهيب وهذا يقتضى تأكيد ما حل بهم من
مكروا قبلهم ، فقد أتى الله بآياتهم من القواعد نثر عليهم السقف من فوقهم
وأثام العذاب من حيث لا يشعرون ، فكلمة « من فوقهم » أفادت من
التحويل والتخويف ما لا يفيد طمأناً . . .

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف
على قرائن أدبائه . فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة زائدة
ولا معنى لها في النظم فهي حمولة ، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق ومراجعة
دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاه وأن هذا معنى . وفقاً يمكن
وراءها ولو حلوت لما أريد ذلك المعنى .

، ، ،

أنواع الإطناب وما يمكن وراءها من دقائق بلاغية :

ويقع الإطناب في الكلام على أنواع مختلفة أهمها ما يلي :

١ - الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يحمل المعنى ويهيم ثم يفصل ويبين
فيبدو في صورتين مختلفتين ، وعندئذ يقع في النفس أطيب موقع ويتمكن
لديها أفضل تمكّن ، لأن المعنى إذا أتى على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت
النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل واليضاح ، فعندما يأتي هذا
التفصيل وذاك الإيضاح ، يكون أشد وقعاً وأقوى أثراً ؛ لأنه جاء والنفس
عنده تبحث وإليه تتطلع وهم يقولون : إن الشيء إذا قيل بعد طلب ومشقة
وبحث وتفقيب ، يكون أوقع في النفس وأشد تأثيراً ، ويحدث لها بالوقوف
عليه لذة ومثمة . . . من ذلك قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ ذَايَرٍ
هُوَ لَأَرْقَطٌ مَّنْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » (١) فقد أبهرت الآيه مائة من به إلى لوط - عليه

(١) سورة الحجر آية ٦٦ .

السلام - ذلك الأمر ، ثم فصلته ، بينته : « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ، ففي الإبهام إنارة للمخاطب وتحريك لذكره فيتطلع إلى إيضاح ما أبهم ، وعندئذ يأتي الإيضاح فيقرر المعنى في ذهن المخاطب ويقع موقعه ، وفي هذا تفخيم وتمويل للعذاب الذي حل بهم ، لأنه ذكر مرتين ، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح ، والشئ إذا ذكر مرتين كان آكد في الذهن وأشد تعلقاً والتصاقاً بالنفس . ومنه قوله تعالى « فَوَسَّوْاْ لِلَّهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى » (١) ، ذكرت الوسوسة بجملة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتباكت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عابها ، فلما جاء البيان وقع في النفس موقماً حسناً وكذا القول في قوله تعالى : « أَمَدُّكُمْ يَمَّا تَنَلُّونَ أَمَدُّكُمْ بِأَنفُسِكُمْ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ وَعُيُونُكُمْ » (٢) ، ذكر ما أمدم به مجلاً فتطلعت النفس إلى معرفته ، ثم فصل وبين فوقع في الأنفس موقعه . . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » (٣) ، أجملت التجارة التي تنجى من العذاب ، ثم فصلت وبينت . . ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو : نعم الرجل زيد رئيس الصديق عمرو ، وبذلك على جعل كل من زيد وعمرو ، خبراً لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، فهو يكون الأسلوب مكوفاً من جملتين إحداهما مبينة وفسرة الأخرى ، أما على جعل كل من زيد وعمرو ، مبتدأ والجملة قبله خبر ، فليس مما نحن فيه ؛ لأن الأسلوب عندئذ يتسكون من جملة واحدة . . ومنه التوشيع وهو أن يؤنى

(١) - سورة طه آية ١٢٠ . (٢) - سورة البقرة آية ١٣٢ - ١٣٤ .

(٣) - سورة النصف آية ١١٠ ، ١١١ .

في حيز الكلام غالباً ممثني مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر ، كقوله
صلى الله عليه وسلم : « يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان الخرص وطول
الأم . » وقوله عليه الصلاة والسلام : « الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة
والعنب » ، وقول عبد الله بن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرها شدة خديها بغير رقيب
فازلت في ليلين : شعر وظلمة وشمين : من نخر ووجه حبيب

وقد يكون المثنى في أول الكلام ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « وهن وهان
لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » ، وقد لا يكون مثنى بل جمعا ، كما في قول
ابن رهيبة :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

٢ - ذكر الخصاص بعد العام أو العام بعد الخاص : فمن الأول قوله تعالى :
« تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » (١)
فالروح وهو جبريل عليه السلام ، قد ذكر مرتين ، مرة مندرجاً تحت العام
وهو الملائكة ومرة وحده ، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف
عليهم ، وهذا تمكريم له وتعظيم لشأنه ، وفي الآية لطناط طريقه ذكر الخاص
بعد العام والغرض منه التذكير بشأن الخاص حيث يذكر مرتين .
ومنه قوله عز وجل : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » (٢) ،
فالصلاة الوسطى داخلية في محرم الصلوات ، وقد خصت بالذكر بعد العام تذكيراً
إلى مزيدتها وزيادة فضلها . . وقوله جل وعلا : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » (٣) ،

(٢) - سورة البقرة آية ٢٣٨

(١) - سورة القدر آية ٤

(٣) - سورة آل عمران آية ١٠٤

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلان في عموم الدعوة إلى الخير ،
ولكنهما خصصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكانتهما من الشرف والفضل . .
ومن الثاني قوله تعالى : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . »^(١) ، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل
فيهما من ذكر قبل : لي ولو الذي ولما ، دخل بئني مؤمنا ، والسمر البلاغى
الحكام وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره
مرتين ، مرة بلفظه ، ومرة مندرجا تحت العام . .

٣ - التكرار : ويأتى لأغراض كثيرة ، منها إبراز المعنى وتقريره في
النفوس ، كما في قوله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »^(٢)
فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيرا ، وأشد تحذيفا ، وفي
العطف بالحرف ثم ، ما ينبىء بأن الإنذار الثانى أقوى وأشد من الإنذار
الأول ، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمنى فمطابق بتم ، وفي هذا دلالة
على التدرج فى الارتقاء . . ومن ذلك قوله جل وسلا : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »^(٣) ، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره في
النفوس . . ومنها استمالة المخاطب وترغيبه في قبول النصيح والإرشاد ، كما في
قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَحْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَئِهِ السَّيِّئَةُ الْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ »^(٤) ،
ففى تكرار يا قوم ، استمالة لأنفسهم وترغيب لهم فى قبول الحق والاهتداء ،
وراء حرف النداء يا ، الموضوع لنداء تبعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع
لمنزلاتهم ، وفى إضافة القوم إليه يا قوم . . ، ما يبدل كل ويل كل
ارتباب فى نصحه وإخلاصه لهم . . ومنها التذكير ب نعم الله التى لا تحصى

(٢) - سورة النكاث آية ٣ ، ٤ .

(١) سورة نوح آية ٢٨ .

(٤) - سورة غافر آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) - سورة الشرح آية ٦٠ ، ٥٠ .

ولامتد ، كما في قوله تعالى : « قَبْلَ أَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تُسَكِّدُ بَانَ »^(١) ، فقد ذكر
جل وعلا نعمه نعمة بعد نعمة في هذه السورة الكريمة ، وعقب كل نعمة بهذا
الاستفهام الذي يفيد التنبيه إلى نعمة الكثرة والتذكير بها ، فإن قيل قد عقب
بهذا الاستفهام ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ
مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ »^(٢) ، وقوله جل وعلا : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي
كُذِّبَ فِيهَا الْمُجْرِمُونَ . يُطَوَّفُونَ فِيهَا لَيْلًا وَنَهَارًا خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ
الْعَذَابُ وَجْهَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنْ ذَكَرْتُمَا وَصَفَهُمَا عَلَى
طَرِيقِ الزَّجَرِ عَنْ الْمَعَاصِي وَالرَّغِيبِ فِي الطَّاعَاتِ ، يَمُودُ مِنَ الْإِلَامِ وَالنَّعَمِ ،
لِأَنَّ التَّحْذِيرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالزَّجَرَ عَنْهَا نِعْمَةٌ مِنْهُ تَعَالَى ، إِذْ يَنْجِمُ عَنْ التَّحْذِيرِ
وَالزَّجَرِ ابْتِعَادَ الْمُؤْمِنِ عَنِ الْمَعَاصِي وَعَدَمَ اقْتِرَابِهِ مِنْهَا »^(٣) . . .

ومن أغراض التكرار المبالغة في التحذير والتنبيه ، كما في قوله تعالى :
« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »^(٤) ؛ فقد كررت هذه الآية الكريمة في سورة
المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة
بهذا الوعيد « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » ، وفي هذا ما فيه من التنبيه والتحذير . .
ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما في قوله تعالى :
« وَلَقَدْ يَمْرُنَا الْقُرْآنَ لَلَّذِ كُرِّ قَهْلٌ مِنْ مُدِّ كَرِّ »^(٥) حيث كررت هذه
الآية في سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التي كذبت
وأعرضت عن رسل ربها ، فقد أخبرت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع
العذاب الذي حاق بكل أمة ، وأنبئت كل قصة هذه الآية الكريمة : « وَلَقَدْ
يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لَلَّذِ كُرِّ قَهْلٌ مِنْ مُدِّ كَرِّ » ، حثا على العظة والاعتبار والتأمل

-
- | | |
|---------------------------------|----------------------------|
| (١) - سورة الرحمن آية ١٢ . | (٢) - سورة الرحمن آية ٣٥ . |
| (٣) - سورة الرحمن آية ٤٣ ، ٤٤ . | (٤) - انظر الإيضاح ١٢٧/٢ . |
| (٥) - سورة المرسلات آية ١٥ . | (٦) - سورة القمر آية ١٧ . |

والتدبر .. ومنها أن يكرر اللفظ الطول في الكلام كما في قوله تعالى :
 « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا وَعَدُوا وَحَبَّرُوا
 إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) ، وقوله جل وعلا : « ثُمَّ إِنَّ
 رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ
 رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) ، فقد كرر : « إِنَّ رَبَّكَ »
 في الآيتين السكريتين لطول الكلام بين اسم إن ربك ، وبين خبرها
 « لَنَفُورٌ » ، وفيه أيضا تأكيد للمعنى الربوبية وإبراز للمعنى الرب ، المتفضل
 بالإينعام والمغفرة .

٤ — الإيغال : وهو ختم الكلام شعرا أو نثرا بما يفيد فائدة يتم المعنى
 بدونها ، كما في قول الخنساء :

وإن صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار (٣)

فقولها : « في رأسه نار » ، إيغال ، لأنها شبيهت أخاها « صخر » ، بالعلم
 وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه التشبيه هو الاهتداء بكل ، وقد تم التشبيه
 عند قولها : « كأنه علم » ، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة في التشبيه ،
 إذا النار في رأس الجبل تزيد وضوحا وانكشافا وهذا أدعى لتأتم الهداية
 وكالها .. ومثله قول ذي الرمة :

قف العيس في أطلال مية فإسبال

رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

(١) سورة النحل آية ١١٠ .

(٢) سورة النحل آية ١١٩ .

(٣) تأتم : تتحدى والهداة : الذين يهتدون للناس وإذا كانت الهداة تأتم به فمن

باب أولى المهتدون بهم ..

أظن الذي يجدى عليك سؤاها دموعا كتبذير الجمان المفصل (١)
فقد تم التشبيه في البيت الاول عند قوله : د رسوما كأخلاق الرداء ،
وفي الثاني عند قوله : دموعا كتبذير الجمان ، فاختم البيت بما يفيد زيادة
المبالغة في التشبيه وهو قوله : د المسلسل والمفصل ..
ومنه قول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثق (٢)

حيث تم له التشبيه عند قوله : د الجزع ، فاختم البيت بما يفيد تحقيق
التشبيه ؛ لأن الجزع إذا كان غير مشقوب كان أشبه بعيون الوحش ، وقوله :
الذي لم يثق لإيغال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقا وناعما ومثله قوله أيضا :
حملت ردينيا كان سنانا سنا لم يتصل بدخان (٣)

حيث أتى على التشبيه عند قوله : د كان سنانا سنا ، ثم اختم البيت
بإيغال أفاد دقة التشبيه وزيادة نعومة ، وهو قوله : لم يتصل بدخان ؛ لأن
سنان الرمح أكثر شها بضوء اللهب الذي لم يتصل بدخان . وقول زهير
ابن أبي سلمى :

(١) اللبس : الإبل يحاط بياصها - واد حفيف مازدها : أعيس . والأطالال :
جمع طال وهو ماشخص من آثار الديار بخلاف الرسوم . والأخلاق جمع خلق وهو
وهو البالي . والمسلسل : الردي السج ، ويجدى : يطفى ويبيد وعائد الموصول محذوف
والتبذير يجدى به . والتبذير : التهربق . والجمان المنسل : الأولو المنظم ..

(٢) الوحش : المراد به الظباء لاقى يسيدونها ويرمون أعينها حول خبائهم .
والخباء : ما كان من وبر أو صوف لاشر وثام على عمودين أو ثلاثة ، وما فوقه ؛
البيت . والأرحل جمع رحل وهو المنزل والمأوى . والجزع : خرز فيه بياض وسواد
على شكل دوائر .

(٣) الرديني : رمح منسوب إلى ردينية وهي امرأة كانت تقوم الرماح . وسنانا
اللهب : ضرؤه . وسنان الرمح : حديدته ، وجمعها : أسنة ، وسميت بذلك
لصعالتها وملاستها ..

كان فتات المهن في كل منزل نزان به حب الفنا لم يحطم^(١)
فقد اتى على التشبيه بقوله : حب الفنا ، ثم اختتم البيت بما يعيد دقة
التشبيه وزيادة تحمقه ؛ لأن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه
الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم ، فقوله : لم يحطم ، لإيغال حسن .
ومنه قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم بضرها وأوهى قرنه الوعل^(٢)

حيث تم له المعنى بقوله : « وأوهى قرنه » ، ثم اختتم البيت بإيغال حسن
وهو قوله ، الوعل ، لأن الوعل ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا بضره ..

ومن الإيغال في العظم السكرم قوله تعالى : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدْيَنَةِ
رَجُلٌ يَسْتَسْقَى : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ
أُجْرًا وَهُمْ مُنْتَدُونَ . »^(٣) ، فقوله جل وعلا : « وهم مهتدون » لإيغال
لإذ المعنى قد تم بدونه لاعتداء الرسل طعاماً ، والفرض منه زيادة الترغيب والحث
على اتباعهم والاعتداء بهم . . وقوله تعالى : « فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
لَشَدِيدٌ يُثَلِّمُ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ »^(٤) ، فقوله : « مثل ما أنكم تنطقون » ،
إيغال أفاد زيادة التوكيد والمبالغة التي اقتضاها المقام .

هـ - التذييل : وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة
التوكيد ، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهي :

(١) اللغات : اسم لما انفت وتقطع من الشيء . والمهن : المصروف المصروف .
والفنا : غيب الغلب ، شبيه فتات المصروف المصروف الذي زين به الموائد بحب الدنيا
في حين ته قبل محطته ؛ لأنه إذا حطم تزل حرقته . .

(٢) الوعل : نيس الجبل . وجمعه : وعول واولع ووعل ، والآنق : وعلة .

(٣) سورة يس ٢٠ ، ٢١ . (٤) سورة الذاريات آية ٢٣ .

١ - أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة، كما رأيت في شواهد ، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة ، كما ستري ..

٢ - الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التي يأتي لها ، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة ..

٣ - التذييل يكون في آخر الكلام وفي أثنائه ، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام .

والتذييل ضربان : تذييل يحرى بحرى المثل وتذييل لا يحرى بحرى المثل ، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبله ، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يمكن استقلالها بإفادته عما قبلها ، كما في قوله تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْخَلْقُ وَذَهَبَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . » (١) ، فقوله : « إن الباطل كان زهوقًا » ، تذييل أتى به أينا كسد الجملة قبله ، وهو جار مجرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة معناها عن الجملة الأولى ، وجاربة على الألسنة كما تجرى الأمثال التي كثر استعمالها ونشأ ، فهي لا تحتاج في إفادة معناها إلى الجملة السابقة . . ومن هذا الضرب قول النابغة الذبياني :

واست بمسئق أخا لا لعله على شعث أى الرجال الممذب (٢)

فقوله : « أى الرجال الممذب » ؟ تذييل جرى مجرى المثل ، حيث يحرى على الألسنة مستقلا عما قبله .. ومثله قول الحطيئة :

تذروني يعطى على الحمد ماله ومن يعطى أتمان المسكارم يحمد

فالشطر الثاني تذييل للشطر الأول ، خرج مخرج المثل ..

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

(٢) لا لعله : لا تضمه . والشعث فى الأصل انشار شعر الرأس وتذيره تتكسر أوساخه والمراد به هنا الميب على حيل الاستمارة ، والاستمارة فى البيت استمارة إنسكارى بمعنى لا يوجد . .

والثاني وهو التذليل الذي لم يجر مجرى المثل ، فهو ما لا يستعمل معناه ، بل يتوقف على ما قبله ، كما قوله تعالى : « فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مَتَلًا الْعَرِيمَ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِهِ أَكْلٍ سَخِطٍ وَأُنْزِلَ فِيهِ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَاءُكَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ فِي آخِرِ الْآخِرِينَ إِلَّا الْكَافِرِينَ » (١) ، فقوله : « وهل يجازى إلا الكفور » ، تذليل غير جار مجرى المثل ، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله ... ومنه قول الخاسي :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
فقوله : « وعلام أركبه إذا لم أنزل » ، تذليل غير جار مجرى المثل لأن بهم معناه يتوقف على ما قبله .. ومثله قول ابن نباتة السعدي ،
لم يبق جردك لي شيئا أو لمه تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

وقد اجتمع التذليلان في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُفْتَنُونَ وَيَقْتُلُونَ وَيُؤْتُونَ عَدَاكُمُ عِلًّا حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْأَنْزِيلِ أَنْ يَمُنُوا مِنْ اللَّهِ » (٢) ، فقوله : « وعداً عليه حقاً » ، تذليل غير جار مجرى المثل لاحتياجه في فهم معناه إلى ما قبله ، وقوله « ومن أرنى بعده من الله » ، تذليل يخرج المثل السائر لتحقيق وتأكيده ما تقدمه ، فهو تذليل ثان للتذليل الأول .. وكذا اجتمع الضربان في قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ أَطْلَافًا إِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » (٣) . فقوله : « أنبان مت فهم المبالدين » ، تذليل غير جار مجرى المثل

(٢) - سورة التوبة آية ١١١ .

(١) سورة سبا ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

لذا يتوقف فهم معناه على ما قبله ، وقوله : وكل نفس ذائقة الموت ، تذييل
جرى مجرى المثل ، تجرباته على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ما قبله .

٦ - التكيل : ويسمى أيضاً بالاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوم
خلاف المقصود بما يدفع ذلك التوهم ، كما في قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك - غير مفسدها - صوب الربيع وديمة نهري

فقوله : د غير مفسدها ، احتراس عن المطر المسترسل الذي يسبب
الخراب والدمار ، لأن الديمة هي المطر المسترسل ، انتهى بمعنى تسيل . والمطر
إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار ، فدفع الشاعر هذا التوهم
بقوله : د غير مفسدها ، ، ومن أجل هذا عيب قول الشاعر :

ألا يا أسلمى يا دارمى على البلى ولا زال منهلاً بحر عائنك القطر

وقيل : لا عيب في البيت ، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر ،
وللشاعر أن يكتفى بالدعاء فلا يحترس ، وألا يكتفى به فيضم إليه الاحتراس .
ومنه قول عبد الله بن المعن في وصف الخيل :

وخيل طواها السير حتى كأنها أنابيب سر من قذا الخط ذئب
صبيها عليها - ظالمين - سياطنا فطارت بها أيدٍ سراع وأرجل

فقوله : د ظالمين ، احتراس ، حيث دفع به ما قد يتوهم من أنها كانت
بطيئة في المشي ، ثقيلة في السير ، لا تجرى وتسرع إلا بالضرب واستعمال
السياط ، وهذا خلاف المقصود ، لأن المقام مقام مدح ومنه قول الحماني :

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره وما فرق شكرى للشكور مزيد

فالشطر الثاني من البيت احتراس ، لأنه لما صرح في الشطر الأول بعجزه
عن شكر بره ، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشيء من الشكر ، فدفع هذا التوهم
بالشطر الثاني الذي أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ في الشكر زيادة عليه .

ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من تصديده له في رثاء أخيه أبي المغوار :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوم أن حلمه عن عجز ، ولذا احتس بقوله : إذا ما الحلم زين أهله ، فأزال هذا الوم ، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل : « مع الحلم في عين العدو مهيب » ،
ومنه قول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيد في فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل^(١)

فقد وصف قومه بشمول القتل لإيائهم وأنه لم يميت واحد منهم على فراشه ، وهذا الوصف يوم ضعفهم وقلة شجاعتهم ، فأزال هذا الوم بالشر الثاني الذي وصفهم بالانحصار من قاتليهم . .

ومنه قول المتنبي :

أشد من الرياح الهوج بطشاً وأسرع في النهدي منها هبوباً
فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ، لأوم ذلك أنه عنف كله ، ولا لطاف عنده ، فأزال هذا الوم بوصفه بالسباحة والندي . ولم يتجاوز في الوصفين صفة الريح التي شبهه بها .

ومما جاء من هذا النوع في النظم الكريم قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي الْفَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - خَيْرٌ أُولِي الضَّرَرِ - وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . . »^(٢) ، فقوله جل وعلا : « غير أُولِي الضَّرَرِ » ، احتراس يدفع توهم أن القامد يمدد داخل في مفهوم عدم الاستواء المذكور . . وقوله تعالى : « وَأَدْخِلْ بَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضاً ، مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . . »^(٣)

(١) طل : بمعنى أهدر دمه ولم يقتل له . .

(٢) سورة النحل آية ١٢ .

(٣) سورة النساء آية ٩٥ .

فقوله : د من غير سوء ، احتباس من نحو اليهو والبرص . . .
هذا ولا يخفى عليك بالنظر في الشواهد المذكورة ان الاحتباس قد
يتوسط الكلام ، وقد يقع في آخره .

٧ - التميمي : وهو أن يؤتى في كلام لا يرمي خلاف المقصود بفضله
مثل المفعول أو الحال أو الجار والمجرور ، ونحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ،
ولا ركنا من أركان الكلام ، وذلك لإفادة نكتة بلاغية كما في قوله تعالى :
« وَيُعَلِّمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكِيئاً وَبَيْئاً وَابِئاً »^(١)
وقوله جمل وعلا : « وَأَتَى الْكَافِرَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى »^(٢)
وقوله عز وجل : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »^(٣) ، فإن
قوله عز من قائل : د على حبه ، د مما تحبون ، فضله ، وتركها لا يجعل
الكلام موهماً بخلاف المقصود ، وإن أتى بها في النظام الكريم لنكتة بلاغية
وهي إفادة المبالغة في مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون
وينفقون ما لا قد أحبوه وطعاماً قد اشتبهوه وأرادوه . . وقيل إن الضمير
في قوله : د على حبه ، . لله عز وجل لا للمال ، أى : على حب الله ، وعندئذ
فلا إطناب في الآيتين ، لأن الإنفاق لا يمدح شرعاً إلا إذا كان ابتغاء
وجه الله ، لا لرياء ، ونحوه ، فالجار والمجرور د على حبه ، صار عندئذ مراداً ،
لا زائداً على أصل الكلام .

ومنه قول زهير :

من بلنى يرمأ على علاته هرما يلقى السباحة منه والتدى خلقاً^(٤)

(١) سورة الإنسان آية ٨ (٢) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٣) سورة آل عمران آية ٩٢ .

(٤) على علاه : العلات جمع علا والمراد بها ما ينوبه من داء البعد والعموز

والاحتياج . .

فقوله : د على علاته ، تتميم حسن أفاد المبالغة في المديح ..
وقول الآخر :

لى على ماترين من كبرى أعراف من أين تؤكل الكتف

يريد أنه داهية ، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها ،
ولذا يكنى عن الداهية بقولهم : يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويضرب هذا
القول مثلاً الإنسان الذى يعرف مداخل الأمور ، وكيف يصل إلى المكنونات
داخل الإنسان ، فقول الشاعر : د على ماترين من كبرى ، تتميم جميل أهد
به المبالغة فيما وصف به نفسه .

وبتصبح لك عما سبق أن التتيم يختلف عن الإيغال من جهتين :

١ - التتيم مفيد بكونه فضلة ، والإيغال لا يتقيد بهدا ..

٢ - التتيم يكون في وسط الكلام وفي آخره ، أما الإيغال فلا يكون
إلا في آخر الكلام .. كما يختلف التتيم عن التكميل من جهتين أيضاً :

١ - التكميل يدفع به توهم غير المراد ، والتتيم لا يدفع به إيهام وإيهام
يؤتى به لئلا يظن بلاغية أخرى ..

٢ - التتيم مفيد بكونه فضلة ، والتكميل لا يتقيد بذلك ..

٨ - الاعتراض : وهو أن يؤتى في أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين
متصلين في المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيداً لاولهما أو بياناً له أو بدلاً أو معطوفاً ،
بجملته أو أكثر لأجل لها من الإعراب لئلا يكتفى بسوى دفع الإيهام ، وذلك كالنمزيه
في قوله تعالى : « وَنَجْعَلُكَ لِقَاءَ اللَّهِ الْبَاقَاتِ - سُبْحَانَكَ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ »^(١)
بجملته وسبحانه ، جملة اعتراضية والغرض منها : تعزيزه تعالى عن المحاذ

البنات ... و د سبحانه ، جملة ؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذي هو التزنية
والمعنى : أنزهه تنزيها . . . وكألة عظيم في قوله جل وعلا : « فَلَا أُقْسِمُ
بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَدْرُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ أَقْرَبُ أَنْ كَرِيمٌ » (١)
فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ،
وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو لو تعلمون ،
وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفي ذلك تعظيم للمقسم
عليه وهو القرآن الكريم ، وتنويه برفعة شأنه .

وكالتقرير في قوله تعالى : « قَالُوا : تَأْتِيهِمْ أَقْدٌ عَلَيْهِمْ مَا جِئْتُمَا لِلْغَيْبِ
فِي الْأَرْضِ . . » (٢) فجلة « لقد علمتم » جملة معترضة بين القسم والجواب
لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبهمة عن تهمة السرقة . . .
وكالملاءمة في قول الشاعر :

لن الثمانين - وبأختها - قد أحوجت سمعي إلى ترحان .

يخبر الشاعر بتقديم منه وضعف سمعه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر
له القول لسمع ، وجملة : « وبأختها » جملة معترضة أريد بها الدعاء للمخاطب
بطول العمر ، وإثارة عطفه على الشاعر .

وكالتصريح بما هو المقصود في قول كثير عزة :

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك لعلموا الناس المطالا

فقوله : « وأنت منهم » جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود
من ذمها ، وتأكيده انصراف الذم إليها .
والتنبيه كما في قول الشاعر :

واعلم - فعلم المرء ينفعه - أن سوف يأتي كل ما قدرا

(١) سورة الواقعة آية ٧٥ - ٧٧ . (٢) سورة يوسف آية ٧٣ .

بجمله : د فاعلم المرء بنفعه ، جملة معترضة ، الغرض منها التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه . . ومثله قول الآخر :
فلا هجره يهجو - وفي اليأس راحة -
ولا وصله يهدو لنا ففكاره

بجمله : ، وفي اليأس راحة ، ، اعتراضية ، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبه الهجر ، وذلك لأن طلب هجر الحبيب وتبني وقوعه أمر فيه غرابة ، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله : ، وفي اليأس راحة ، .

وكالاستعطاف في قول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - باجتن - لرأت فيه جهنم

فقوله : ، يا جنتي ، جملة اعتراضية ، لأنها بمعنى : أدعو ، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف وما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ - سَخَاتِهُ أُمُّهُ وَهَمَّا عَلَىٰ وَغْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَتَيْنِ - أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ » . (١) فقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » تفسير لقوله : « وصينا » ، وقوله « حلتته أمه وهما على وحن وفصاله في عامين » اعتراض بينهما ، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأم والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانتها وقاسته من آلام . . . وقوله عز وجل : « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ الذَّكَرُ كَلَّا لَأُنْثَىٰ ، وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . » (٢) ، وقوله جل وعلا : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ الذَّكَرُ كَلَّا لَأُنْثَىٰ » ، اعتراض وقع بين قولی امرأة عمران يفيد تأكيد ما أخبرت به ... وقوله تعالى : « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ »

الله . إِنْ اللهُ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ . قَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتَى شَيْئْتُمْ . . (١) ، نقوله : ، نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، بيان لقوله : قَاتُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل :
 « إِنْ اللهُ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » ، والغرض من هذا الاعتراض :
 الترغيب فيما أمر الله به والتنفيد عما نهى عنه ، إذ الغرض الأصلي في الإتيان هو طلب العمل ، لا قضاء الشهوة ، فلا تاتوهن إلا من حيث يتأتى من
 الإتيان لتحقيق هذا الغرض ، وفي الاعتراض بما ذكر ترغيب في الأمر وتنفيذ
 من النهي .

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتي بغیر
 الواو والفاء ، وقد يأتي بإحدىهما فتسمى - الواو أو الفاء ، عندئذ واو
 الاعتراض أو فاء الاعتراض ، وتختلف واو الاعتراض . عن
 واو المطف أو الحال ، والتمييز بين تلك الواوات ، قد يكون بينا
 واضحا وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروى ،
 انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ
 مِنْ بَدَنِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ . . . (٢) ، نجد أن الواو
 في قوله : « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » ، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون
 اعتراضية ، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة ، كانت الواو حالية والمعنى :
 ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين بإتخاذهم ، وإذا قصد استقلال جملة :
 « أَنْتُمْ ظَالِمُونَ » عن الاتخاذ ، كانت الواو اعتراضية والمعنى : ثم اتخذتم
 العجل وأنتم قوم عادتمكم الظلم ، فتكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيد الظلم
 ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور . . . ولذا نجد أن تمييز واو
 الحال ومثلها واو المطف ، من واو الاعتراض ، قد يدق ويغمض بحيث
 يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق .

(١) سورة البقرة آية ٢١٣ ، ٢٢٣ . (٢) سورة البقرة آية ٥١ - ٥٢ .

وعما ينبغي أن تقف عليه وتعلمه ، أن الإطناب ليس مقصورا على تلك
الأنواع التي ذكرناها ، بل قد يقع بغيرها ، فنمقتها : مقادير الذكر
التي مرت بك في أحوال المسند والمسنود إليه ومتعلقات الفعل . ومنها ما يكون
بالإضافة في جواب الاستفهام حيث يقتضى المقام الإطناب را : امتداد القول ،
كما رأينا في قوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتٌ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ
أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا فَاُفُتِّسْ بِهَا عَلَى غَمَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى » . (١) .
وكما في قوله تعالى : « وَانْزِلْ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْزِيلًا » . إذ قال : لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ :
مَا تَتَّبِعُونَ . قالوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ مِنْهَا عَاكِفِينَ . (٢) ، فقد كان
يكفى أن يقال في الجواب . « أصناما » ، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة :
« نعبد » ، ثم أضافوا : « فننزل لها عاكفين » ، ليظهروا ابتهاجهم بعبادتها ،
وافتنخارهم بالمراظية على تلك العبادة ، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد
غيظ السائل وهو إبراهيم عليه السلام . . . ومن الإطناب زيادة بعض
الأحرف في النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية ، كزيادة « أن » بعد
« لَمَّا » في قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَانزَلَهُ
بَصِيرًا » . (٣) ، فزيادة « أن » بعد لَمَّا في الآية الكريمة ، دللت على أن المجيء
لم يكن على الفور بل كان هناك تراخ وتباطؤ ، لئلا ما كان بين يوسف وأبيه
عليهما السلام ، وكذا قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي وَوَدَّ
عَدُوًّا لَهُمْ قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ كَمَا قَفَلَتْ أَنْفُسُ بِالْأُمْسِ » . (٤)
فقد زيدت « أن » بعد لَمَّا ، للدلالة على أن موسى عليه السلام لم يسارع إلى
قتل الثاني كما سارع إلى قتل الأول ...

وكزيادة « ما » بعد « إذا » في نحو قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَحْتَلِفُونَ »

(٢) سورة الشعراء آية ٢٧ - ٢٦ .

(٤) سورة القصص آية ١٩ .

(١) سورة طه آية ١٨ .

(٣) سورة يوسف آية ٩٦ .

كِبَارِ الْإِنْمِ وَالنَّوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ..»^(١) ، فزيادة
 د ما ، في الآية الكريمة دلت على ندرة حدوث الغضب من دولا . فهم
 لا يغضبون إلا قليلا وإذا ما غضبوا هم يغفرون ويعفون عن أغضبهم . . .
 وفي قول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبنا مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

دلت زيادة د ما ، على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن
 يغضبوا ، فهم يعفون كثيرا ولا يغضبون إلا نادرا ، وحين يضطرم الغير إلى
 الغضب ينتقمون شر انتقام ، فغضبهم إنما هي غضبة الحليم . . . ومن
 الإطناب زيادة بعض السجلات التي يفيد زيادتها تأكيداً اقتضاء المقام ،
 على نحو ما رأينا في مثل قولهم رأيت بهي وسعته بأذن وقلة بمعنى . . .
 وقوله تعالى : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ
 لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »^(٢) ، وقوله تعالى :
 « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي
 تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ
 بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ »^(٣) ، وقوله تعالى :
 « قَدْ مَسَّكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ النَّوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
 السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْمُرُونَ »^(٤)

فالروية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول
 لا يكون إلا بالفم والألسنة ، والقلب لا يوجد إلا في الجوف والسف

(٢) سورة النور آية ١٥

(١) سورة الشورى آية ٣٧

(٤) سورة النحل آية ٢٦

(٣) سورة الأحزاب آية ٤

لا يكون إلا من فوق ، وقد زبدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذي اقتضاه
المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق .
وهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصودا على تلك الأنواع المذكورة ،
بل يتعداها إلى كل زيادة في النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتعالبه .

• • •

المساواة

قالوا في تعريفها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون
الألفاظ على قدر المعاني ، لا يزيد بعضها عن بعض ، ولا ينقص . . . وقد
أخذوا من متعارف الأوساط مقياسا يقيسون عليه الكلام ، فالكلام إذا
قل عن متعارف الأوساط كان إيجازا ، وإذا زاد عنه كان إطنابا ، وإذا جاء
على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهي في باب البلاغة لا تعتمد ولا تنضم .
واستشهدوا لما بنحو قوله تعالى : « وَلَا يَحْقِيقُ الْكَرُّ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »^(١)
وقوله عز وجل : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوتُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ خَيْرٍ . . »^(٢) ، وقول الرسول - عليه الصلاة
والسلام - : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » وقول الفايضة الذبياني :
فإنك كالليل الذي هر مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا وبأتيك بالآخبار من لم تزود
وقول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(٢) سورة الأنعام آية ٦٨ .

(١) سورة طاهر آية ٤٣ .

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التي استشهد بها البلاغيون للمساواة ، لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب ، فمثلاً في الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها في الفظم الكريم : « اسْتَعِزَّ كِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَسْكُورَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَسْكُورُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » تراها قد وُثِّتَ تذييلًا ، والتذييل - كما عرفت - من أنواع الإطناب ، ثم إنها أسلوب قصر ، والقصر من الإيجاز ، وقوله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا . . . » الآية ، وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم . « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات ، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر ، لأن المعاني التي تسكن في الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة ، وألفاظهما قليلة - كما ترى - وهذا هو إيجاز القصر الذي مر بك . . . وتجد الشطر الثاني من بيت النابغة : « وإن خلت أن المنتهى عنك واسع ، تذييلًا غير جار مجرى المثل ، كما تجد في الشطر الأول من بيت طرفة إيجازًا يحذف الجار والمجرور والثقة - دير : « مستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً به . . . وفي بيت زهير تجد قوله : « وإن خالها تخفى على الناس ، اعتراضًا بين الشرط وجوابه .

وهكذا نستطيع أن نرجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة ، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب ، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع في التعبيرات الجميدة والكلام البليغ ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغة وقالوا : إنها لا نحمد ولا نذم في باب البلاغة .

تم بحمد الله تعالى في ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧ هـ .

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦ م .

والحمد لله أولاً وآخراً . . . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أهم مراجع الكتاب

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي ١٣٩٨ هـ .
- ٢ - أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ
ت : محمد عبد المنعم خفاجي .
- ٣ - الأسلوب للدكتور أحمد الشايب . طبعة السعادة . الطبعة الخامسة .
- ٤ - أساليب الاستفهام في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور
بسيوني عبد الفتاح مخطوط بالأزهر (رسائل) .
- ٥ - إعجاز القرآن للباقلاني . ط : دار المعارف ١٩٧٧ م : السيد صقر .
- ٦ - أمالي المراتبي ط : الحلبي ١٣٧٣ هـ : محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٧ - الإيضاح للقرطبي وبهامشه البغية للصعدي ، ط : ٢ : بيع ١٣٩٢ هـ .
- ٨ - البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ط : دار إحياء الكتب العربية
١٩٥٧ م : محمد أبو الفضل .
- ٩ - البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى ، ط :
دار الفكر العربي .
- ١٠ - البيان والتبيين للجاحظ ، ط : الثاني ، ت : عبد السلام هارون .
- ١١ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ط الحلبي ١٣٧٣ هـ .
- ١٢ - تنزيه القرآن عن المطاع لعبد الجبار ، ط : دار النهضة - بيروت .
- ١٣ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ط : دار المعارف ١٩٧٦ م .
- ١٤ - جهرة أشعار العرب لآني زيد القرشي ، ط : جامعة الإمام
محمد بن سعود ، ت : محمد الماشي .
- ١٥ - حاشية الشهاب الخفاجي على البضاوي ، ط : دار الطباعة الخديوية .
- ١٦ - الحيوان للجاحظ ، ط : الساسي ١٩٥٠ م .

١٧ - الخصائص لابن جني ، ط : دار الهندي ببيروت ، ت : محمد
عل النجار .

١٨ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو مرسى ، ط : دار التضامن
١٩٨٠ م

١٩ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالةت : محمد عبد المنعم خفاجي .
٢٠ - دلائل التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، دار المعلم ١٣٩٩ هـ .
٢١ - روح المعاني للأوسى ط : دار إحياء التراث العربي ببيروت .
٢٢ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، ط : الخانجي ، ت : علي فردة .
٢٣ - شروح التلخيص .

٢٤ - شرح المعانيات للوزني ، ط : المطبعة التجارية ١٩٧١ م .
٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ط : دار المعارف ١٩٦٧ م ، ت :
أحمد شاكر .

٢٦ - الصاحبي لأحمد بن فارس ، ط : المؤيد ١٣١٨ هـ .
٢٧ - الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ط : الحلبي ١٩٧١ م .
٢٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ط : المدني ، ت : الأستاذ
محمود شاكر .

٢٩ - الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ، ط . المقتطف ١٣٢٢ هـ .
٣٠ - عقود الجمان للسيوطي ، المطبعة الشرقية ١٣٠٥ د .
٣١ - العمدة لابن شيق ، ط : دار الجليل ، ت : محمد محي الدين .
٣٢ - عيار الشعر لابن طباطبا ، ط : شركة فن الطباعة ١٩٥٦ م .
٣٣ - الكتاب لسبويه ، ط : الهيئة المصرية ١٩٧٧ م ، ت : عبد السلام
هارون .

٣٤ - الكشف للزمخشري ، ط : الحلبي ١٣٩٨ هـ .
٣٥ - الكمال للبرد ، ط : نهضة مصر ١٩٥٦ م ، ت : محمد أبو الفضل .
٣٦ - لسان العرب لابن منظور ، ط : دار المعارف .

- ٣٧ - متشابه القرآن لعبود الجبار ، ط : دار النصر ١٩٦٩ م ، ت :
عدنان زرزور .
- ٣٨ - المثل السائر لابن الاثير ، ط : الحلبي ، ت : محمد محي الدين .
- ٣٩ - مجمع الأمثال للميداني مطبعة السعادة ١٣٧٩ هـ ت محمد محي الدين .
- ٤٠ - مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ط : الخانجي ، ت : محمد فؤاد .
- ٤١ - معاني القرآن للفراء ، ط : الهيئة المصرية ١٩٨٠ م .
- ٤٢ - المطول لسعد الدين التفتازاني .
- ٤٣ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ، ط : السعادة ، ت :
محمد محي الدين .
- ٤٤ - المغني للقاضي عبد الجبار ج ١٦ في إعجاز القرآن ، ط : وزارة
الثقافة .
- ٤٥ - معني اللبيب لابن هشام ، طبعة المدني ، ت : محمد محي الدين .
- ٤٦ - مفتاح العلوم للسكاكي . ط : الحلبي ١٣٥٦ هـ .
- ٤٧ - المفردات للفيحي ط : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ت :
محمود شاكر .
- ٤٨ - مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم
الخولي ، منخطوط بالأزهر (رسائل) .
- ٤٩ - من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار الفكر
العربي ١٣٩٦ هـ .
- ٥٠ - من بلاغة النظام العربي للدكتور عبد العزيز عرفة ، ط : دار الطباعة
المحمدية ١٤٠٢ هـ .
- ٥١ - مناهج تجديد لأمين الخولي ، ط : دار المعرفة ١٩٦١ م .
- ٥٢ - الموطأ للإمام مالك ، ط : الحلبي ١٣٧٠ هـ .
- ٥٣ - الموازنة للأمدى ، ط : المعارف ١٣٨٠ هـ ، ت : السيد صقر .
- ٥٤ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ .

- ٥٥ - النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ م .
- ٥٦ - النقد الأدبي لسيد قطب . ط دار الفكر العربى ١٩٥٤ م .
- ٥٧ - النقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور ط : نهضة مصر ١٩٧٢ م .
- ٥٨ - نقد الشعر لقدامة ، ط : مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩ م ت كمال مصطفى .
- ٥٩ - نقد النثر (البرهان فى وجوه البيان) لابن وهب ، مطبعة مصر ١٩٣٩ م ت : طه حسين وعبد الحميد العبادى .
- ٦٠ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى . مطبعة الآداب ١٣١٧ هـ .
- ٦١ - الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجاني . ط : الحلبي ت : محمد أبو الفضل .
- ٦٢ - يتيمة الدهر للشمس البهى ، ط : الصاوى ١٩٣٤ م .

محتويات الجزء الثاني

الصفحة	الموضوع
١ - ٤	مقدمة :
٧٦ - ٥	الفصل الأول : أهاليب القصر :
٨ - ٥	المزايا البلاغية لأهاليب القصر - معناه - إجمال لما ذكره البلاغيون في القصر
١٩ - ٨	القصر الحقيقي والقصر الإضافي : الفرق بينهما - القصر الحقيقي التحقيقي والحقيقي الادعائي - إمكان قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيًا - أنواع القصر الإضافي - قصر القلب - قصر الإفراد - قصر التعمين - بيان المراد بحال المخاطب الى تحديد نوع القصر الإضافي
٢٨ - ١٩	قصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة : المراد بالصفة - المراد بالموصوف - ضوابط معرفة الصفة والموصوف - قصر الموصوف على الصفة أبلغ من قصر الصفة على الموصوف - الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي
٥٥ - ٢٨	طرق القصر : المطف بلا وبلا ولا كز - آراء البلاغيين في دلالة هذه الأدوات على القصر - النفي والاستثناء - تقديم المستثنى على المستثنى منه - وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر - الاستثناء التام - اجتماع المطف بلا والنفي والاستثناء - إنما - وجه دلالتها على القصر - هل تفيد أنما ، القصر - التقديم - ضمير الفصل - تعريف أحد الطرفين ، بال ، الجنسية :
	أوجه الاختلاف بين طرق القصر : الطرق التي تدل على القصر دلالة وضعية - الطرق التي تدل على القصر دلالة غير وضعية -

الموضوع	الصفحة
ما ينص فيها على المثبت والمنفى مما وما ينص فيها على المنفى أو المثبت فقط - اجتماع طريقين من طرق القصر - الفرق بين الإنشاء والمنفى والاستثناء - تحديد مرقع المقصور والمقصود عليه - جمال التعريض بإنشاء :	٥٦ - ٧٦
الفصل الثاني : أساليب الإنشاء :	٧٧ - ١٦٥
الفرق بين الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري - الإنشاء الطلبي وغير الطلبي - الفرق بينهما - إهمال البلاغيين دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي :	٧٧ - ٨٣
أسلوب الأمر : صيغة - مفهومه - ما يستعمل فيه - المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها :	٨٣ - ١٠١
أسلوب النهي : صيغة - مفهومه - المعاني البلاغية التي يفيدها أساليب الاستفهام : معنى الاستفهام - أدواته - معنى كل أداة - ما يطلب به التصور أو التصديق وما يطلب به أحدهما فقط - بناء الجملة بعد هل والهمزة - خصائص هل - مناقشة ما ذكره البلاغيون في بيان هذه الخصائص - الفرق بين هل وهمزة التصديق - المعاني البلاغية للاستفهام ووجه الدلالة عليها :	١٠١ - ١١٠
النداء : معناه - أدواته - دلالاته على الطلب - نداء البعيد نداء القريب - نداء القريب نداء البعيد - أغراضه البلاغية - تقوى أساليب الأمر والنهي والاستفهام بالنداء :	١١٠ - ١٤٤
التمييز : معناه - الفرق بينه وبين الترجي - أدواته الموضوعية له - التني بغير تلك الأداة وأمراره - حروف التنديم والتعريض : ١٥٥ - ١٦١	١٤٤ - ١٥٥
التعبير بالخبر في موضع الإنشاء - التعبير بالإنشاء في موضع الخبر - تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء :	١٦١ - ١٦٥

الصفحة	الموضوع
٢٣٢ - ١٦٦	فصل الثالث : الفصل والوصل :
	قصة هذا الباب - العطف بغير الواو وما وراءه من دقائق - عطف المفردات - مناقشة ما يراه البعض في المفردات وأنها تعطف الواو إذا كانت متجانسة متجانسة - عطف الصفات - عطف لصفة علم الموصوف والحال على صاحبها - مناقشات : ١٦٦ - ١٧٧
١٨٥ - ١٧٧	وصل وفصل الجمل التي لها محل من الإعراب :
	واضع الفصل بين الجمل : كمال الاتصال - كمال الانقطاع بلا إيهام - شبهة كمال الاتصال - شبهة كمال الانقطاع - الفصل لعدم الاشتراك في القيد :
٢١٨ - ١٨٥	مواضع الوصل بين الجمل : التوسط بين السكابين - كمال الانقطاع مع الإيهام :
٢٣٠ - ٢١٨	الجامع بين الجملتين - محسنات الوصل - فروق في الجملة الحالية ٢٣٢ - ٢٢٠
٢٧٧ - ٢٢١	فصل الرابع : الإيجاز والإطناب :
٢٣٤ - ٢٣٣	لمحة تاريخية - مقامات الإيجاز - مقامات الإطناب :
٢٢٩ - ٢٣٤	إيجاز : معناه - أنواعه - إيجاز القصر - تحليلات :
	إيجاز الحذف : معناه حذف جزء الكلمة - حذف الكلمة - حذف الجملة - حذف الجمل - قرآن الحذف :
٢٥١ - ٢٣٩	إطناب : معناه - الفرق بينه وبين التطويل والحشو - نوعا لحشو - مناقشة ما قاله البلاغيون في الحشو والتطويل :
٢٥٧ - ٢٥١	نواع الإطناب : الإيضاح بعد الإيهام - باب نعم وبئس - توشيح - ذكر الخاص بعد العام - ذكر العام بعد الخاص :
٢٦٠ - ٢٥٧	تكرار وأغراضه - الإيغال : معناه وروده في الشعر والنثر - تنذيل : أنواعه - الفرق بينه وبين الإيغال :
٢٦٦ - ٢٦٠	تكميل - التتميم - الفرق بينهما - الفرق بين التتميم والإيغال -

